رفيق شامي

يدٌ ملأى بالنجوم

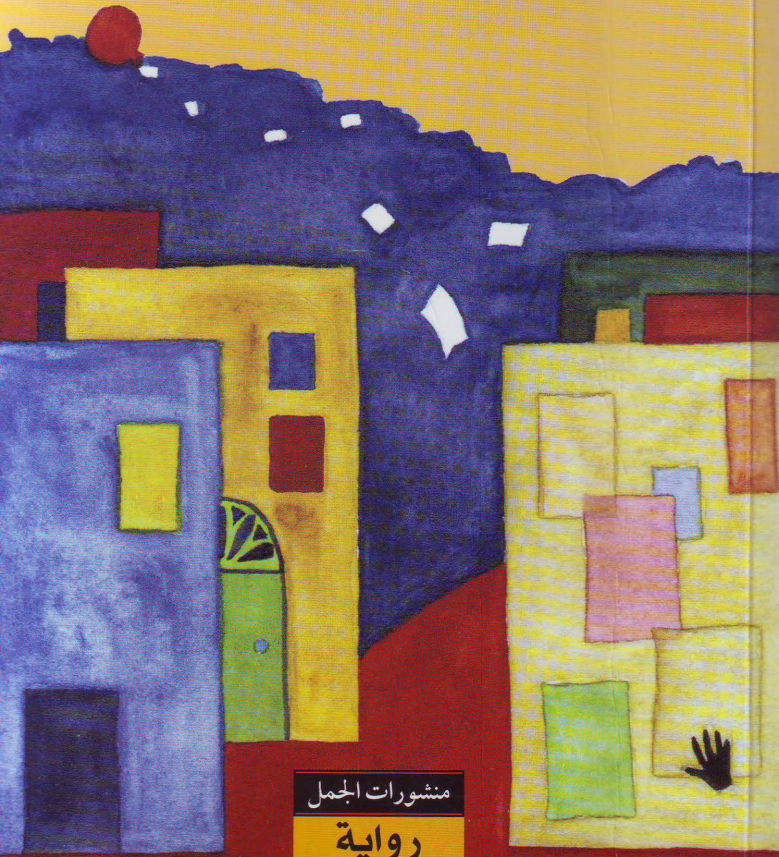

منشورات الجمل

رواية

يدٌ ملأى بالنجوم

رواية

ترجمة
كاميران حوج

منشورات الجمل

ولد **رفيق شامي** (اسمه الحقيقي: سهيل فاضل) في دمشق عام ١٩٤٦. درس الرياضيات والفيزياء والكيمياء لكي يعمل معلماً في المدارس، غير أنه ترك البلاد عام ١٩٧١ إلى ألمانيا حيث درس الكيمياء وحاز الدكتوراه عام ١٩٧٩ وعمل لسنوات عدة في اختصاصه. صدر كتابه الأول بالألمانية عام ١٩٧٨ وتفرّغ للعمل الأدبي منذ ١٩٨٢. مُنح عشرات الجوائز تقديراً لأعماله في ألمانيا وفي خارجها ويعتبر اليوم واحداً من أنجح الكتّاب في ألمانيا، وهو عضو في أكاديمية بافاريا للفنون الجميلة منذ عام ٢٠٠٢. تُرجمت أعماله إلى ٢٣ لغة. صدر له باللغة العربية: **التقرير السري عن الشاعر غوته** (٢٠٠٥).

ولد **كاميران حوج** عام ١٩٦٨ في تل إربد ـ سوريا. له العديد من الترجمات عن الألمانية، منها: **غونتر غراس: في خطو السرطان**، قصة (٢٠٠٦)؛ **باتريك زوسكند: العطر**، رواية (٢٠٠٧)؛ **الحمامة**، قصة (٢٠٠٧)؛ **ثلاث حكايات**، قصص (٢٠٠٧)؛ **شتيفان فايدنر: الأسئلة الخفية**، محاولة للاقتراب من الإسلام (٢٠٠٧).

Rafik Schami: Eine Hand voller Sterne, Roman
© Beltz & Gelberg, Weinheim und Basel 1987

رفيق شامي: يدٌ ملأى بالنجوم، ترجمة: **كاميران حوج**

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

جميع حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) ـ بغداد ٢٠٠٨

رسمة الغلاف روت ليب

© *Al-Kamel Verlag 2008*

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

ساهم معهد غوته في جزء من تكاليف ترجمة هذا الكتاب

إهـــداء

إلى أخواتي وإخوتي والأصدقاء والجيرة
في حي العبارة الدمشقي الصغير
مع حب بحجم السماء.

رفيق

ملاحظة لا بد من قولها
عن هذه الرواية

يد ملأى بالنجوم صدرت بالألمانية قبل عشرين سنة بالضبط. كنت آنذاك أتنقل من مدينة لأخرى في رحلة طويلة أقدم بها كتبي القليلة لجمهور صغير يتشوق للاستماع إلى قصة أدبية مثيرة. كانت الرحلة متعبة والأجر بالكاد يكفي لسد كلفة التنقل والعيش. لكن لم يكن لدي خيار آخر، فالنقد الأدبي وبائعو الكتب في ألمانيا لم يعنهم آنذاك شأن أدب مهجري ينشأ بخجل على ضفاف أنهار الأدب الألمانية والعالمية التي تغمر الأسواق والتي تفشل في غالبيتها بالوصول للقراء فكيف الحال بكاتب أجنبي يريد بكل وقاحة اقتحام قلاع الأدب الألمانية متطاولاً على لغة غوته ويريد وبكل جرأة خلط أوراق اللعب التي صفت ورتبت بعناية فائقة وإحكام شديد.

كان جدار الصمت يحاصر بسكونه كل إنتاجنا الأدبي. لكن لكل جدار نقطة ضعف. ظن بعضهم بأن سقوط الجدار مرهون بواسطة عرمرمية لسفارته ودولته فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار. وظن آخرون بأن التملق والذوبان في المجتمع الألماني ينقذه من عزلة الدار فذاب أولاً واختفى من دون أن يترك أثراً. وظن ثالث بأن بكائيات

المنفلوطي هي السبيل إلى قلوب القراء فتحول إلى حائط مبكى. وهاجم أحدهم القراء لأنهم لا يقدرون عبقريته فضحك القراء ظناً منهم بأن سماجة وقذاعة الشتيمة كوميديا شعبية رخيصة.

العزلة تدفع البشر العاديين جداً للتصرف بغرابة تصل إلى حدود المهزلة وهكذا الأدباء متى ذاقوا مرارة العزلة.

كنت أخشى كل ذلك فأنا لعبت ولمدة طويلة دور الشاهد العيان لكل هذه الانسلاخات المؤلمة للكتاب.

مع مر السنين لاحظت أن الشعب الألماني يقرأ بشغف وينصت لمحدثه بكل تركيز. بدأت في منتصف السبعينات وحتى نهاية هذا العقد برواية قصصي القصيرة الساخرة منها والعجائبية كلما سنحت لي الفرصة إلى جانب عملي كباحث كيميائي. ولاحظت الاهتمام الكبير للقصص الغريبة.

دور النشر في ألمانيا لم تكن بنفس انفتاح الجمهور على العالم وشوقه للجديد. لكن الصبر بدأ في مطلع الثمانينات يحمل ثماره ويبشر بالخير.

الشيء الأهم هو بدء جدار الصمت اللعين بالتصدع. حدث ذلك ببطء شديد، حتى أن أقرب الأصدقاء لم يلاحظ ذلك لكني شعرت به. وتركت عملي ككيميائي وبدأت برحلة طويلة لا تزال مستمرة حتى اليوم. رحلة مع الأدب ليس كهواية بل كفن أعيش له ومنه كل يومي.

كثفت محاضراتي وبدأ قطر دائرة رحلاتي ينمو وشمل بعد أقل من سنتين ليس المدن المجاورة فحسب بل مدن ومناطق تبعد حتى ٧٠٠ كم عن مسكني. ولم أترك مدرسة، جامعة، مكتبة، نادياً أدبياً

أو ثقافياً، مركز شبيبة إلا وقدمت له عرضاً لأمسية أدبية بحتة (من دون أي مرافقة لا بهز البطون ولا الصحون). منذ البدء أيقنت أن علي أن أحدد بالضبط ما الذي أريده ولا أتراجع عنه. وهذا ما أصريت عليه من دون أية مياعة وفي الوقت نفسه كنت سمحاً إلى حد الغباء بما يتعلق بالأجر والمبيت والطعام.

كان الأمر مرهقاً حقاً إذ تجاوز عدد محاضراتي في سنوات الثمانينات الأولى الـ١٥٠ محاضرة في السنة. كنت ألقي أحياناً ثلاث محاضرات في اليوم الواحد، في المدرسة للطلبة قبل الظهر، في مكتبة المدينة للشبيبة بعد الظهر، وعند المساء محاضرة طويلة للبالغين مع حوار. . .

وكنت أرجو كل من أحل عليه ضيفاً سواء في بيته أم في الفندق أن يؤمن لي آلة كاتبة (الكومبيوتر لم يكن منتشراً كما هو الوضع في هذه الأيام)، وكان المضيفون كرماء حقاً. ففي كل مدينة كانت آلة كاتبة مع كمية من الورق تنتظرني. . كنت أستغل كل مناسبة للكتابة.

في ذلك الوقت وعبر مئات من ساعات الحوار مع الشبيبة والأطفال الألمان تبين لي خلو كل مكتباتهم من أي كتاب عن الحياة في بلادنا. . الشرق كان خواءً وإذا سألت ألمانياً عنه تبادر البترول والحرب إلى ذهنه.

«لكننا أكثر من الحرب والبترول» كررت من دون فائدة فقررت إلى جانب عملي في روايتي الكبيرة «الوجه المظلم للحب» أن أبدأ برواية تشرح يومياتنا لمن لا يعلم شيئاً عنا. كان هدفي الأول بعيداً عن الأدب. كان جل مبتغاه توعية الطلبة وكنت آمل من ذلك بأن يفهم

هذا الجيل حياة الشبيبة في بلدي ليس أكثر.. موضوع يبدو للوهلة الأولى بسيطاً للغاية لكنه بالتأكيد ليس كذلك فسرعان ما يتحول الشرح إلى دفاع عن أمكنة الطفولة ترافقه عمليات تجميل متلاحقة تحول غبار الحي إلى تبر متألق ورائحة المجاري إلى ياسمين وحبق وسائر الخزعبلات التي تحول الوجه الجميل لشعبنا وأحيائنا إلى كاريكاتور متهافت طنان وفارغ كالطبل.

لم أكتب أكثر من عشرين صفحة حتى شعرت بالملل.

أعدت الكرة وحاولت هذه المرة إبعاد كل فكرة الحديث لقارئ معين. تصورت أنني أحكي ما يجري في حيّنا لصديق من منطقة أخرى في دمشق مثل حي المهاجرين أو الميدان أو الصالحية.. حيث تعودنا في المدرسة البطريركية في حارة الزيتون أن نحكي لبعضنا من دون وجل أو خجل. ولا زلت أذكر أننا كنا نُضحِك زملاءنا المسلمين بحكايات طريفة (وأحياناً لا تخلو من السمية) عن الكهنة، وهم يتكرمون علينا بحكايات مماثلة عن شيوخهم. كان هذا قمة الأخوة وهو عكس التراث القبيح الأصولي بشقيه الإسلامي والمسيحي الذي يقدّس ذاته ويقذح الآخر ببذاءة.

هكذا بدأت من جديد بكتابة رواية على شكل رسائل لصديق من حي المهاجرين سافر إلى أميركا ويراسل أصدقاء عدة من أحياء مختلفة من دمشق ليروي عطش حنينه.. ونجحت الفكرة وبدت أكثر قسوة وجمالاً لكنها لم تصمد أمام الاستمرارية على طول رواية. لماذا؟ لأن صدقيتها بدأت بالتصدع، إذ إن كتابة الرسائل متعبة للطرفين. وإذا سلمنا بعناد الكاتب في دمشق فمن هذا المهاجر الذي يراسل خمسة

أشخاص ويؤدي واجبه بالإجابة عن كل منهم. وبحسب التخطيط ولكي لا تصبح كل رسالة بحجم ٣٠ ـ ٤٠ صفحة كان على المراسلة أن تستمر ثلاث إلى أربع سنوات... ثلاث إلى أربع سنوات رسائل؟

تذكرت أن الرسائل في مهجري الألماني بدأت تشح حتى من وإلى أقرب الناس إليَّ بسرعة. فبعد سنة واحدة اضمحل عدد الرسائل إلى رسالة في كل شهر من الوالد ـ رحمه الله ـ ورسالة في السنة (كرت معايدة) من الأقارب في عيدي الميلاد ورأس السنة..

الأمر الثاني أهم. قلة هي الرسائل التي تحتفظ بمستواها الرفيع ولا تتهاوى لمجرد ترداد لتحيات وأسئلة روتينية عن الصحة والعيال وأحياناً عن الطقس.. بالإضافة إلى واقعة الرواية حيث على البطل أن يكون شاباً صغير العمر (بين ١٤ و١٨ سنة) وأن كل فلسفة في رسائل لا يمكن أن يصدقها قارئ...

«وجدتها» صاح أرخميدس كما تروي الخرافات شبه العلمية..وقلتها أنا بصوت خافت في غرفة في فندق صغير على الحدود الألمانية ـ الفرنسية حيث أمضيت أسبوعاً كاملاً في مدرسة أحاضر عن الشرق وأناقش التلاميذ حول الحياة في دمشق...

وجدتها..أي شاب يمكنه ـ في الشرق والغرب ـ أن يكتب يومياته سواء بالغ في وصف ما يدور حوله ومعه أم لم يبالغ...

وأول ما يلزم هذا الشاب (أو الشابة) مخبأ أمين من عيون الفضوليين ليومياته التي قد تحوي هذا وذاك من الأسرار. وبعد ذلك؟ اليوميات يمكن لها من دون أن تفقد شيئاً من صدقيتها أن تصدر متقطعة إذا افترضنا أن الكاتب شاب ينسى يومياته في يومه المليء

بالأحداث.. هذا الانقطاع يسمح بإستيعاب لأحداث كثيرة بصورة مركزة ويسمح بالتفصيل والتركيز بحسب مزاج ورؤية الكاتب مما يعطي الرواية هيكلاً ديناميكياً بعيداً عن السرد المستقيم البسيط البنية. هنا تشبه حركة السرد آلة الأكورديون الموسيقية في ضغطها وانفراجها. ومن هنا تنتج موسيقى للنص مليئة بالديناميكية والفرح رغم كل الحزن والخطر الذي يحيط بأبطال الرواية.

وهذا ما شعرت به منذ أول يوم على هذا الطريق.

وفجأة كتبت بشكل مختلف جداً عن كل ما كتبته حتى ذلك التاريخ. لم أحدث قراء وقارئات ألمان أو عرب إنما كنت في كل صفحة أحكي لنفسي قصصاً من حي العبارة الشعبي الذي عشت فيه والذي أدين له بالكثير.. ولم يخطأ أحد النقاد الألمان عندما سمى الرواية: إعلان لحب إلى حد الوله لحيه الدمشقي ولطفولة ذهبت إلى غير رجعة.

كنت أكتب متنقلاً من فندق لفندق ويومي يشبه بحدة تبدله وتقلبه وحدات اليوميات التي أكتبها وكأنها قطع مرآة تحطمت وأنا في محاولة صابرة لإعادة تشكيلها جزءاً فجزء.

لم يقتنع ناشري بكل حماستي وأصدر الرواية بغلاف سيئ رخيص. لكن المفاجأة أجبرته بعد أقل من سنة على تغيير رأيه. بالطبع كنت آمل كما يأمل كل كاتب بأن يجد كتابي طريقه إلى قرّائه (مع أن كثيراً منهم يدّعي أنه لا يهتم إن قُرأت أعماله أم لم تُقرأ. وهذه كذبة رخيصة إن لم تكن حالة انفصام شخصية، وفي كلا الحالتين يستحق هؤلاء الكتاب الشفقة). المفاجأة كانت كبيرة أن طبعة الكتاب الأولى

(٥٠٠٠ نسخة) بيعت ببطء على مدى عام لكن الكتاب احتل مكاناً مرموقاً في أعين النقاد. ليس فقط أمطرت الصحافة مديحها بكرم بل أن دار النشر تفاجأت أن حقوق ترجمة الرواية بيعت إلى ١٥ لغة في أقل من سنة. بعد هذه السنة الأولى أصدرت دار النشر طبعة أنيقة جداً.

وغني عن التنويه أن كل أشخاص الرواية، مكانها وزمانها من صنع الخيال، وأي تشابه بينها وبين أمكنة وأشخاص وأحداث في دمشق فهو محض صدفة.

كل ما آمله لروايتي باللغة العربية أن يجد أبطال هذه الرواية طريقهم إلى قلوب الشبيبة وعقولهم بغض النظر عن أعمارهم المسجلة على الهوية.

رفيق شامي

ألمانيا ـ ربيع ٢٠٠٨

١/١٢

«آه لو أعرف فك الحرف. خسارة! فأنا عايشت الكثير مما يستحق الكتابة، واليوم لا أذكر ما الذي كان يؤرق ليلي قبل سنوات».

فقلت للعم سليم مواسياً: «لكنك يا عمي تعرف الكثير».

أجابني: «لا يا صاحبي، لا. لا يبقى في الذاكرة من الطبيعة إلا الجبال وبعدها تختفي الجبال لتبقى القمم، وكل شيء، كل شيء يختفي في الضباب. لو أني تعلمت القراءة، لما رأيت الجبال والحقول والوديان وحدها، بل لأعدت اكتشاف أشواك الوردة شوكة شوكة. فعلاً، الصينيون ناس عظماء».

أدهشني أن يأتي العم سليم فجأة على ذكر الصينيين، وعندما سألته عما ذكَّره بهم الآن، شرح لي: «باختراع الورق جعل الصينيون فنون القراءة والكتابة في متناول الجميع وأنزلوا الكتابة من المعابد وقصور الملوك إلى الشارع. إنهم فعلاً عظماء».

وهكذا، قررت، بعد شرب الشاي عند العم سليم، أن أكتب يومياتي. ذاكرتي ضعيفة. لم أعد أعرف اسم أم سميرة، أولى صديقاتي. رأسي مثل الغربال. سأكتب كل يوم.

اليوم ساعدت أبي في المخبز. غاب اثنان من العمال، وهكذا اضطر لأن يعجن وحده، أن يرقق العجين وحده، ومن ثم أن يقف أمام التنور. أنا كنت أحاسب الزبائن. عادة يجلب الزبائن أكياسهم معهم، ومن نسي كيسه، نلف له الخبز بجريدة. بعد الظهر خف العمل. أخذت إحدى الجرائد التي يبتاعها أبي بالكيلو وقرأت فيها رغم أن أبي كان يتأفف طوال الوقت بأن الأفضل أن أوضِّب أرغفة الخبز. لكني تعودت على تبرمه وتعلمت متى آخذه على محمل الجد ومتى يكون مجرد نوبة تذمر. واصلت القراءة، وهنا لفت نظري المقال القصير، المكتوب عن اليوميات.

«اليوميات مرآة تعكس الحياة» شغلت هذه الجملة بالي طويلاً، فهي تتفق بشكل من الأشكال مع ما قاله العم سليم.

يجب علي أن أقر، لخجلي الشديد، بأني لم أكتب حتى الآن أكثر من صفحة واحدة في المقدمة وبعض الخزعبلات.

كما جاء في المقال المكتوب بأسلوب مسل أن قليلين فقط يكتبون يومياتهم بصراحة والآخرين يكذبون. لكن حتى أكذب الكذابين منهم ستكون له مرآة في المستقبل. لكنها ستكون مرآة مشوهة، مثل المرايا التي نراها في مدينة الملاهي وتعكس صوراً مضحكة.

أنا لا أكذب من دون سبب. أكذب أحياناً لأن البالغين لا يفهمونني.

عمري أربعة عشر عاماً وأقسم بأني سأكتب وأكتب ولن أكف عن الكتابة أبداً. وجدت مخبأ آمناً لدفتر يومياتي. لن يخطر حتى على بال الشيطان. لهذا أستطيع الكتابة بكل حرية وصدق.

سأصف حيّنا باختصار. منذ ولادتي نقل أهلي السكن ثلاث مرات في دمشق ولا أتذكر بالضبط كيف كانت البيوت السابقة. حارتنا ضيقة نسبياً وتقع في القسم الشرقي من مدينة دمشق. قرب بيتنا كنيسة القديس بولص. كثير من السياح يؤمون المكان الذي هرب منه بولص متوجهاً إلى أوروبا.

بيوت الحي مبنية من الطين. في كل بيت تعيش عدة عائلات وله باحة دار (بحرة) في وسطها بركة ماء تدور فيها حياة جميع السكان، ففيها يجتمعون وفيها يتشاجرون. البالغون يسيطرون على البيوت، أما الشارع فهو ملكنا، نحن الأطفال والشحاذين والباعة المتجولين. سطوح البيوت مستوية وعلى نفس الارتفاع تقريباً (لكل بيت طابقان: أرضي وأول) وبهذا نستطيع الانتقال من سطح لآخر كالقطط بكل سهولة.

ما زلت أتذكر يومَ كنا جالسين لتناول الفطور على الشرفة، عندما أطل علينا فجأة شاب من السطح وسأل لاهثاً عن باب البيت. دلته أمي عليه. قفز الشاب إلى الشرفة وركض منها إلى الدرج ومن هناك هرب إلى الحارة. كانت أمي في طريقها إلى المطبخ لتجلب إبريق الشاي عندما ظهر شرطيان فجأة على السطح.

سألها أحدهم: «هل شاهدت فلسطينيا؟»

صرخت أمي في وجهه غاضبة: «فلسطينياً! لا. ألا تستحون من الهجوم على بيوت الناس. فيها نسوان وأطفال».

اعتذر الشرطي وعاد الاثنان من حيث أتيا. أدهشني تصرف أمي، التي تابعت فطورها وكأن شيئاً لم يكن.

في العصر لم أتمكن من كتمان سؤالي أكثر: «لماذا كذبت؟».

قالت: «كان الشاب خائفاً جداً. عنده أم تخاف عليه وأمه لن تشي بكم إذا هربتم من الشرطة».

«وكيف تعرفين هذا؟ هل أنت متأكدة؟».

«نعم، أنا متأكدة. أنا أم» ابتسمت أمي وقبلت جبيني.

٢/١٠

عندي ثلاثة أصدقاء، هم العم سليم وعمره ٧٥ سنة، محمود وعمره ١٥ سنة وجوزيف وعمره بنفس عمري. العم سليم عمل فترة طويلة من حياته حوذياً ويروي أحلى الحكايات عن قطاع الطرق والملوك والجنيات. شاهد الكثير في حياته وعايش كثيراً من قطاع الطرق المشهورين والملوك، وربما أيضاً جنيات. أنا والعم سليم ومحمود نعيش في نفسه البيت. بيت جوزيف يقع مقابل بيتنا.

محمود وجوزيف لم يغادرا سوريا أبداً. أما أنا فقد سافرت إلى الخارج. قضيت سنتين في دير لبناني. كان أبي يريد أن يصنع مني خوريا. كل العائلات الفقيرة تحاول تحسين ظروفها عبر هكذا وظيفة، فالخوري له مقام عال ويرفع شأن العائلة. بعد سنتين هربت من الدير.

أتى التلاميذ إلى هذا الدير من مختلف البلاد العربية وكنا مرغمين على التكلم بالفرنسية. كان على كل طالب جديد أن يدخل دورة مكثفة للغة الفرنسية وبعد شهرين يجتاز فحصاً ويمنع بعدها من النطق

بكلمة عربية واحدة. وإذا قام بذلك حصل على قرص خشبي عليه الحرف الفرنسي S، تعبيراً عن كلمة (سينيال = إشارة)، وكان على تعيس الحظ هذا أن يخفي القرص بسرعة في جيبه ويتربص لضحية أخرى ليدسه في يده. أما إذا احتج فإنه يفضح نفسه، وبالتالي يتحاشاه الطلاب الآخرون لأنه يحمل الإشارة وكأنه الظربان النتن. كان على من يدس القرص في يده أن يأخذه بسرية تامة ويتسلل بين التلاميذ حتى يتكلم أحد في حضوره كلمة بالعربية. على هذا تدربنا كلنا لنصبح جواسيس صغاراً. وكان على آخر من ابتلي بالقرص الخشبي مساءً، أن يتناول العشاء راكعاً. لذلك كان مجال الحرية أرحب إذا حصل عليه التلميذ في الصباح الباكر وضيق جداً قبل الغروب.

كان قرص (السينيال) يولد إحساساً غريباً لدى مالكه. لن أنسى هذا الشعور أبداً. كنت أحسه حاراً في جيبي وكأنه مدفأة. وشعرت بأن لي رغم تعاستي سلطة على الآخرين. كنت رحيماً مع الأصدقاء وأسمح لهم برحمة متسلط أن يتكلموا بالعربية وأصبر حتى أدس القرص الخشبي بكل متعة في يد أحد المتملقين. بعد فترة تشكلت عصابات سرية. أنا كنت في عصابة من خمسة تلاميذ وأقسمنا بالغالي والنفيس أن نتعاون في ما بيننا وألا ندسّ القرص في يد أحد أعضاء العصابة وبذلك يأمن الآخرون ـ متى وصل القرص لأحدنا ـ ويغتنمون الفرصة ليتكلموا العربية على راحتهم.

سمع أحد القساوسة بهذه الأساليب وألقى موعظة ضد (السينيال)، الذي يحرض التلاميذ على بعضهم البعض، لكن زملاءه المعلمين سخروا منه وبذلك استمرت حرب العصابات، بل وتألفت

فرق انتحارية سميناها تيمناً باليابانيين كاميكازه، كان أفرادها يأخذون (السينيال) على مسؤوليتهم الخاصة إذا وقعت في يد عضو خجول من عصابتهم وكانوا يبحثون بسرعة عن ضحية. كان العشاء في السادسة وكانت الجرأة على أخذ القرص الخشبي قبل ساعة واحدة من موعد العشاء يعتبر بطولة. ومرة من المرات دسّ أحد هؤلاء الانتحاريين القرص الخشبي في يد أحد المعلمين، عندما قال هذا في السادسة إلا ربع أنه «يكاد يموت من الجوع» بالعربية. نظر المعلمون إلى بعضهم البعض مندهشين، لكنهم قالوا بعد أن استردوا أنفاسهم إن تبادل القرص لا يشملهم. في هذا المساء كان على الشجاع المصري الصغير أن يتناول العشاء راكعاً. وللمرة الأولى قدم التلاميذ فروض الاحترام لراكع بدل الشماتة به كالعادة. كنا نربت على كتفه عندما نمر به.

٢/٢٦

لا يمل العم سليم من سرد حكايات الجنيات. يقول إنها تعيش في سوريا منذ زمن بعيد وإنه كثيراً ما كلمها، إنها تسكن تحت الأرض في الغدران وكهوف الجبال، ولا تصبح مرئية إلا إذا تكلمت.

«ولماذا لم أر حتى الآن جنية واحدة؟»، قاطعته جارتنا عفيفة، التي تعتبر نفسها أدرى الناس. كدت أقول لها لأنك لا تتركين مجال الكلام لأحد. لكن لم يظهر الاستياء على العم سليم. نظر إلى عفيفة متفكراً، ساهي النظرات، وقال: «معك حق. أنا أيضاً لم أر واحدة منهن منذ أربعين سنة. قالت لي آخر جنية رأيتها إنها لا تتحمل ضجيج السيارات، لأن الجنيات يتكلمن بصوت خافت جداً».

غريبة مزاعم العم سليم فعلاً. فهو يقول إن الجنيات لم تعمر فقط الأهرامات بل وحفرت الوديان وبنت الجبال بسحرها. كما ولا ينسى العم سليم ينابيع المياه الحارة في الجولان ويدعي أنها حمامات الجنيات تحت الأرض.

٣/١٠

اليوم عاقبنا سائق سيارة لم يرد أن يفهم أننا لا نحب أن تخترق سيارته حارتنا الضيقة بسرعة. نصب له جوزيف كميناً على سطح بيتهم وعندما لف السائق في نهاية الحارة وانطلق عائداً إلى الشارع المستقيم مسرعاً وهو يزمر، قذفه جوزيف بحجر وأصاب سطح السيارة. نزل السائق غاضباً من سيارته، لكن الشارع كان خالياً تماماً من البشر. لعن وشتم عندما رأى سطح سيارته المخدوش، ساقها ببطء حتى خرج من الحارة.

٣/٢٠

الأستاذ كاتب معلم رائع. لدى المعلم السابق تعلمنا الخوف من اللغة وتقديسها ولدى الأستاذ كاتب نتعلم حبها. قال لنا المعلم السابق إن الفانتازيا تكمن في المبالغة والأستاذ كاتب يعلمنا أن القصص العجائبية تجري في حياتنا اليومية. لم يسمح لنا المعلم السابق أبداً أن نصف رائحة الأزهار وأسراب السنونو. كان يريدنا أن نصف له أحداثاً خيالية واحتفالات وأعياد ميلاد. لكن أحداً منا لم يحتفل بعيد ميلاده أو حضر حفلاً كبيراً.

لن أنسى ذلك التلميذ الذي كتب أفضل المواضيع برأيي. كان علينا أن نكتب عن المآدب والحفلات. عندما يأتينا زوار، وهم غالباً ما يأتون من دون مقدمات ومواعيد، تقسم أمي الطعام الموجود على جميع الحضور بالتساوي. عندي إحساس غامض بأن أمي تطبخ دائماً كمية فائضة من الطعام وكأنها تنتظر ضيوفاً بشكل دائم. إذاً عندما يكون عندنا ضيوف، نأكل معهم وأبي من ناحيته يشرب كأس عرق ثانية معزة للضيف، حتى يشرب هذا أيضاً.

إذا كتبت هذا بصدق في موضوع الإنشاء، لحصلت على علامة صفر. ولهذا ركضت مسرعاً إلى العم سليم، فهو كان كعربجي قد نقل كثيراً من الضيوف الأكابر إلى الحفلات والأعياد. وكثيراً ما كان يتسلل إلى المطابخ ويأكل خفية مع الطباخين والخدم ويسترق أخبار الأغنياء منهم. سرد لي بكل دقة نوعية الطعام الذي يقدم في هذه المآدب وكيف يتم تقديمه، ما الذي يشربه الناس وعما يتحدثون. استعرض العم سليم وسمى كثيراً من الباشوات والأمراء، الذين لم يعد لهم وجود في سوريا. غير أني استبدلتهم برئيس قسم الشرطة وحتى بقاض (لم يحدث أن رأى قاض مسكننا) وادعيت أن أمي قدمت لهم غزالاً مشوياً، محشياً باللوز والرز والزبيب. كما أني لم أنس كلمات القاضي في مديح طبخ أمي وعرق أبي.

مسخرة. أن تكتب موضوعاً عن الغزال المشوي، بينما لا تحتوي حقيبتك المدرسية إلا على قطعة خبز حاف طعاماً للفرصة. لم يضحك التلاميذ في الصف، بل بالعكس حدقوا فيّ بأفواه فاغرة وكان بعضهم يمضغ الهواء بحسرة وشوق. حصلت على علامة ثمانٍ من عشرة.

وبنفس البلاهة استمعت إلى قصص ولائم الآخرين، حيث تصافح الأساقفة والجنرالات، الشعراء والتجار هكذا على حين غرة ومن دون وجل في أكواخنا الفقيرة.

خليل وحده لم يعزف على وترنا. عندما جاء دوره، روى لنا ما الذي جرى عندما سأل ذويه عن الولائم. للفور طارت أمه على جناح الأحلام وأتت على ذكر حظها التعيس في الزواج من رجل فقير، رغم أن الكثير من الرجال الأغنياء طلبوا يدها عندما كانت فتاة جميلة صغيرة. رد الأب مجروح الكرامة، غاضباً، وقال إنه كان سيصبح غنياً منذ زمن بعيد لو لم يضطر لإطعام عائلتها الشرهة (اثنا عشر أخ وأخت إضافة للأب والأم والجد). وتابع إن زميله تزوج بنت حلال، وبنى بيتين بعد الزواج مع أنه يحصل نفس المعاش. صرخت الأم في وجه الأب قائلة إن عائلتها تأتي محملة بكل ما لذ وطاب كلما جاؤوا في زيارة، والأصح أن يقول إنه يصرف كل نقوده على العرق، وإلا لوفر قروشه واشترى بيتاً. تابع خليل أنهما تشاجرا طويلاً وكادا يفترقان.

رأى كل منا في هذه الحكاية عائلته كما في مرآة.

أنهى خليل موضوعه بالجملة التالية: «أقسمت ألا أسأل أهلي بعد اليوم عن الولائم، كي لا يطلق بعضهم البعض».

أعطاه المعلم علامة اثنتين من عشرة وقال إنه «خرج عن الموضوع». في اليوم التالي لم يأت خليل إلى المدرسة ويعمل الآن صانعاً لدى ميكانيكي سيارات.

العم سليم يستمع كل يوم إلى نشرة الأخبار ويمنع ضيوفه أن ينبسوا بكلمة أو يتنحنحوا إذا جلس أمام جهازه القديم مشدود الأعصاب. إنه يعرف ما يجري في العالم أكثر من جميع مدرسينا.

عندما ذهبت إليه اليوم كان رائق المزاج. تمكن صحافي انكليزي من الكشف عن لغز جريمة قتل بعد سنوات طويلة من العمل والبحث. كان وزيران ومدير مصرف قد تورطوا في الجريمة، التي بدت في البداية وكأنها حالة انتحار. كان المغدور يعرف أكثر من اللازم. إنها قصة مرعبة، بل أقسى من فيلم أميركي.

قال العم سليم: «لو جرت الحادثة عندنا، لكان الصحافي في عداد الأموات منذ زمن بعيد».

«ما معنى صحافي؟»، سألته لأني لا أعرف أكثر من أن هؤلاء الناس يعملون جرائد. تنهد العم سليم: «ايه ايه، صحافي. الصحافي رجل شجاع وذكي. لا يملك أكثر من قطعة ورق وقلم رصاص وبهما يخيف الحكومات والجيوش والشرطة».

تساءلت مندهشاً: «بقلم رصاص وورق؟!». فكل تلميذ يملك قلم رصاص وورق، ورغم هذا لا يأبه بنا أحد، ولا حتى بواب المدرسة.

«نعم. إنه يخيف الحكومات لأنه يبحث دائماً عن الحقيقة وكل الحكومات تكافح لتخفيها عن العيون. إنه إنسان حر مثل الحوذي ويعيش حياته في خطر مثله».

آه، لو أني أصبح صحافياً.

الخميس بعد الظهر:

محمود له ابن عم يعرف الكثير من الصحافيين. إنه يعمل في مقهى قرب مبنى جريدة ويحمل القهوة إلى مكاتبهم العابقة بالدخان. الصحافيون مدمنون على القهوة. هذا ليس بشائن. كثيراً ما أشرب القهوة، غالباً في السر، لأن أمي لا تسمح لي بذلك.

٤/٥

غالباً ما يكون لأولاد الخبازين أرجل مقوسة وشعر أشعث. الأرجل المقوسة لأنهم يضطرون إلى رفع الأحمال في الطفولة والشعر المنفوش لأنه دائماً مملوء بالطحين. أولاد اللحامين ذوي سمنة، أولاد الحدادين لديهم أيد قوية، مليئة بالندوب، أولاد ميكانيكيي السيارات لديهم أظافر سود وهكذا دواليك. لا أحتاج بعد إلقاء نظرة على الأطفال إلى طول تفكير لأعرف مهن آبائهم. أحتار فقط مع أولاد الأغنياء. كلهم لديهم شعر حريري وأيد ناعمة. أرجلهم مستقيمة ومعظمهم أغبياء لا يفقهون شيئاً. عندما قال جوزيف لأحد هؤلاء المدللين أنه لم يأت إلى العالم محمولاً على يدي ملاك إنما من بطن أمه لأنها ضاجعت أباه، بدأ ابن الأكابر بالبكاء، وكان ينوح كمن أكل علقة أن من المستحيل أن تفعل أمه هذا الشيء الرذيل. لكن جوزيف لم يكف بلاءه عنه. تبعني في باحة المدرسة وسألني عن الحمل وكيفية حدوثه فشرحت له وللطفل الذي اضطر أن يسمع على رؤوس الأشهاد، الذين أحضرهم جوزيف، كيفية مجيئه إلى العالم.

في البيت امتنع الغبي عن تناول الطعام وفي المساء أراد أن ينام بين أبيه وأمه. يبدو أنهما كانا متلهفين إلى بعضهما البعض فأغضبهما تصرفه ولهذا أفلحا باستخراج أسرار ابنهما المدلل وأسباب تصرفاته الغريبة، فأخبرهما الغبي بحكايته مع جوزيف. اليوم جاء أبوه إلى المدرسة واشتكى على جوزيف فعوقب المسكين عقاباً شديداً بذريعة أنه أفسد أخلاق الطفل.

في رأيي إن تصرف الأب يبعث على الاشمئزاز. يضاجع الأم ويخجل من تصرفه ويضع الذنب على عاتق الملاك. أبي يفتخر بصوت عالٍ، وكثيراً ما يفعلها، إنه هو من أنجبني ويردد حتى يسمع آخر جار: «أنت أتيت من صلبي».

٤/٢٧

كبر الصوص الذي ربيناه أنا وأختي ليلى وصار ديكاً جميلاً. كان قوياً جداً وينقر سيقان الجارات عندما ينشرن الغسيل على الشرفة. وبعدها صار يتحرش بأبي وأمي. أنا وليلى فقط سلمنا من هجماته. قبل يومين نقر مؤخرة رأس أبي وجرحه. حمل أبي سكينه الكبيرة وهو يلعن أجداد الديك لسابع جيل وجز رقبته. شحب وجه ليلى وأنا أيضاً شعرت بالغثيان. تقول أمي إن لحمه أطيب لحم تذوقته طوال حياتها. لكننا، أنا وليلى، بقينا ليومين لا نأكل غير الجبن والزيتون والمربى والزبدة.

«كيف آكل لحم صديقي؟»، قالت ليلى، معها حق.

قضينا أسبوعاً عند خالي في بيروت. بيروت مدينة رائعة الجمال. أنا أحب البحر وأمي تخاف منه خوف الموت. منعتني أن أقترب من الماء، لكن بيت خالي يقع بمحاذاته، والبحر بحد ذاته غواية.

عندما عدت للمرة الأولى من الشاطئ صرخت بي أمي لأني خدعتها قائلاً إني كنت في الحديقة العامة. كشف وجهي المحروق في الشمس سرّي وبهذا حرمت من الحلويات بعد الطعام. في اليوم التالي أيضاً أغراني البحر، لكنني بقيت في الظل. عندما رجعت وحكيت بسرور عن الحديقة العامة، طلبت مني أمي أن أخلع حذائي ونفضت منه الرمل وبهذا ضاع الحلو مرة ثانية. في الليل قررت ألا أذهب للبحر مرة أخرى، لكني عندما استيقظت صباح اليوم التالي، سمعت هدير الأمواج وأسرعت بالذهاب. هذه المرة أردت أن أمرر حيلتي على أمي. كنت ألعب في الماء وأنتقل فوراً إلى الظل وقبل أن أدخل منزل خالي نفضت حذائي حتى لم تبق فيه ذرة رمل واحدة ودخلت البيت مبتسماً.

ناديت متحدياً أمي: «يا لها من حديقة جميلة». نظرت إليَّ متفحصة فأكثرت من التغني بالحديقة. ضحكت في عبي عندما نفضت الحذاء. فقالت: «تعال هنا»، أمسكت بذراعي ولعقته ثم هزت رأسها وقالت: «كنت على البحر، ملح البحر فقط له هذا الطعم». لكن الغريب أنها أعطتني في ذلك اليوم وجبة مضاعفة من بوظة بطعم الفانيليا.

٥/١٥

شاهدت هذا الرجل الطويل النحيف، الذي يتجول مع عصفوره منذ سنوات طويلة في شوارع دمشق. إنه مجنون عجيب غريب والطائر الصغير يلحق به كالكلب الوفي. أحياناً يرفرف حوله ثم يحط على كتفه وحالما يرتفع في السماء، يغريه الرجل فيعود الطائر من جديد. وأحياناً يمزح معه أيضاً. يدعه يجلس على العصا، التي يحملها معه أينما ذهب، ويوازنه على أنفه. لا يشحذ المجنون طعاماً من أحد، لكن حالما يقف على باب بيت، يعطيه الناس صحنا فيه خضار ورز. إنه عزيز النفس جداً ولا يأخذ معه شيئاً أبداً. قالت أمي ربما كان قديساً، فهي لم تسمع من قبل أن أحداً يستطيع التحدث مع الطيور غير سليمان الحكيم.

صدّق العم سليم على كلام أمي: «في يوم من الأيام نادى سليمان على الطيور، فجاءت كلها عدا العصفور الدوري. نادى سليمان عدة مرات، لكن الطائر الوقح لم يأت إلا بعد النداء الثالث. سأله الملك الحكيم لماذا لم يأت عند النداء الأول وجاوبه العصفور هازئاً، أنه لم يكن يريد المجيء أصلاً. فلعنه سليمان الحكيم: (بعد اليوم لن تمشي مثل بقية الطيور، بل ستتقافز في مشيتك). ومنذ ذلك الحين يتنطنط العصفور».

٥/١٨

العم سليم يكرر عليَّ حكايته عن صحافي كان صديقاً له لفترة طويلة. صار الرجل مشهوراً، لكنه كان في بداياته فقيراً معدماً، وكان

العم سليم يساعده حيث استطاع. واعترافاً منه بالجميل كتب الصحافي مقالاً مطولاً عنه. لكن ولأن العم سليم لا يستطيع القراءة، أعطى الجريدة لجار له كي يقرأ له المدائح عن حكمته وكرمه.

لا يستطيع أحد أن يفرق بين الخرافي والحقيقي لدى العم سليم. كل الأشياء عنده تتداخل، بحيث لا يعرف المستمع أين يبدأ الخرافي وأين تنتهي الحقيقة. لكني فوجئت اليوم عندما انهمك العم سليم بالبحث عن علبة على الرف، بينما يحكي لي إحدى حكاياته مع الصحافي. تناول العلبة وفتحها، وماذا كان فيها؟ المقال المكتوب عنه. كان اسم الصحافي كخالة. الورق مصفر لكن المقال رائع. بكل سرور لبيت رغبة صديقي العجوز وقرأت المكتوب بتأنٍ ومتعة. مقالة فخمة عن حوذي سابق لعصره. عندما انتهيت من القراءة، كانت عينا العم سليم مغرورقتين بالدموع.

السبت ٦/١

دخل مدير المدرسة صفنا نحو الساعة التاسعة. كل سنة يسلمنا الشهادة النهائية شخصياً. كنت أعرف سلفاً أن علاماتي جيدة، لكني لم أتصور قط أن أكون الأول في الصف. أطرى عليّ المدير بالثناء وركز على أني كنت في البداية تلميذاً متوسطاً نسبياً وصرت الآن قدوة لكل الصف. كالعادة استمع إليه تلاميذ الصف بنفاد صبر، فقد كانوا يريدون أن يفلتوا من الصف ليذهبوا إلى البيت، يلقوا الحقيبة المدرسية في إحدى الزوايا ويخرجوا للعب. بالنتيجة كنا على أبواب العطلة الدراسية. لكن أنا، أنا كنت مستمتعاً جداً بخطبته المملة عادة.

أنا، ابن الخباز، أنا الأول في الصف! كنت أود احتضان كل الدنيا. عندما دخلت باب البيت مقتحماً، كدت أتعثر بصديقة أمي الجالسة معها في ظل شجرة البرتقال ترتشفان القهوة. قبلتني أمي فخورة وتقبلت تهانئ جارتها بسرور.

كنت متلهفاً لأري شهادتي الرائعة لوالدي ظاناً أني سأتمكن بأن أبرهن له أني جدير بمتابعة الدراسة. فهو يشكك بذلك دوماً. احتشد الناس كالعادة أمام المخبز لكنني تسللت مثل ثعبان متمرس بين الناس ودخلت إلى البسطة حيث يقف والدي وأعلنت له بصوت عالٍ عن فرحي بتفوقي، لكنه لم يأبه بي وببشارتي، رغم كل محاولاتي. كان اهتمامه مصبوباً على زبائنه ونقوده. صرخ في وجهي فجأة: «ما لك واقف هنا؟ عاون مصطفى الأبله هذا، فالأرغفة تتكوم أمامه وهو يجرجر رجليه على الأرضية مثل سلحفاة مكرسحة، مع أن الرف فارغ».

أعرف تماماً، لم يكن يريد أن يسمعني. إنه لا يحب المدرسة. التقطت عدة أرغفة ورميتها بغضب على الرف. بعد عدة ساعات في الحرارة العالية التصقت ثيابي المغبرة بجسمي.

على طريق عودتنا إلى البيت أمسك والدي ذراعي قبل أن نصل الباب وقال: «أنت الأول؟! هذا جيد، لكن المخبز منجم ذهب». وأطال الثرثرة من جديد عن الزبائن الذي يتسولون منه الخبز رغم أنه لا يحمل شهادة كبيرة. لماذا لم أتجرأ أن أصرخ في وجهه أني أكره المخبز؟

طبعاً لاحظت أمي مزاجي المتعكر فوراً وتحدثت طوال تناول

العشاء عن الجيران الذين هنأوها بنجاحي. لكن أبي أراد أن تكون الكلمة الأخيرة له هو، كما هي العادة، وقال: «ما الذي يفهم هؤلاء الموظفون الأغبياء من الحياة؟ سيصير خبازاً وانتهى!».

لم أعد أطيق سماع صوته. تسلّلت إلى غرفتي من دون أن أقول لهم تصبحون على خير. لا أريد أن أصير خبازاً! لا أريد أن أدفن حياً في مخبز! أريد أن أسافر إلى الخارج وأكتب. أريد أن أصير صحافياً. نعم، الآن عرفتها، أريد أن أكون صحافياً، هذه هي مهنتي! أحلف بالله، الآن، الساعة التاسعة مساء، يوم السبت، الأول من حزيران، بأنني لن أصير خبازاً. أبداً!!!

الأحد ٢/ ٦

أيام الآحاد ملكي وحدي، أفعل فيها ما أشاء، من دون أن يزعجني أحد. لكن واجب الذهاب إلى الكنيسة قبل ذلك، واجب ثقيل. يعرف أبي أني لا أحب الذهاب إلى الكنيسة. أيام الدوام في المدرسة علينا أن نجتمع كل أحد في رتل وينادي الخوري، أستاذ الديانة، على كل التلاميذ فرداً فرداً ليتأكد من حضور الجميع. لكننا الآن في العطلة ورغم هذا يريد أبي أن أذهب إلى القداس وإلا لن يعطيني مصروف الجيب. أم جوزيف أيضاً مثل أبي تماماً. لكننا ابتدعنا خطة طريفة. خطتنا أن نتناوب أنا وهو، هو يذهب مرة إلى القداس وفي الأسبوع التالي أذهب أنا. يمكننا وقتها أن نحكي لبعضنا ما هو الجزء الذي قُرئَ من الانجيل وما الذي قاله الخوري في قداس الأحد كوعظ بعد الإنجيل، فهذا ما يريد أبي وأم جوزيف أن يعرفاه.

دوري هو الأول، حظي تعيس. المنحوس منحوس. اليوم ألقى القس موعظة مملة عن انهيار الأخلاق في سوريا. برأيي أن يسوع المسيح رجل شجاع جداً لأنه طرد الصيارفة والتجار من الهيكل، لكن هناك ما لا أفهمه. ما هو ذنب اليهود، إذا كان الرومان الذين حكموا آنذاك فلسطين حكموا عليه بالموت وقتلوه؟

٦/١٢

أتوجس أن أبي يضمر شيئاً ما ضدي، فقد قال لأمي: «الولد سيصبح عمره قريباً أربع عشرة سنة ولم يتعلم أي مهنة».

أشعل أثناء العشاء فتيل شجار لا أول له ولا آخر. كنت أريد أن أمزح قليلاً وسألت أمي إن كانت تعرف عدد مرادفات كلمة الأسد في العربية. لم تكن أمي تعرف ولا واحداً. شرحت لها أن للأسد ثلاثين مرادفاً وللكلب ثمانين. ضحكت أمي من القلب وقالت إنها كانت تعرف أن الكلب أكثر فائدة من كل الأسود. قطب أبي جبينه وسب الأسود والكلاب والمدرسة، التي لا تعلمنا نحن الأولاد التنابل الوقحين إلا الحماقات. يظن أبي أني أذهب إلى المدرسة لآخذها حجة للتهرب من العمل في المخبز، ويعتقد بأن المدرسة اخترعت أصلاً لأولاد الأكابر، وليس للفقراء أمثالنا ما يفعلونه هناك. عندما عارضته قائلاً إننا نتعلم فيها كثيراً وإنه لا يستطيع أن يحل مسألة جبر واحدة، ضحك هازئاً وصاح كعادته: «الجبر! ماذا ينفعني الجبر؟ كل ما أحتاجه أحسبه في رأسي». وقال إن علي أن أتخلى نهائياً عن فكرة المدرسة.

٦/١٣

اليوم أردت أن أروي لأختي قصة رعب. لكنها لم تخف. وبينما أنا في ذروة الصراع بين البطل والتنين، نامت وعندما بدأت تشخر شعرت بسخفي.

ملاحظة:

لاحظت اليوم أثناء مراجعة أوراقي أني لم أكتب حتى الآن كلمة واحدة عن نادية. أنا أعشقها. عمرها ثلاث عشرة سنة وتسكن على مسافة بيتين من بيتنا. غريب أني استطعت إخفاء قصة حبي عن دفتر يومياتي حتى الآن.

٦/١٥

سألني أبي: «ما الداعي للمدرسة؟ يوجد أكداس من المعلمين والمحامين». فقلت له إني أريد أن أصبح صحافياً، غير أنه سخر مني قائلاً إن هذه مهنة الفاشلين، الذين يقضون معظم النهار في المقهى وينشرون الأكاذيب، إنه لا يريد ابناً متسكعاً مثل الصعاليك، يحرّف كلام الناس ويشيع عنهم الأكاذيب.

قال إننا مسيحيون وعلي أن أضع هذا في أذني كالحلق وإن فرصتي للعمل كصحافي ستكون أكبر لو كان اسمي محمد أو محمود. وعندما سألته لماذا، قال بصوت حزين إني سأفهم هذا الموضوع أيضاً عندما أكبر.

تقول نادية إنها تفضل الزواج بصحافي على الزواج بخباز، لكنها لن تحب أبداً شاباً يعمل في المخابرات.

٦/١٧

يا الله، كم كان هذا المساء جميلاً برفقة العم سليم. كم عايش هذا الختيار وجرب في حياته الطويلة. ذات يوم سأكتب عنه قصيدة أو قصة طويلة بكاملها.

قررت أن أنقل قصائدي التي كتبتها حتى الآن على قصاصات ورق إلى دفتر جميل، فأنا كثيراً ما أضيع الأوراق.

٦/١٩

تقول أمي إن العم سليم من ألطف خلق الله لكنه من أكذبهم.

لكن يا ليت المدرسين أيضاً يكذبون ويشرحون لنا الدروس بطريقة مشوقة مثل العم سليم.

٦/٢١

عاد جوزيف لمغازلة نادية من جديد، رغم أنه يعرف تماماً أنها حبيبتي أنا. ولد وقح. أعرف ما الذي سأفعله به. سأدعه اليوم يحكي لي ما الذي جرى في الكنيسة، لكن في الأحد المقبل، عندما يكون دوري أنا، سأريه العجائب. سأذكر له إنجيلاً غير الذي قرأه الخوري.

٦/٢٧

اللعنة، هرب الأجير مصطفى من المخبز. كنت أحدس بهذا،

ففي الصيف لا يتحمل الحمار العمل في المخبز. لم أجد مفراً من العمل في المخبز اليوم، كنت أحمل الأرغفة عن بسطة الفرن وأرتبها على الرف. كان أبي لطيفاً جداً معي اليوم، هكذا طبعه عندما أساعده في الفرن. لكنني لا أطيق هذا العمل. يحرق بخار الأرغفة الحارة اليدين بحيث لا يشعر العامل بهما بعد فترة. كفاي محمرتان إلى الآن ومتورمتان. وكان الضجر قاتلاً.

لكن فجأة جرى موقف فكاهي وكدت أبلل ثيابي من كثرة الضحك. كان واجبي أن أساعد صانعنا الذي يحضر العجين منذ ظهر اليوم لصباح الغد. زبون عجوز في بدلة قاتمة كان يتذمر ويلعن الخبز الذي اشتراه أمس من عندنا، قائلاً إنه كان قاسياً كالعظم. وطبعاً لا يسمح والدي لأحد أن يقول عن خبزه إنه سيئ، ولهذا تشاجر مع الزبون فترة قصيرة ثم عاد واعتذر بعدها بأدب ووعد بأن يهتم شخصياً بخبز الزبون. قالها ليتخلص من ثقيل الظلّ هذا. لكن الزبون ثار أكثر ولم يدع لأبي المجال ليعدّ غلته بهدوء. وفي هذه الأثناء كنت قد صعدت فوق أكياس الطحين المتراكمة وأردت أن أدفع بتمهل أعلى كيس حتى يتلقفه الصانع. ومع أني كنت ممسكاً بالكيس الملعون من أطرافه، لكن هكذا كيس يزن حوالى خمسين كيلوغراماً، وهذا الملعون تحديداً كان مملوءًا على آخره فانزلق من يديَّ. غرزت أصابعي في درزته وحاولت الإمساك به دون جدوى. قفز الصانع إلى الوراء، وفي هذه اللحظة انفتق الكيس وتدفق الطحين كشلال على الزبون. كما صعدت غيمة الطحين إلى أنفي وملأ غباره أنفي وعيني. سعل أبي وصب على رؤوسنا كل ما يعرفه من سباب. الزبون كان

واقفاً في مكانه مثل تمثال من الجص لا حراك فيه. عندما انقشعت غيمة الطحين شاهده أبي وانفجر بالضحك.

جاء الصانع ليكحلها فعماها. ركض إلى الزبون، الذي كان واقفاً عاجزاً عن النطق، ونفض بدلته بأصابعه التي يلتصق بها العجين. «فوراً سننظفك، سيدنا، فوراً». قال ليهدئه.

كلما تصورت المنظر: البدلة المحترمة يغطيها الطحين وآثار الأيدي الرطبة، أضحك. لكن الزبون شعر بالإهانة وخرج من المخبز غاضباً. وأظن أنه لن يعود مرة أخرى.

أرجو أن يجد أبي أجيراً بسرعة. أنا لا أطيق العمل في المخبز.

منظر قصائدي في الدفتر أجمل من كل مخابز العالم.

٦/٢٩

اليوم قال الصانع الذي يعمل على التنور إن جميع الخبازين سيدخلون الجنة. وعندما سألته لماذا، قال ضاحكا: «لأننا رأينا جهنم على الأرض». هل يكره العمل مثلي؟

٦/٣٠

الحمد لله. لست مضطراً بعد للذهاب إلى المخبز. أخيراً وجد أبي أجيراً.

اليوم تشاجر الجيران. كسر جوزيف زجاج نافذة إحدى الجارات

أثناء لعب كرة القدم. سبت زوجة بائع الورود، نوري، جوزيف وعائلته. وبعد دقائق قليلة كانت جميع الجارات يتشاجرن على كل ما هب ودب ونسين زجاج النافذة. بعد ساعة كن جالسات عند أمي يرشفن القهوة صافيات النفوس.

٧/٣

لم نعد نستطيع الضحك على ليلى. قبلاً كنا نرسلها إلى العم سليم لنوصيه بضرورة الانتباه إلى غزالته. العم سليم كان يتظاهر دائماً بالمفاجأة ويقول لليلى: «لماذا؟ هل هربت من جديد؟ تعالي وسنبحث عنها معاً، لكن قبل أن نبحث عنها سأحكي لك حكاية. تمام؟» وليلى كانت تصغي إلى الحكاية متشوقة وتنسانا وتنسى الغزالة، وكنا نرتاح منها حتى ننتهي من اللعب.

اليوم، عندما أردت أن أبعثها، قالت: «عمو سليم ما كان عنده غزالة في حياته». جلست معاندة بجانب جوزيف، الذي لا يتحمل البنات الصغيرات، ونظرت إلى أوراقه. فجأة صاحت: «عندك ثلاثة شيوخ، ولماذا عندك شابان فقط؟ ها؟».

رمى جوزيف أوراقه على الطاولة وصرخ في ليلى، فلم تكف عن البكاء حتى أعطاها فرنكاً. فبدلت مكانها وجلست بجانب محمود. لكن محمود يعرف كيف يتخلص مع ليلى. قبّلها وهي لا تتحمل القُبل. تقززت ومسحت خدها وهربت.

٧/٥

تستمتع جاراتنا بقضاء العصرية في قراءة الفنجان. هذا أمر ممتع. يعتقد بعض الناس أنه يمكن التنبؤ بالمستقبل من كعب الفنجان. برأيي إنها مجرد تسلية. لكن أحسن من يقرأ الفنجان هو خالتي وردة. فهي تندمج وتكون جدية جداً عند قراءة الفنجان، بحيث نضطر إلى الضحك، أما هي فلا تتحرك عضلة واحدة في وجهها وتتابع بجدية مطلقة وتمزج في كلامها الخيال بالواقع بأسلوب مشوّق وبعد فترة نسبح كلنا على جناح الخيال، نستمع إليها مشدوهين ونكف عن مقاطعتها بتعليقاتنا السخيفة. الخالة وردة تحكي عن الحظ والنحس اللذين سنراهما في مستقبلنا وتتغير نبرة صوتها بين الحزن والقلق والفرح. لكن الأجمل أنك لا تعرف أبداً ما ستقوله الخالة وردة في الخطوة التالية وكيف ستنتهي تكهناتها، فهي بخلاف النسوان الأخريات لا تلزم نفسها بالنهاية السعيدة.

٧/٧

اليوم كتبت قصيدة عن شجرة لا تعرف ماذا تريد أن تصير في المستقبل. فهي تنبت على أغصانها في البدء أوراق مشمش لأن جارتها شجرة مشمش جميلة ثم تعجبها بعد فترة أوراق شجرة التفاح المجاورة وبعدها تعجبها الشمس وبعد ليلة بدر تعشق القمر فتنبت لها أوراق كالقمر وبعد فترة صغيرة تدهش لروعة طيران السنونو، وتستمر بإنتاج أوراق بكل الأشكال لأنها تجد كل الأشياء من حولها مثيرة. جاراتها تسخر منها.

٧/١٠

ما هو السجن مقارنة بمخبز؟ أبي يعمل في المخبز منذ ٣٠ سنة دون انقطاع. لم يعطل إلا يوم زفافه ويوم عمادتي. حتى يوم تعميد أختي ليلى ظل يعمل في المخبز. يستيقظ كل يوم في الساعة الرابعة فجراً ويعمل حتى الخامسة مساء وعندما يأتي إلى البيت يغتسل ويأكل وينام. وبعد عدة ساعات يستيقظ من النوم، يتحدث معنا قليلاً، ثم يذهب إلى صالون الحلاق أو المقهى، حيث يلتقي الرجال ويعود بعد ساعتين على وجه السرعة إلى البيت. يأكل ويضطجع في سريره لينام. جل الأمر وقمة السعادة عنده أن يستمتع بقصة أو إشاعة أو أن يسعفه الحظ في لعبة طاولة. لم أره صاحياً بعد العاشرة قط.

يومياً، سيان صيفاً أم شتاء، يستيقظ أبي في الرابعة صباحاً، دون منبه. أتمنى لو أعرف كيف يفعل هذا، فأنا لا أنهض من السرير قبل أن توقظني أمي ثلاث مرات. ومرة سألته، فقال لي: «إذا استيقظت طوال ثلاثين سنة في الساعة الرابعة، فإن هذا العادة تتغلغل حتى عظامك، تستيقظ على صوت جرس داخلي أدق من أحسن الساعات السويسرية». ربما كان راضياً بحياته هذه، لكنها بالنسبة لي ليست حياة.

٧/١١

اليوم رأيت نادية الساعة الثانية ظهراً. ابتسمت لي كما تفعل كلما رأتني، لكني كالعادة لم أجرؤ أن أرد لها الابتسامة لأن والدها كان بجوارها.

لست الوحيد الذي يخاف من والدها. شاع الخوف في الحارة كلها منذ أن انتقل إليها مع عائلته. فهو مخبر. الكل يعرف هذا، ومع أنه يرتدي ثياباً مدنية لكن الجميع يرون مسدسه تحت القميص الصيفي الرقيق. لماذا لا يحمله علناً؟ فهو لا يستطيع أن يضحك على ذقوننا.

ملاحظة:

ماذا أشتغل هذا الصيف؟ في العام الماضي اشتغلت لدى صائغ ذهب بخيل وفي الصيف قبله عملت بائعاً متجولاً. كنت أبيع الحلويات. أبي لا يحتاجني أثناء عطلة المدرسة في المخبز والحمد لله، لكن علي أن أكسب مصروفي الآن في الصيف، وإلا لكان الشتاء قاسياً علي، لا أريد أن أكون خالي الوفاض. كنت سأعمل بكل سرور لدى خراط في حيّنا، لكن لا أحد يحتاج في هذا الوقت إلى صانع أو أجير.

٧/١٢

أخذتني أمي إلى الطبيب بعد أن فقدت الوعي عدة مرات. كنت أدوخ وأشعر بالغثيان. سحب مني الطبيب دماً وقال علينا المراجعة يوم الأربعاء التالي.

٧/١٥

كان الخوري ميخائيل رجلاً طيباً. اليوم نُفي من البلد لأنه تورط مع الشرطة في عراك. القصة أن الشرطة جاءت في الفجر لتهدم بيتين

من بيوت الفقراء. كانت المعلومات قد وصلت إلى أذني الخوري ولذلك بات ليلته عند إحدى العائلتين. عندما استخدم العسكر هراواتهم وقف الخوري أمام الناس وحماهم. كنت قد رأيته عدة مرات راكباً على دراجته العتيقة. غالباً ما كان مستعجلاً ويرتدي ملابس قديمة ومهترئة. دائما كان يحيينا مبتسماً. كان أبي يعرفه أكثر مني وحزن اليوم حزناً شديداً لأن هذا الإنسان الشجاع اضطر لمغادرة حينا.

الأربعاء:

عندي مرض يسمى أنيميا البحر المتوسط الوراثي. لم أفهم الكلمة وسألت الطبيب ما هو هذا المرض الغريب. هدأني وقال لي إنه فقر دم عادي. شحب وجه أمي وحلفت للطبيب أننا نأكل اللحم مرتين في الشهر على الأقل وشرح لها الطبيب أن المرض وراثي واسمه فقر دم البحر المتوسط لأنه منتشر بكثرة بين العرب واليهود والأتراك ونصح بأن آكل المزيد من اللحم.

وعليه جمعت أمي مدخراتها واشترت مائتي غرام لحم مفروم لأجلي. خلطته بالتوابل وصنعت منه عدة أسياخ كباب. اشتكت ليلى أثناء الشيّ أنها أيضاً تعاني من فقر الدم، فهي بالتأكيد أختي. عندما جلبت أمي الأسياخ أمعنت فيها ليلى بشراهة وجوع. لم أستطع ابتلاع لقمة واحدة وبهذا وزعت الأسياخ علينا نحن الثلاثة، سيخان لكلٍّ منّا، وأقسمت أني لن آكل حتى تأكل أمي حصتها.

حكى لي العم سليم من أين يأتي هذا المرض: «إذا جاع الناس

عشرات السنين، ينخر الفقر في عظامهم والدم يجيء من العظام. لن ينفع أكل أسياخ الكباب يوماً واحداً. يجب أن يشبع الناس مئات السنين حتى يشفوا». وهذا مذكور في التوراة، كما قال.

٧/١٨

يكسب علي نقوده منذ سنوات من السياح. هو ضعيف جداً في المدرسة، إلا في الانكليزي، فهو الأول. في الصيف الفائت وحده كسب ثلاثمائة ليرة، وهذا ما لا أكسبه في عشر سنين. إنه يستخدم طرائق شيطانية. تقول أمي إنها تفضل أن أشحذ أمام الكنائس والمساجد على أن أتملق السياح، لأن هذا لن يؤدي إلا إلى فساد الأخلاق. مع أني لا أصدق هذا، لكني أخجل من مخاطبة الغرباء. علي يسخر مني ويقول إنهم يشكروه دوماً لأنه يدلهم على بعض الأماكن السياحية ويؤمن لهم بضاعة وفنادق رخيصة. ويقول إن عنده كثيراً من العناوين، كما أنه يحصل بين الحين والآخر على صور تذكارية من السياح وأنه يكسب من كل ما يشترونه عشرة في المائة، لكن عليه أن يهرب أحياناً بسرعة فائقة إذا ظهرت الشرطة، فهي لا تحب رؤيته برفقتهم.

٧/٢٠

قبل خمسة أيام ساعدني العم سليم في الحصول على عمل لدى النجار عصمت. أنا أحب الخشب. عصمت شخصية عجيبة فعلاً. ورشته كانت تشبه مزبلة. عندما بدأت العمل لديه احتجت يومين حتى

تمكنت من ترتيبها. والآن صار العمل أسهل، لكنه لا يكف عن التذمر قائلاً إنه لم يعد يجد شيئاً في الورشة لأني أعدت إليها النظام والترتيب. لكنه لا يتبرم إذا جلست ساعات دون عمل. يعمل عصمت ببطء شديد ويغني أثناء ذلك وهذا أيضاً غريب. حالماً يدخل الورشة صباحاً يبدأ بأغنية يكررها طوال اليوم. يدندن ويغني اللحن ذاته والكلمات ذاتها عشر ساعات متواصلة. وإذا لم تسعفه ذاكرته بأي أغنية فإنه يردد بصوته الحزين وكأنه يحذر نفسه من الفرح: «لا تفرح كتير بالنزلة / بتيجي الطلعة قدامك». ثم لا يلبث أن يشجع نفسه بمقطع آخر من هذا الشعر الرديء: «ولا تخاف من الطلعة/ بتيجي النزلة قدامك».

عمل أياماً طويلة لينجّر طاولة صغيرة لأحد الفلاحين وفي النهاية كان راضياً عن نفسه وعمله أشد الرضا. إنه يحب الشاي الذي أغليه له ويسمح لي أيضاً بأن أشرب منه، لكنه يغضب جداً إذا دققت مسماراً زائداً.

فقط زبونة واحدة تثير أعصابي. تأتي كل يوم وتسأل عن غرفة نوم ابنتها المخطوبة. يخرج عصمت كل يوم بعذر جديد ويحكي لها كل مرة حكاية لا أول لها ولا آخر ليستمهلها من جديد ويعطيها موعداً جديداً. حتى اليوم لم أر شيئاً من غرفة النوم. لكن عصمت وعدها اليوم أنها ستحصل على الغرفة الرائعة في الأسبوع القادم.

٧/٢١

سئم جوزيف من العمل في ورش البناء كل صيف ويريد أن يقلد

علي ويتصيد السياح. علمه علي أهم أسرار المهنة واصطحبه معه يومين. والآن لا يتحدث جوزيف إلا عن سهولة كسب المال، لكنه وبخلاف علي لا يحترم السياح، بل يصفهم بالأغبياء. اليوم لقنّاه أنا ومحمود درساً لن ينساه. تحدثنا إليه بالانكليزية بينما كان برفقة عجوز أميركية متبخترة. احمر وجهه واخضر.

الله يلعن جوزيف وانكليزيته. كنت قد سألته مرة كيف يستطيع القيام بهذا العمل، فقال لي: «ماذا تظن؟ هل تعتقد بأن السياح يريدون معرفة شيء جدي؟ كل ما يريدون معرفته هو أين الأماكن السياحية وكم هي الأسعار. وكل هذا يتعلمه الشاطر في يومين».

٧/٢٥

انتهيت اليوم من نجارة صندوق صغير يتألف من ثلاث علب متداخلة، لأختي. عملت عليه منذ أيام سراً، من دون أن يلاحظ عصمت شيئاً. أخذته إلى البيت في استراحة الظهر وفرحت به أختي أيما فرح وبدأت بترتيب تحفها وحليها الرخيصة فيه.

جاءت المرأة، صاحبة غرفة النوم، من جديد وصرخت بوجه عصمت. أما هو فلم يأبه بها وواصل الغناء. كأنه يريد تشجيع نفسه أمام هذه المرأة: «لا تخافي من الطلعة / بتيجي النزلة قدامك».

أسرت له المرأة أنه إذا لم يجهز الغرفة حتى الأسبوع القادم، فإنها ستريه العجائب.

٧/٣٠

الحمد لله لأننا لم نر المرأة منذ خمسة أيام. أنا أخجل من كذب عصمت عليها.

نعمل منذ خمسة أيام خارج المنجرة. فقد كلف تاجر غني عصمت بأن يرمم له باباً نفيساً في بيته الجميل. واليوم انتهينا من العمل به. عمل عظيم، فعلاً أنتج عصمت بمهارته وصبره تحفة فنية. لن يلاحظ أحد أن الباب كاد يتفكك من قبل. بل ونجّر بعض القطع الفريدة والمعقدة يدوياً. كانت زوجة التاجر وابنها الوحيد يستفزان عصمت يومياً، يسخران منه علناً بأنه يعمل ويخطط وكأنه يبني هرماً ولا يصلح باباً بسيطاً، لكن عصمت عمل بتؤدة ولم يأبه للتلميحات المسمومة واكتفى بطلب المزيد من الشاي. أما التاجر نفسه فقد كان راضياً جداً عن شغل عصمت، بحيث إنه منحه نقوداً أكثر من المتفق عليه، كما أنه دس خمس ليرات في جيبي. لدى عصمت أكسب أربع ليرات في أسبوع كامل.

٨/١

اليوم حدثت الكارثة. كنت أعرف سلفاً أن الأمور لن تنتهي على خير. القصة غير معقولة. جاءت المرأة حوالي الساعة العاشرة صباحاً وطلبت من عصمت أن يسلمها غرفة النوم الجاهزة أو يعيد لها مبلغ الثلاثمائة ليرة التي دفعتها عربوناً. استهزأ بها عصمت وغنى أغنية صعود الجبل والنزول منه. هددته فأعاد لها وصلة الغناء. هنا ثارت

ثائرة المرأة. أخذت وعاء الغراء المسخن وصبته على رأس عصمت وتوعدته أن تصب كل يوم علبة غراء على رأسه حتى يجهز غرفة النوم وخرجت غاضبة. جلس عصمت بكل هدوء على كرسي وأمرني بإحضار الشرطة، كأنه لا يلاحظ الغراء الذي يسيل من رأسه ويتقطر على الأرض ماراً بكتفيه. لم أفهم أي معنى لتصرفه وجريت بأقصى سرعة إلى مخفر الشرطة القريب. لكن الضابط المناوب كان مشغولاً جداً وتركني أنتظر أكثر من ثلاث ساعات. عندما سمع القصة، كاد أن يطردني من المخفر، لكني حلفت له أني لا أبالغ. أرسل شرطياً معي وعندما وصلنا أخيراً إلى الورشة كان الغراء قد جف وعصمت لا يزال جالساً على الكرسي. نظر إليه الشرطي عاجزاً عن الكلام وكأن يرى كائنا من المريخ، ثم دق بأصابعه على المادة التي تغطي رأس عصمت كالخوذة الواقية ودمدم: «يابسة، يابسة».

لكنه لم يعمل سوى أن أشعل لفافته وكان يدخن ويضحك حتى وصل الضابط فأجبر نفسه على التجهم. وما أن دخل الضابط حتى بدأ عصمت بالندب والعويل: «سيدي الضابط، هجمت علي المرأة في ورشتي كالغولة وكادت تقتلني».

صرخ فيه الضابط: «ولماذا فعلت المرأة هذا؟ إذا سمحت لي بالسؤال، ها، لماذا؟».

«لأن خشب غرفة النوم لم يصل بعد من اللاذقية».

«أحسن شيء في هذا البلد أن يكون الواحد مجنوناً، المجانين وحدهم مبسوطين» تنهد الضابط وخبط الطاولة بقبضته: «الحكومة تترك الخشب ليتعفن في ميناء اللاذقية. البنت، المقصوف عمرها، لا

تتزوج من دون غرفة نوم مميزة ومن خشب مستورد. وأنا أقضي نصف يومي مع سائح سكران تقيأ في وسط الجامع. لا يسمح لي أن أطرقه صفعة لأنه من دولة صديقة. المرأة تصب الغراء على رأسه والأهبل هذا يتركه يجف. هل عندك شهود؟».

أنا كنت مندهشاً من المشهد وظننت أني فعلاً في مستشفى المجانين. رد عصمت على سؤال الضابط بمنتهى الهدوء: «نعم، سيدي. الصبي يشهد على كل شيء».

ألقى الضابط نظرة غاضبة يائسة علي وقال معترضاً بيأس: «لكن عمره أقل من ثماني عشرة سنة وشهادته غير مقبولة»، أزاح الشرطي الوسخ عن الطاولة وبدأ بكتابة المحضر الذي أملاه الضابط. نهض عصمت وحاول أن يزيل الغراء بالماء، لكنه فشل في المحاولة.

«عليك أن تحاول ذلك بإزميل» سخر منه الضابط، سأل عن عنوان المرأة وانصرف.

٨/٢

اليوم جاء عصمت إلى الورشة واضعاً على رأسه حطة. لم ينبس ببنت شفة. عندما انزلقت حطته قليلاً، لاحظت أن شعره محلوق على الصفر.

٨/٣

الآن أعطيت أمي خمس ليرات وأختي ليرة واحدة، لكنهما لم يكشفا لي سبب حاجتهما إلى المال.

٨/٤

أملك الآن أكثر من خمس عشرة ليرة. أمي فرحانة جداً، فقد اشتريت لها أمس زوج جوارب. اغرورقت عيناها بدموع الفرح، فهي لم تتمكن من شراء جوارب بهذه الجودة من قبل. اليوم جلبت لها معي أوقية قهوة. شرب منها أبي فنجاناً بعد العشاء وروت له أمي فخورة أني أنا أهديت لها القهوة. نظر إليَّ مستغرباً وقال لي قبل أن يذهب إلى النوم: «تصبح على خير يا نجاري الصغير الشاطر».

٥ آب

كدت أحترق بنار الفضولية. آه لو أعرف ما الذي تدبره أمي من وراء ظهري. يبدو أنها تحضر لي مفاجأة، فكلما دخلت، هربت من الغرفة وكأنها تريد أن تخفي عني شيئاً.

٨/٩

اليوم لم أر نادية. لم أرها منذ يومين. عندما وصلت إلى البيت هرعت أمي مسرعة من الغرفة، لكنني رأيت خرق قماش أزرق. يا إلهي، أظن أني بدأت أحدس بالمفاجأة.

٨/١١

كان ظني في محله. قد تكون أمي أفضل الأمهات في الدنيا،

لكنها للأسف ليست أفضل الخياطات. هل تسمى هذه بيجاما؟ أكمام الجاكيت قصيرة جداً ويضغط على عظامي بحيث أبدو فيه مثل فزاعة. والبنطال عريض جداً، بحيث قلت لأمي، أكيد أنت عطوفة جداً على الحيوانات، فالبنطال يسعني أنا وفيل صغير. ضحكنا حتى سالت الدموع من أعيننا.

٨/١٥

لم تعد المرأة من جديد. أعلمت الشرطة أنها تتنازل عن العربون، إذا تنازل عصمت عن دعواه. اليوم دعي عصمت إلى المخفر. عندما عاد، كان يضحك ويغني كأنه انتصر في حرب. نما شعر رأسه من جديد.

٨/١٦

حرارة دمشق في شهر آب لا تطاق. تصل درجة الحرارة في النهار إلى ٤٢ درجة في الظل وفي الليل تبلغ حداً لا نستطيع النوم فيه. غالباً ما أستيقظ من النوم لأن السرير يلسع ظهري كأنه مزروع بالإبر. أجلس مثل الكثيرين غيري على الشرفة لاستنشاق أصغر نسمة هواء. دمشق هادئة جداً في الليل ومع الفجر كانت أصوات المؤذنين تأتي من مئات المنارات داعية إلى الصلاة: «الله أكبر...»، أما اليوم فإنهم يضعون المسجلات أمام مكبرات الصوت واختلاف توقيت تشغيلها يجعل الآذان يتكرر مئات المرات كالصدى. أحياناً أنام على الشرفة فتتشنج رقبتي.

٨/١٧

لا يسمح العم سليم للسياح بتصويره. لكن لسبب ما يحبه هؤلاء السذج في قفطانه العربي. منظر شاربه الضخم يثير الخوف. سألته اليوم، لماذا يخفي وجهه بيديه عندما يُخرج السياح كاميراتهم. قال إنه جرب التصوير مرة فمرض بعدها مرضاً طويلاً، مدعياً أن الكاميرا سرقت شيئاً من روحه.

أظن أن العم يبالغ أحياناً.

٨/١٨

اليوم جاءت الشرطة إلى بيت أهل علي. فتشوا البيت وقلبوه رأساً على عقب وانتظر شرطي حتى جاء علي وأخذه معه إلى المخفر. ادعى سائح أن علي سرق منه كاميراه الغالية. أكل علي فلقة محترمة. ثم وجد السائح كاميراه الحقيرة في بار. ولهذا أُطلِق سراح علي. وبدل أن تعتذر الشرطة منه أجبروه على توقيع على ورقة يتعهد فيها بعدم مخاطبة السياح، لكن ما إن حل الظهر، حتى بدأ بالبحث عنهم.

٨/٢٠

يدهشني في جوزيف قدرته الفائقة على صنع أجمل الألعاب من كومة أسلاك. فهو يصنع من بقايا الأسلاك عربات يمكن تسييرها وتوجيهها بكل مرونة كما صنع طائرات وبيوتاً يمكن فتح أبوابها وإغلاقها، إنها أعمال فنية حقيقية. عندما تمكنت من الحصول على

عجلتين صغيرتين من الفولاذ من ميكانيكي السيارات كأجر زهيد لعملي، ساعدني جوزيف على صنع عجالة (كراجة) من لوحي خشب أحدهما أفقي بالعجلتين والآخر عمودي بمقود يساعدني في توجيه العجالة كيفما شئت. لكن النحس لازمني اليوم. انطلقت على العجالة ورغم أنها تصدر بعجلاتها ضجيجاً يزعج ملائكة السماء، إلا أني كنت سعيداً وغنيت ملء شدقي، إلى أن لسع دبور رأس لساني. تورم لساني بحيث لم أعد قادراً على الكلام. ضحكت علي أمي وقالت إنها ستشعل شمعتين لملاك الدبابير، الذي أراح أذنيها من لساني الطويل.

الآن لا يؤلمني لساني كثيراً، لكنه ما زال مخدراً، ويا له من إحساس بارد ومزعج.

٨/٢٢

اليوم التقينا عند محمود، فقد ذهب أهله إلى عرس. وهو من طرح علينا فكرة تثبيت عرى صداقتنا بناء على ما شاهده في فيلم، وهي أن نشكل، نحن الثلاثة الذين لا يفترقون أبداً، عصابة تكافح لأجل العدالة. أعجبتنا الفكرة أيما إعجاب. وجدنا اسماً نطلقه على عصابتنا وهو اسم «عصابة اليد السوداء»، بناء على اقتراح جوزيف. أقسمنا على أن نخلص لبعضنا البعض وأن نحتقر الخيانة بكل أشكالها. نطق جوزيف بالقسم وكان علينا أن نردده أنا ومحمود في غرفة شبه مظلمة. سأل جوزيف: «وضد من نقاتل؟» واستل قلمه، الذي يحمله حتى وهو في البيجاما. أنا لم أكن راغباً في معاداة أحد

لمجرد العداء، لكن جوزيف قال: يجب أن تقاتل العصابة ضد أحد وإلا فلا معنى لها. فاتفقنا على أن يكون أعداؤنا المخبر والبقال الذي لا يكف عن غش أمهاتنا.

٨/٢٤

البارحة اجتمعنا عند جوزيف وكتبنا منشورنا الأول، «إنذار من عصابة اليد السوداء! إذا قدمت إخبارية على أحد سكان هذه الحارة مرة ثانية، فسيكون حسابك عسيراً أيها الجاسوس»، متوقعين أن يثير هذا المنشور الهلع في قلبه، ليتركنا وأهلنا أخيراً بسلام. اختاروني أنا تحديداً لإلصاق الورقة على باب المخبر. اعترضت على الاقتراح، فهو بالنتيجة والد نادية وأنا أحبها. لكن الأخرين قالوا: «العدالة قبل الحب». بعد نقاش أظهر محمود شيئاً من اللين والتفهم لأنه يعرف مدى محبتي لنادية وكرامتها عندي، لكن جوزيف أصر على تنفيذ المهمة عندما لاحظ ميل محمود هذا وقال: على كل واحد منا أن يبرهن على شجاعته.

رفعت صوتي: «أنا لست جباناً وسأفعلها» ثم ركضت إلى البيت. لم تعرف عيناي النوم طوال الليل، كما أني لم أذهب اليوم إلى المنجرة. كنت طوال اليوم معتكر المزاج. كيف أفسر الأمر لنادية إذا عرفت به؟ لكن وإذا لم أنفذ المهمة الليلة، فسأطرد من عصابة اليد السوداء بسبب الجبن. ما زلت أحتفظ بالورقة المطوية في جيب بنطالي وأشعر بحرارة عالية تنبعث منها وكأنها نار. ربما غفرت لي نادية.

٨/٢٦

في الليلة الماضية ألصقت الورقة على باب المخبر. بعدها ذهب جوزيف ليتأكد من تنفيذ المهمة، لكنه حام طويلاً حول بيت نادية، أتمنى لو أعرف لماذا أطال المكوث هناك.

صباح اليوم التالي أزيلت الملصقة عن الباب. هل قرأها المخبر يا ترى؟ حاولت ألا أقترب من نادية، لكني كنت أتمنى لو تنخسف بي الأرض.

هنأني جوزيف ومحمود على شجاعتي.

٨/٢٧

قالت نادية إن أباها قرأ الورقة وأرغى وأزبد، ظاناً أنها من منظمة سرية. نادية بدورها لا تعرف من هو المرسل، لكن يبدو أنها متشفية بأبيها. أقمنا احتفالاً بمناسبة الخبر السعيد. أراد محمود أن يلصق بيديه ورقة أخرى على الباب، مكتوب فيها: «انتظر وسترى»، لكننا أنا وجوزيف رفضنا الاقتراح وقلنا: لننتظر ونرى ما سيحدث.

٨/٣١

في الأيام الماضية قامت الدنيا في الحارة وقعدت ولم يكن عندي وقت للكتابة. المخبر يكاد يجن. ذكر للبقال أن الخبراء يحللون الحبر والخط. استولى علي الخوف، لكن جوزيف هدأني مؤكداً أن

الجاسوس لا يعرف شيئاً وأن الناس تظن أن الكاتب رجل بالغ، بسبب خطي الجميل، ولا أحد يتوقع أن يكون الكاتب ولداً في الرابعة عشرة.

حلمت أن عناصر الشرطة المدججة بالسلاح تحاصر الحارة وأنهم يقودونني عبرها بيدين مكبلتين وقميص أبيض مفتوح على آخره، وأهل الحارة يلوحون لي بمناديلهم ونادية تركض نحوي لتحضنني بذراعيها باكية، عندما أمر بها. شاحنة الشرطة التي ستأخذني واقفة على رأس الحارة. يرتجف الحراس خوفاً لأن العم سليم يظهر فجأة ممتطياً فرساً وخلفه شاب مفتول العضلات على حصان أسود. لا بد أنه أحد قطاع الطرق من أبطال حكاياته.

اليوم لا أعرف إن كنت حلمت بهذا أم أني رغبت فيه.

٩/١

اليوم عملت فانوساً جميلاً من برتقالة. نزعت لبها ثم حفرت شبابيك صغيرة في القشرة ووضعت فيها شمعة صغيرة. ينبعث الضوء من المسامات وكأنه ينبعث من آلاف المصابيح الصغيرة صفراء اللون.

٩/٣

فحصنا جميع الشباب لنرى من منهم جدير بالانضمام إلى عصابتنا ووجدنا أن علياً هو الوحيد الذي يمكن أن نلحقه بعصابتنا في المستقبل.

٩/٤

كلمت علي وطرحت عليه أن ينضم إلى عصابة اليد السوداء، فسخر مني قائلاً إنه صياد سياح وليس من عصابات قطاع الطرق. لكنه رغب أن يكلفنا بمهمة. فقد خدعه الخبيث جورج. استدان ثلاث ليرات منه وينكر ذلك الآن، وإذا قدرنا أن نستردها منه، فستحصل عصابتنا على ليرة واحدة. كانت فرحة جوزيف بتحسين ماليتنا كبيرة جداً وطلب الموافقة على المهمة، لكننا أنا ومحمود رفضنا، فلا علاقة لنا بما يفعله جورج بعلي، فنحن عصابة لتحقيق العدالة ولسنا شرطة.

٩/٥

كانت نادية تنتظرني على رأس الحارة. إعجابي بها يزداد يوماً بعد يوم.

٩/٧

للتو سألتني نادية: «لماذا تتهرب مني؟». لأنها كانت قد انتظرتني قبل أيام أيضاً ومررت بها عند الزاوية كالسهم. ضحكت من كل قلبها. آه، لو أن أباها رجل آخر.

٩/٩

نادية تريد أن نلتقي سراً. قلت لها إني لا أرغب. كيف أقول لها إني أخاف من أبيها.

٩/١١

منذ أيام لا يكف أبي عن الشكوى من نوعية الطحين الرديئة.

اليوم قال العم سليم جملة جميلة. عندما كان يسرد حكاية من أيام شبابه، حكت عليه أم جوزيف بلؤم، بينما هي تقشر البطاطا في حوشنا، قائلة إنه يبالغ. سألها العم سليم بهدوء: «تقصدين أني أكذب؟ لكن اعرفي أن الكذبة هي الأخت التوأم للحقيقة. متى ظهرت إحداهن، نرى الأخرى. كل ما نحتاجه هي عيون قوية».

تبسمت النساء الأخريات بغباء من دون أن يفهمنه، أما أنا ففهمت مرامه... جملة رائعة!

٩/١٣

لا يخفى على محمود شيء. اليوم مسدت بسرعة على رأس نادية فاحمرت. محمود، المكار، جاء إليَّ وقال إنه يعرف كل شيء من زمان وإذا استمرت الأوضاع على هذه الحال، فإنه سيحتفل بخطبتي في السجن.

٩/١٥

لا يكف محمود عن طرح الأسئلة. اليوم شاهدنا فيلماً أميركياً رائعاً. بعده كانت أعصاب محمود ثائرة وعندما سألته عن السبب قال: «ألم تلاحظ أن كل المجرمين شعرهم أسود وأنهم شخصيات سمر

وبوجه قبيح؟ لماذا؟ لماذا لا نرى أشقر واحداً في دور المجرم؟ عندها سيكون الفيلم أكثر تشويقاً. في هكذا أفلام أعرف القاتل بعد خمس دقائق وإذا كان المحقق يحتاج ساعتين ليكشف عن المجرم فهذا لأنه غبي».

٩/١٧

يا ربي، كم كانت فضيحتنا كبيرة اليوم أمام الجيران! وقف الطحان أمام بابنا ونادى أبي بأعلى صوته. اضطرت أمي للكذب، قالت إن أبي ليس في البيت. لم يصدقها تماماً وتكلم معها وكأن أبي يسمعه. هدد بقطع إمداد الطحين إذا لم يحصل على نقوده الثلاثاء المقبل.

أعجبت نادية بقصيدتي عن الشجرة الطائرة، لكني لم أجرؤ على إهدائها لها بسبب الخط. فلا بد أن أباها سيعرف خطي إذا وقعت القصيدة بين يديه.

٩/١٨

يبدو أنني لن أرى المدرسة مرة أخرى. قال أبي أثناء العشاء إنه لم يعد قادراً على تحمل كل الأعباء وحده وتساءل عن فائدة إنجابه ولداً إذا لم يساعده هذا. أنا لن أعمل في الفرن مهما كلف الأمر.

عندما علا صوت أبي صعد إلينا العم سليم وقال إنه يريد أن يزورني أنا، صديقه. سُرّت أمي بالزيارة لأن أبي يحترمه أشد

الاحترام. عظيم! العم سليم لا يخجل من صداقتي، رغم أن أبي اعتبرني خلال سَوْرة غضبه من أقذر المتسكعين. كم أتمنى ألا يموت هذا الرجل.

٩/٢٠

اليوم خطرت لي فكرة عظيمة. اقترحت على عصابة اليد السوداء أن نكتب رسالة تهديد إلى أبي كي لا يُخرجني من المدرسة. كتب محمود نصاً قصيراً فحواه: «السيد المحترم! أنت لست عدونا، لكننا لن نسمح لك بإخراج ابنك الذكي من المدرسة. فهذا التصرف يخالف إرادة عصابتنا ونجد أنفسنا مرغمين على تحذيرك من مغبته، رغم فائق الاحترام والتقدير».

وجدت النص سخيفاً، فكأننا ندعو أبي إلى حفلة واقترحت أن تكون الكلمات أقوى وأن نهدده بصراحة، لكن محمود رفض. إنه يحترم أبي أكثر مما يحترم والده.

اشتكى جوزيف من كلمة «ذكي». أعرفه، جوزيف لا يطيق أن أكون الأول في الصف. قلت له بصريح العبارة إنه حسود وعلت أصواتنا أثناء المناقشة. صرخ جوزيف: «هذه العصابة صارت مهزلة، إذا كانت كل مهماتها حل المشاكل العائلية لأعضائها» وانسحب من العصابة.

أنا أيضاً مللت، فما فائدة عصابة لا تتمكن من حماية أعضائها. قال محمود إن من حقنا أن ننسحب وهو سيواصل الكفاح وحيداً. سخرنا منه.

عجيب، نحن أصدقاء حميمون ولم يتجاوز عمر عصابتنا خريفاً واحداً! كيف يفعل الكبار؟

٩/٢١

سرد لي محمود بغضب حكاية عمه، الذي يعيش مع كامل عائلته في غرفة واحدة: «المساجد من المرمر وأكواخنا تتهدم وترمي بطينها على رؤوسنا. الشمس تتلاعب في صحون المساجد والناس يختنقون في جحورهم المظلمة والرطبة».

كان لغرفة عم محمود كوة صغيرة تطل على ساحة مكشوفة وتمنح العائلة قليلاً من الضوء والهواء المنعش، حتى جاء شيخ سعودي غني ليعمر مسجداً. بنيت جدران المسجد لصق البيوت، بحيث سُدَّت جميع المنافذ المطلة على الساحة ولم تنفع احتجاجات الجيران، فأصدقاء الشيخ أصحاب نفوذ.

عم محمود لا يذهب إلى الجامع منذ عام.

٩/٢٢

يروّج الباعة المتجولون لبضاعتهم بأجمل الأوصاف، وأحياناً تكون فكاهية. المعلمون الحقيقيون هم باعة الخضار والفواكه:

«كل عضة بغصة، يا سفرجل»،

«عسل بكوزو يا تين»،

«عسل يا تين، عسل، والنحل قتله الحسد يا تين»،

«بندوراتي تغندروا وطلعوا يتمشوروا».

الطرخون وحده ذو سمعة سيئة، وهو ما نراه كل يوم على الغداء: «يا خائن يا طرخون، زرعوك بحلب طلعت بحلبون». لماذا خائن؟ سألت أمي، فقالت إن الطرخون لا ينمو فقط حيث يُزرع، بل يزحف تحت الأرض ويطلع في حقول الجيران أيضاً.

الباعة جميعاً يبالغون في الأوصاف. إنهم لا يعتنون بثمارهم ويعاملونها بلطف بالغ فقط، بل يبدو وكأنهم يعرفونها معرفة شخصية. بعضهم يبالغ إلى حد الخيال عندما يروي عن الجهود الذي بذلها في سبيل رأس خس صغير.

بائع السمك هو أكبر المبالغين. فهو لا يكف عن رواية القصص عن الأسماك الضخمة، التي كان يصطادها في البحر. لا ينزعج العم سليم منه إلا إذا زادت المبالغات على حدها. «الله وكيلك، كان وزن السمكة ١٢٠ كيلو و١٥٠ غرام» قال بائع السمك. وصديقي العجوز لا ينزعج من الـ ١٢٠ كيلو، إنما من الـ ١٥٠ غراماً السخيفة، فيقول حينها: «لا أصدقك! ما كان وزنه يزيد على ١٢٠ كيلو وعشرة غرامات» ويبدأ شجار طويل بين العجوزين غريبي الأطوار.

٩/٢٥

اليوم لقنا أحد السياح درساً لن ينساه. جاء برفقة امرأة متهادياً في مشيته وأراد تصويرنا. كنا شلة من عشرة أولاد وابتسمنا للكاميرا.

ضغط الزر أكثر من مرة، بينما لم يكف جورج السمين وحسن عن القتال. أعجب السائح التافه بعراكهما وشجعهما راغباً في رؤية المزيد، وسحب ورقة دولار وقال لجورج إنه سيعطيه إياها إذا طرح حسن أرضاً. وعندما لمح جورج، الذي لا يفهم كلمة واحدة إنكليزية، الورقة الخضراء، فهم ما هو المطلوب منه، فهو يرمي أمه على الأرض في سبيل قرش واحد. تحفز للقفز من جديد على حسن الضئيل، لكن جوزيف كان أسرع، فأمسك برقبة جورج بقوة وصرخ في وجه السائح بالانكليزية: «كلا، أنا أعطيك دولارين إذا صفعتك زوجتك. وأنا يا سيدي أصور».

قال ذلك وهجم على الكاميرا. ضحكت زوجة السائح من كل قلبها. ولما ترجمت لجورج سبب ذهول الرجل، بدت السعادة حتى على وجه هذا المغفل، فلطم ذراع السائح وركله ثم أطلق ساقيه للريح. ترنح الرجل في وسطنا ولم يعد يعرف كيف يحافظ على كاميراه وجيب بنطاله من أيدينا الوسخة وهرب من الحارة ساباً لاعناً.

٩/٢٦

اليوم سلبني جورج أسبوعيتي، أربع ليرات بالتمام والكمال. هذا الخنزير الحقير. طارت نقودي ومعها طار حلمي في الذهاب إلى السينما. كنت واقفاً أمام باب بيتنا وأتحدث له سابحاً في الخيال عن الفيلم الذي سأشاهده.

سألني فجأة: «هل تريد أن تضاعف نقودك؟».

قلت، أنا الأبله: «طبعاً أريد، وهل هذا يستحق السؤال؟».

«أنت تعرف طوني، ابن دكتور النسائية، الذي يراهن كثيراً ومعه نقود كثيرة. الأوراق المالية في جيبه حزم حزم وما قيمة خسارة ليرة واحدة عنده؟ ها؟ ولا شيء. ولد حمار. يراهن على أنه يحزر كل أوراق الشدة من دون أن يلمسها. وهو يشتري أوراق شَدّة جديدة من السمّان أمام عينيك. أنت تخلطها. هو ينظر إلى الورق ويقول لك عشر مرات متتالية ما هي أوراقك. ويحزرها فعلاً، كما يدعي».

«وماذا يحدث إذا غلط؟».

«إذا أخطأ حدسه مرة واحدة، تكسب أنت النقود. أنا أيضاً لا أعرف، إما أنه مجنون أو أنه صحيح ما يقول الآخرون»، وسوس في أذني هذا الوغد الحقير، الذي عرف كيف يستدرجني. وسألت بفضول: «ماذا يقول الآخرون؟».

«أبوه يعطيه حبوب أشعة، يتمكن بواسطتها من الرؤية حتى عبر الحيطان».

«كلام فارغ. لكن قل لي، لماذا لا تضاعف أنت نقودك؟».

رد عليّ: «كل ما عندي قروش وطوني لا يراهن على أقل من ليرة».

«طيب، دعنا نذهب»، بلغ بي الفضول حداً لا أطيقه.

«لكن ماذا أحصّل أنا؟ فأنا من حكى لك عنه. ثلاثة قروش على كل ليرة تربحها؟».

«قرش واحد على الليرة، ولا أكثر، ففي النهاية أراهن على نقودي أنا».

وافق جورج وذهبنا إلى حارة الزيتون. وجدنا فرس النهر السمين على زاوية ملعب صغير، لكنه تظاهر أمامي بأنه لا يريد اللعب وادعى أنه خسر ثلاث ليرات وليست لديه الرغبة في المزيد من الخسارة. توسل إليه جورج ووافق طوني شرط أن أدفع أنا ثمن ورق الشدة الجديد. ففكرت: ما قيمة هذا إذا كنت سأربح وهكذا ذهبت إلى الدكان في الزاوية واشتريت ورق شدة جديداً بليرة. هل هناك من هو أغبى مني في هذه الدنيا؟ أريد أن أضرب رأسي بالحائط. لا يوجد خروف غبي لدرجة أنه يذهب إلى الجزار حاملاً السكين بيده. فتحت علبة الشدّة وأطلت في خلط الأوراق ثم وضعتها بحذر ومهارة على درج أحد البيوت. سلمت جورج ليرة رهاناً وأخرج طوني رزمة أوراق مالية ثخينة من جيبه وسلم جورج، الحكم، ورقة منها. قال طوني بلهجة روتينية: «الانسحاب يعني خسارة» ونظر إلى رصة الأوراق وهمس: «بنت».

قلبت الورقة وفعلاً كانت بنتاً. ركز فرس النهر أفكاره مرة أخرى وفكرت: لا بد أن القدر سيجازيه على غروره بصفعة أليمة، لكن أصابعي كادت تتحجر عندما قلبت الورقة التالية وكانت شاباً، تماماً مثلما حزر طوني، الذي حزر عشر أوراق متتالية وبهذا خسرت الليرة.

الحمار نفسه يتحاشى الحفرة التي وقع فيها مرة، وماذا فعلت أنا؟! بمزيد من التصميم تلمست طريقي إلى الكارثة التالية.

رفعت الرهان إلى ليرتين واقترح عليّ طوني أن أشتري ورق شدة جديداً، لكن ولأنه لم يلمس الورق القديم، لم أوافق على الاقتراح.

طردت جورج من جانبي، فبعض الناس يجلبون الفأل السيئ وأردت أن أعرف ما الذي يجري حقاً. خلطت الورق بعناية فائقة ثم وضعته على الدرج، ولدهشتي حزر طوني عشر أوراق متتالية. جلست على الدرج كالمشلول. اعتذر جورج واختفى عن الأنظار، بينما مشى طوني مختالاً راضياً. ذهبت من ثم إلى البيت بطيء الخطى وعلى الطريق لمحت الخنزير جورج يلحس في قرن بوظة كبير. ابتسم ابتسامة ماكرة ثم أدار وجهه عني.

عندما حكيت لمحمود عن حبوب الأشعة، سخر مني وقال إنني أكبر غبي. شرح لي أن السمان لا يبيع إلا الورق المُعَلَم، على ظهر الأوراق وفي متاهة الأشكال والألوان توجد إشارة خفية تدل على مضمون الورقة. كان لدى محمود هذه النوعية من الورق وبعد قليل تعلمت التمييز بين ثلاث عشرة إشارة مختلفة. أراد محمود أن يضرب جورج في المساء ذاته، لكن خطرت لنا فكرة أذكى. وبعد تفكير طورناها إلى خطة جهنمية.

المهم أن نحتاط من جورج، كما أننا نحتاج خمس ليرات، فأنا ومحمود مفلسان حالياً. لنرى إن كان العم سليم سيهبنا رأس المال.

٩/٢٧

رددنا لهم الصاع صاعين. سلبنا طوني سلباً. لن يتكلم أبداً مع جورج. كان العم سليم كريماً وأعطانا خمس ليرات من دون أن يسأل عن السبب. لعب محمود بالورقة النقدية طويلاً حتى أغراه جورج

بالذهاب إلى طوني. ذهب محمود كالحمل الوديع إلى الملعب ومن هناك ذهب إلى الدكان، لكنه اشترى علبة علكة. سحب ورقاً غير معلّم من جيب بنطاله وعاد إلى الملعب، حيث ينتظره الاثنان.

فتح علبة الشَدة وقال بصوت عال، حتى يسمعه الأولاد الآخرون أيضا: «أنا واثق أنك ستخسر ولهذا أراهن على خمس ليرات. وإذا لم تكن جباناً ستراهن أنت أيضاً على خمس ليرات».

وافق طوني على الرهان مبتسماً ابتسامة النصر. خلط محمود الورق، حدق في جورج، الذي اختلط عليه الأمر وقال له: «تعال يا جالب الحظ» وقبَّل خده. اقترب أولاد الجيران ونظروا بفضول إلى الليرات العشر، التي يحملها جورج في يده. وضع محمود الورق على الدرج وتردد طوني طويلاً. استفزه محمود قائلاً: «ها، قريباً إن شاء الله، يا صاحب عيون الأشعة؟». قال طوني إنها جويزة ديناري، لكنه أخطأ، فقد كانت أربعة ديناري.

«هات الليرات يا جالب الحظ»، صاح محمود ورفع الأوراق عن الدرج قبل أن يتمكن طوني الحائر من لمسها. «سأعطيك فرصة أخرى، لكن لا يجوز أن تلمس الورق، موافق؟»، سأل محمود طوني.

جاوب فرس النهر: «لحظة».

«ماذا، هل بلت في بنطالك من الخوف، ها؟ إذا لم تكن جباناً راهن على عشر ليرات!»

«عشر ليرات!» شهق الأولاد الآخرون.

أراد طوني الذهاب إلى الظل، ظاناً أن الشمس شوشت عليه.

«لا مانع، لكني أنبهك، الانسحاب ممنوع».

راهن طوني على عشر ليرات وفشل منذ الورقة الأولى، قبّل محمود جورج وأعطاه قرشاً. «هذا كان اتفاقنا، أليس كذلك؟»، قال بصوت عال.

أراد جورج أن يذكره أن نصيبه قرش على الليرة وليس على خمس عشرة ليرة، لكنه لم يتمكن من بلع ريقه، عندما رأى نظرات طوني المليئة حقداً.

اشترينا علبتي تنباك للعم سليم وانتقيناهما من أفضل الأصناف، التي يبلغ ثمن علبتها ثلاث ليرات. وقسمنا التسعة الباقية بيننا.

٩/٢٨

اليوم رويت قصة جورج وطوني والورق للعم سليم وقلت إني سأضع كل صديق من أصدقائي تحت المجهر قبل أن أعتبره صديقاً حقيقياً. هز رأسه متأسفاً وقال: «وحتى لو وقعت ثلاثمائة ألف مرة في الفخ، إبحث عن أصدقاء جدد ولا تكن شكاكاً» وسحب نفساً من الأركيلة وتابع: «تعرف، يا صديقي، أن ضعفاء هذه الدنيا اخترعوا الصداقة. الأقوياء لا يحتاجونها، فلهم السلطة. إبحث عن أصدقاء وانسى المجهر، فبه ترتكب أكبر أخطاء حياتك وهو العيش في عزلة».

٩/٢٩

تمشيت مع نادية عبر الحقول والبساتين القريبة من الباب الشرقي لدمشق أكثر من ساعة. قبّلتها وتندرنا على أهلنا.

أعطيت أختي ليلى ليرة، فقد أفلست من جديد.

في المناسبة اليوم كان آخر أيامي عند النجار. الحقيقة أن العمل عنده كان ممتعاً ومفيداً، فأنا أتقن النجارة وتصليح الأثاث بشكل أفضل الآن وقد أصلحت في هذه الفترة الكثير في بيتنا وبخاصة النوافذ الخشبية التي صارت سهلة الفتح والإغلاق.

غداً مساء سأذهب مع محمود لمشاهدة الفيلم الذي يعرض في السينما الجديدة في المدينة.

١٠/١٠

قبل عدة أيام ودعنا شاباً لطيفاً من لوكسمبورغ في المطار. كان اسمه روبرت وعمره واحداً وعشرين عاماً. لم يغز روبرت قلوبنا وحدنا فقط، بل وأيضاً قلوب أمهاتنا. التقطه جوزيف أمام الكنيسة وأراد أن ينصب له شركاً قائلاً: «أمي مريضة وعلي أن أعيل عائلة كاملة. عمي يصنع علب موزاييك خشبية جميلة وصحون نحاس» وكل الجمل التي حفظها عن ظهر قلب. لكن روبرت تحدث معه بالعربية وقال إنه لا يريد شراء علب ولا صحون، ليس معه نقود لكن معدته فارغة. دعاه جوزيف إلى البيت وللفور استلطفا بعضهما. ثم تعرفنا عليه وجلبنا حقائبه من الفندق وأمضى معنا فترة. استضافه كل منا في بيته عدة أيام.

وافق أبي وقال: يجب أن تبقى باب الدار مفتوحة أمام الغرباء وسمح بأن يشاركني روبرت في غرفتي، وبذلك وجب على أختي أن

تنام مع أبي في سريره. أبي يشخر وليلى تندب حظها كل صباح ولذلك لم تحب روبرت منذ اللحظة الأولى وكانت تلح عليه بالسؤال عن موعد سفره. ضحك عليها روبرت الطيب وقال: «لن أرحل أبداً».

وأما هو فقد رحب به أهل محمود وفيما بعد أهل جوزيف عندما انتقل للسكن عندهم، علي وحده قال إن من الخطأ أن نستقبل الأجانب في أكواخنا الفقيرة لأنهم سيحتقروننا. أعتقد بأن روبرت أحبنا هكذا من دون شروط، كما أن أمي أحبته حباً كبيراً وكانت توصيني كل صباح بأن أهتم به. كانت قلقة عليه وكأنه قطعة شوكولاتة، مع أنه كان مثل الثعلب العجوز الخبير بكل الحيل، وهذا تماماً ما أحببته فيه.

ترعرع روبرت في مصر، حيث عمل أبوه خمس عشرة سنة ورجع من ثم إلى لوكسمبورغ. خجلت جداً لأني ما كنت قد سمعت بلوكسمبورغ من قبل، لكن روبرت قال إنها بلد صغير فلا حاجة للخجل. قرر روبرت بعد حصوله على الشهادة الثانوية أن يقضي شهراً من كل عام في بلد عربي. كنا شاكرين لجوزيف لأنه هو من التقى هذا الشاب الرائع وليس علي. في العام القادم ينوي روبرت أن يسافر إلى اليمن الشمالي.

أضاع روبرت محفظة نقوده لكنه لم يقدم بلاغاً إلى الشرطة، فهو يمقتها. كان يضحك من قصته ويقول: «إذا فقد أحد الغرباء نقوداً وصادف هكذا أصدقاء، فقد ربح».

بعد يومين خطرت فكرة جيدة على رأس ابن لوكسمبورغ الذكي. ارتدى ثياباً نظيفة ومشط شعره وتربص بالسياح وأراد أن يظهر بمظهر

ابن سفير لوكسمبورغ في القاهرة، الذي يقضي عدة أيام في دمشق بالصدفة. وحسب الحساب لكسب ثقة السياح بسرعة، لأنه أشقر ويتحدث أربع لغات بطلاقة وسيأخذهم من ثم إلى «تجارنا» وبذلك نكسب نسبة ١٠ في المئة عمولة. ونفذ خطته فنجحت نجاحاً فائقاً. صرفنا النقود كالمجانين. أكلنا في أفخم المطاعم، كما أنه جلب كثيراً من الهدايا من رحلات صيده الموفقة. لكن أجمل ما فيه كانت أحاديثه. حكى لنا عن الأطفال في أوروبا فاستغربنا لأن حالهم ليست أفضل من حالنا، فمع أن عندهم المزيد من الشوكولاتة، لكن أماكن اللعب عندهم نادرة، كما أن أهلهم أيضاً يضربونهم (لكن سراً. وفي المقابل يحصلون على قبلات أقل منا). كلا، إنهم لا يحسدون على وضعهم.

أم أنهم يا تُرى يحسدون على شيء واحد!؟ هو أن عمل الأطفال ممنوع. في رأيي هذا جيد. على البالغين أن يدبروا شؤون تغذية العائلة من دون مساعدة الأطفال.

قبل يومين من سفره، قص روبرت شعره، أهدى كلاً منا خصلة شعر أشقر وقال علينا أن نمسح عليها كلما فكرنا فيه وهو سيشعر بأيدينا أينما كان. ولد مجنون، لكن في هذه اللحظة، حيث كتبت السطر الأخير، أخرجت العلبة الصغيرة من الدرج ومسدت على الشعر الناعم.

١٠/١١

افتتحت المدارس أبوابها من جديد. المدرسون هم هم. يبدو أن والدي نسي أنه منعني من متابعة الدراسة. كما أنني أتحاشاه منذ شجارنا الأخير.

أحب المدرسين إلى قلبي هما أستاذ العربي وأستاذ التاريخ. الأستاذ كاتب يدرسنا العربي منذ سنة. لقد شاخ نوعاً ما وهو خفيف الدم. غالباً ما يجلس في زاوية ويقرأ في كتاب. حتى لو كنا نكتب مذاكرة. وحتى أثناء الفرص لا يذهب إلى غرفة المدرسين، إنما يجلس وحيداً في باحة المدرسة تحت الصفصافة العملاقة ويقرأ. راقبته مرة. عندما يقرأ يغرق في كتابه كلياً، يبكي أحياناً أثناء القراءة وأحياناً يضحك بصوت عال ويضرب بيده على فخذه، بحيث يضحك كل من يراقبه. يقول محمود إن الأستاذ كاتب طيب القلب وهو لا يجامل في هذا. إنه يعطينا أحسن العلامات وقال مرة إن هذا سبب له المشاكل في المدارس الأخرى وإنه يحب مدير مدرستنا لأنه إنسان عاقل.

أستاذ التاريخ فلسطيني، معروف ما زال في مقتبل العمر، لكنه ممتاز. امتحاناته صعبة، لكنه يعطينا معلومات مهمة بطريقة مشوقة. ثم إنه المدرس الوحيد الذي يسب كل الحكومات العربية. إذا لم أتمكن من أن أصبح صحافياً، فإن مهنة التدريس أيضاً ليست سيئة.

١٠/١٢

اليوم حدث انقلاب جديد. ستبقى المدرسة مغلقة حتى يوم الاثنين القادم. وهذا هو الانقلاب الثاني في هذا العام. الانقلابات في دمشق تقوم عادة في الفجر ونحن، سكان الحي القديم، لا نعلم بما يجري إلا متأخراً عن طريق الراديو. فجأة يسود الصمت المطبق،

تتبعه مارشات عسكرية عنيفة، ثم تبدأ بعدها تلاوة بلاغات الحكومة الجديدة، التي تسب الحكومة السابقة عن بكرة أبيها.

كان العم سليم ذكر لي أنه صدق وعود الحكومة الجديدة بعد الانقلاب الأول قبل خمسة عشر عاماً. وأنه آنذاك فرح أشد الفرح واحتفل بالانقلابيين حتى مطلع الفجر واكتفى بعد الانقلاب الثاني بالتصفيق والتهليل ويكتفي منذ الانقلاب الثالث بهز رأسه متحسراً.

عاد أبي إلى البيت وحكى عن تخوفاته قائلاً: «الحكومة الجديدة تثرثر كثيراً عن الحرب». أنا أكره الحرب وأخاف منها بدوري.

ما زال أبو نادية مخبراً، بالأحرى ما انفك مخبراً. الخائن. يعمل منذ اليوم عميلاً لأعداء حكومة الأمس. لا أفهم هذا الشيء.

١٠/١٨

فتحت المدارس أبوابها من جديد. اختفى الأستاذ معروف، مدرس التاريخ، عن الوجود. لا أحد يعلم إن كان قد اعتقل أم هرب. سيأتينا أستاذ تاريخ جديد حالاً، أخبرنا المدير. آه لو أن أستاذ البيولوجيا، الشبيه بالملاكم، اختفى.

لا أطيق هذا النموذج من الناس، الذي يمنعنا من طرح الأسئلة ويضربنا على الطالع والنازل، مع أن الضرب ممنوع. أحياناً أحلم بأن أقوم وأقول له إنه في رأيي أكبر غبي وليهرسني وقتها هرساً. لكن الحلم لا يتعدى أمنية لم أجرؤ على تنفيذها حتى اليوم.

على الأقل ظل أستاذ العربي اللطيف في مكانه.

١٠/٢٥

أحب الفصول إلى قلبي هو الخريف. في هذا الفصل ترتدي دمشق أبهى حللها. تمتلئ الشوارع بالباعة الجوالين، الذين يمدحون ثمار الخريف بأصواتهم العالية. لم يعد هناك الكثير من السياح كما في الصيف ويبدو أن لدى الباقين مزيداً من الوقت، فهم يبدون اهتماماً بحياتنا اليومية. اليوم نظرت سائحة عجوز من درفة بابنا المفتوحة دائماً إلى أمي وهي تحشي الباذنجان. سألتني بلطف عما تفعله أمي فترجمت بانكليزيتي التعيسة، ما قالته لأمي. فسألت بأدب إن كانت تستطيع مراقبة أمي عن قرب، فخافت أمي أن تصورها السائحة. عدلت جلستها في فستانها العتيق، لكن لم يكن لدى السائحة كاميرا. هدَأتُ من روع أمي وأبدت السيدة إعجابها بمهارة يدها.

يملأ السنونو السماء بزقزقته المليئة بالحياة، كأنه يريد التقاط آخر الأفراح قبل أن يبدأ رحلته نحو الجنوب.

في الخريف لست مضطراً لمساعدة أبي في المخبز كثيراً. بعد موسم الحصاد يتدفق الكثير من الفلاحين والعمال الزراعيين، العاطلين عن العمل، إلى المدينة. يحصل أبي على عرض أكثر من طلبه. وأنا؟ أستطيع التركيز على المدرسة بكل جوارحي، وبعدها يكون وقتي ملكي وحدي. ونادية.

١٠/٢٨

منذ سنة ونحن نتلقى دروس الكيمياء. اليوم قرر أستاذنا المجنون أن يأخذنا إلى المخبر. كاد هذا الخبر أن يحدث بلبلة بين التلاميذ.

الكل يحلم بأن يصنع قنبلة أو غازاً نتن الرائحة، لكن لم يتجرأ أحد منا لاحقاً على الجلوس في الصف الأمامي. قال المتبجحون: «من يعرف ما قد يجري! لا سمح الله». في الفرصة الطويلة، ناداني الأستاذ، أنا ومحمود وجوزيف، لأن بيوتنا بجوار المدرسة. قال إن على أحدنا أن يركض إلى البيت ويجلب بيضة مسلوقة، كي يشرح لنا معنى الفراغ. قال محمود إنه لا يوجد بيض لدى أمه، لكن إن كان يحتاج حبة بطاطا، فسيأتي له بأكبر حبة. جوزيف، الثعلب المحتال، قال إن عائلته لا تأكل البيض أبداً، لأنهم جميعاً يعانون من حساسية ضد البيض. وبهذا بقيت وحدي في الفخ. في المرة الأخيرة لم أحصل على علامة جيدة ولهذا اردت أن أترك انطباعاً جيداً لدى المدرس وهرولت إلى البيت.

لكن عندما حكيت لأمي الموضوع، نظرت إليَّ بدهشة وقالت: «أستاذكم فعلاً غريب، عوض أن يعلمكم بالكتب، يعلمكم بالبيض».

بصعوبة جمة حاولت أن أشرح لها ما هو الفراغ.

«فراغ؟» كررت أمي الكلمة وقالت: «بالبيض يمكن طبخ أكلات لذيذة وصنع كاتو وحلويات، أما الفراغ فلا يمكن صنعه بالبيض. على الأستاذ أن يعمل فراغه بشيءٍ ثانٍ».

بعد أخذ ورد أعطتني بيضة صغيرة وهي تشك في نياتي. كانت تظن أني سأبيع البيضة لأشتري بها دخاناً.

كانت البيضة بحجم بيضة الحمام. سلقتها ووصلت إلى باحة المدرسة مع انتهاء الفرصة. دخلنا المخبر. جوه رهيب بما يحتويه من قوارير وأجهزة معقدة. تجمعنا كلنا في الصفوف الثلاثة الأخيرة بينما

الأستاذ يتبختر في المخبر كالطاووس وكأنه يستمتع بجبننا. ثم حكى لنا شيئاً ما عن الفراغ، قشر البيضة ووضع قطنا في قارورة طويلة العنق واسعة الفتحة، صب الكحول على القطن وأشعله. وشرح لنا أن الفراغ يتكون إذا وضع البيضة على فتحة الزجاجة واستهلك النار الاوكسجين الموجود فيها. وهذا الفراغ سيكون السبب في انزلاق البيضة إلى الزجاجة. «لن تدخل البيضة في الزجاجة من دون حدوث الفراغ الذي يمصها إلى الداخل»، قال ممسكاً بالبيضة فوق فتحة القارورة من دون أن يفحصها تماماً، ثم أسقطها فانزلقت عبر فتحة الزجاجة. انطلق الصف بالضحك. وصاح عصام: «لسنا بحاجة إلى فراغ لندخل البيض في القوارير إنما إلى بيض صغير».

غضب المدرس وأراد أخراج البيضة ليعيد تجربته في قنينة أصغر، لكن البيضة علقت في عنق الزجاجة. سب المدرس الزجاجة وخضها خضاً عنيفاً. اندفع الكحول من الزجاجة وفجأة انطلقت البيضة من الزجاجة باندفاع قوي. ارتطمت بالحائط وسقطت متناثرة على الأرض. صارت رائحة المخبر مثل رائحة الخمارة في مدخل حينا.

١١/٢

شجاعة محمود لا توصف. تجرأ اليوم ليطرح سؤالاً على ملاكم البيولوجيا. هذا الأهبل لا يحب الأسئلة. حاول الأستاذ أن يبين لمحمود مدى كسله ثم انتقل لمحاضرة عن قلة أدب محمود وأنهى خطابه ببهدلة. لم يُجِبْ على السؤال. كان سؤال محمود عن الفرق بين المني والبيضة لدى الإنسان.

سخر منه المدرس قائلاً: «عندك سؤالٌ ثانٍ؟».

حدق محمود في المدرس وأجاب: «اثنان، السؤال الأول الذي لم تجب عنه أنجب سؤالاً ثانياً». صعق ملاكم البيولوجيا. صفع محمود وسأله: «والآن؟». صرخ محمود: «صارت أربعة» فهتفنا كلنا بصوت واحد «برافو»، فأثَّر هذا في المدرِّس وتخلى عن رغبته في ضرب محمود صفعة أخرى.

أقسم عصام في الفرصة، أنه كان سيمسك بخناق المدرس لو ضرب هذا محمود صفعة ثانية. يا ليت! كنا رأينا منظراً جميلاً حقاً: صراع بين عملاق الصف عصام وملاكم البيولوجيا ولفهمنا نظرية داروين كما هي على حقيقتها.

١١/٤

أعطانا الأستاذ كاتب الفرصة لاختيار أي موضوع وكتابته بشكل قصيدة أو قصة أو حكاية. سأتلو قصيدتين من مجموعتي.

١١/٧

اليوم ارتبك الخوري، أستاذ الديانة، ارتباكاً لا يوصف. صب جوزيف كل لؤمه في السؤال عن سر الاعتراف. أكد القس بكل حزم أن كشف سر الاعتراف أو استغلاله محرم تحريماً باتاً، فسأله جوزيف عما سيفعله إذا اعترف أحدهم أمامه بأنه كان ينوي قتله ولذلك وضع قنبلة تحت كرسي الاعتراف والآن ندم على فكرته لكنه يخشى

الاقتراب من القنبلة. ادعى القس بأن من البديهي أنه لن يستغل سر الاعتراف وسيبقى جالساً في مكانه. انطلق الصف كله بالضحك، لأن الجميع يعرف أن الخوري جبان. وأجبر ضحكنا الكاهن أن يقر بأنه سيهرب، بحيث إنه لن يضر أحداً بذلك. فهتف جوزيف على الفور: «هذا لا يجوز، لأنك بذلك تكون قد استغليت سر الاعتراف». فلم يسع الأستاذ إلا القول: «اكتب سفر التكوين ثلاث مرات حتى الحصة القادمة».

سأحكي هذه القصة لنادية، لا بد من أنها ستضحك كثيراً على الطامة التي وقع فيها جوزيف التعيس.

١١/٩

من بين جميع الأجرام السماوية أحب القمر أكثر ما أحب. ليس البدر وحده، بل وأصغر بقية باقية من القمر توحي لي بسكون لا مثيل له. قال لي العم سليم إن جده كان يستطيع التنبؤ بهطول المطر وانحباسه من خلال النظر إلى القمر. أنا سأرضى لو استطاع القمر، الذي يرى كل شيء، أن يخبرني إن كنت سأنجح في مذاكرة البيولوجيا. لابد أن القمر يرى مثلي، أن ملاكم البيولوجيا غبي.

١١/١٣

اليوم روى لي محمود، كيف أخرَسَ المجنون ذو العصفور شيخاً. ذهب محمود برفقة أبيه إلى الجامع القريب ليصلي الجمعة.

رأى المجنون على السبيل يتوضأ كالآخرين، كما اغتسل عصفوره بمرح وحط من ثم على عمود. جلس المجنون في الصفوف الأخيرة وكاد محمود أن ينساه حتى بدأت الخطبة.

تبرم الشيخ بالديانات الأخرى وتهجم بعدوانية على الطوائف الإسلامية غير السنية. فجأة نهض المجنون ورتل بصوت رائع كلمة «آمين»، ثم أتبعها بأناشيد دينية منظمة تمدح ربوبية الإنسان وحب كل الأحياء. كان غناؤه مؤثراً بحيث ردد معه المصلون الأبيات.

صمت الشيخ ورغم أنه حاول السيطرة على الجو أكثر من مرة، إلا أن صوته ضاع في غمرة الأصوات المنشدة. نزل من المحراب وأمر خادمين بسحل المجنون خارجاً، لكن الجميع سمعوه يغني رغم سد فمه. استعاد المصلون هدوءهم وتابعوا الخطبة، التي أنهاها الشيخ على وجه السرعة.

خسارة، أنهم لم يتبعوا المجنون.

١١/١٤

اليوم كان أحد أجمل أيام حياتي. كانت حصة العربي المضاعفة رائعة، لم أرَ مثلها قبل الآن. جلس الأستاذ كاتب على أحد مقاعدنا وكأنه تلميذ وسمح لكل طالب بقراءة موضوعه بمنتهى الحرية. ناقش معنا متحمساً القصص، الحكايات والقصائد. عندما جاء دوري ألقيت قصيدتي «أحلم بصوت عال» و«الشجرة الطائرة». حفظتهما عن ظهر قلب. وجدها الأستاذ جيدة جداً، وقال بما معناه إنه متأكد من أن

شاعراً يعيش في داخلي. لا بد أن وجهي احمر. قال محمود إن إلقائي كان جيداً، رغم أني كنت أصرخ أحياناً حتى أوجعته أذناه. عندما دق الجرس بقينا في الصف، كي يتمكن باقي التلاميذ الخمسة من قراءة مواضيعهم. مثل هذا الشيء لم يكن متوقعاً من صفي حتى الآن، حيث إننا رجل في الصف ورجل في الباحة، قبل دق الجرس.

أنا الآن تعبٌ، لكن يجب أن اكتب غداً عن موضوع محمود. لقد كان موضوعاً نادراً.

١١/١٥

كتب محمود مسرحية سماها «الحروف». يدور موضوعها عن مدرس شاب، يقرر أن يعلم الناس في حارته القراءة. المدرس غبي جداً ويعامل الرجال الكبار والنساء معاملة الأطفال. في الساعة الأولى يكون الناس فضوليين، يذهبون بعد العمل المجهد إلى غرفة في المدرسة القريبة وينتظرون. يدخل المدرس الصف مرتدياً بدلة وربطة عنق بعد أن يرن الجرس بنفسه، يحمل بيده عصاً ويأمر الناس أن يقفوا احتراماً له فيقف الكثيرون، لكن فلاحاً عجوزاً فخوراً يقول إنه لم يقف في حياته إلا مرتين. مرة عندما زاره الأسقف والمرة الأخرى عندما مر السلطان عبدالحميد بحقله ممتطياً جواده. يصرّ المدرّس على تعليم الأحرف الأبجدية حرفاً بحرف. يكتب حرف الألف على السبورة ويقول يجب حفر هذا الشكل في الرأس حفراً. عندما يصل إلى الدال، تسأله امرأة، إن كانت كلمة «يوم الغسيل» تبدأ بحرف الدال. الجزار يفضل تعلم كتابة كلمة «بقر». يوافق الفلاح على رأي

الجزار شرط أن يكتب المعلم جانب «البقر» كلمة «ماء» أيضاً. يهتف العطار، هذا مستحيل. فهو يفضل تعلم كتابة «استمارة جمركية». كلا! الحروف أولاً، يصيح فيهم المدرس، فيرجوه بعضهم على إثرها أن يستعجل في الحروف. يضطجعون على مقاعدهم ويكلفون زملاءهم بإيقاظهم إذا انتهت الحروف. يخرج الفلاح كيس تبغه ويلف سيجارة. لا يسمح له المدرس بالتدخين ويمنّيه بالفرصة. يذهب الفلاح إلى الأمام، يأخذ الجرس ويرنّه معلنا عن بدء الفرصة. يجن المعلم ويصرخ في وجه الفلاح ويأمره بالوقوف مديراً وجهه إلى الحائط. لكن الفلاح يخرج من الصف ولدى خروجه يطلب منه بائع الخضار المتجول أن يقول لحماره المنتظر خارجاً، أن يصبر حتى موعد الفرصة. في اليوم التالي لا يأتي إلا نصف الناس وبينهم عتال جاد، فخور جداً بأنه عمل وظائفه ويري المعلم دفتره، الذي رسم فيه الحروف رسماً، متوسلاً أن يسمع منه استحساناً، لكن المعلم يلوي شفتيه لأن العتال لم يكتب الحروف على السطر. يحزن العتال ويقول: «هذا ليس ذنبي. أنا أكتب على ظهر حماري، لكن الشوارع مليئة بالحفر. الحكومة لاتردم حفرة إلا لتحفر أخرى»، ويطلب من المعلم أن يكتب عريضة إلى الحكومة يحتج فيها على الحفر، ما دام هو يتقن الكتابة.

عندما يضحك الجزار، ينوي المعلم أن يضربه على يده بالمسطرة كي يتأدب. لكن هذا يكسر المسطرة ويدعو زملاءه للإضراب. يخرج الجميع ويصفهم المدرس بالبرابرة.

لم يمسك صفنا نفسه عن الضحك. مدح الأستاذ كاتب قدرة

محمود الفائقة على الفكاهة. لا أحد يستطيع الكتابة بهذا المرح الساخر مثل صديقي محمود.

١١/١٦

سُرَّ أبي لأن قصائدي أعجبت الأستاذ كاتب. يقول إنني ورثت ذلك منه، فهو أيضاً كان يكتب أشعاراً في شبابه. ومن شدة سعادته أراد بعد العشاء الاستماع إلى قصائدي.

تثاءبت أمي بعمق وعندما لامها أبي على هذا، قالت إن عليها النهوض في الصباح الباكر، وإلا ألقى عليها الغسيل الوسخ قصائد.

١١/١٧

جاءنا أستاذ تاريخ جديد. شخصية غريبة فعلاً. لا يريد أن يسمع إلا التواريخ. أراد أن يختبر معلوماتنا بعد أن ألقى علينا التحية. متى ولد نابليون، متى توفي ذو القرنين، متى نصب القيصر الفلاني وعزل العلاني؟ بعد فترة قصيرة دوّخنا، بحيث لم نعد نعرف متى نالت سوريا استقلالها.

أرقام، أرقام، أرقام. ما فائدة كل هذه الأرقام؟ أعتقد بأني لن أتفاهم مع هذا الأستاذ الجديد. يقول محمود، إما أن يكون هذا المتبجح قد تخرج من تحت يد داية أو من مؤسسة دفن الأموات. أحياناً عليَّ ان أعترف للأسف بأن والدي على حق. كل ما نتعلمه من هذا الأستاذ الأحمق كلام فارغ.

١١/١٩

وقفت نادية للحظة أمام باب بيتها وابتسمت لي.

١١/٢١

اليوم فاجأني الأستاذ كاتب في باحة المدرسة. «هل أرسلت القصائد إلى دار نشر؟»، سألني. لم أنبس ببنت شفة. دار نشر؟! لم أكن أتصور تحت هذا الاسم إلا القليل.

وضح لي الأستاذ كاتب أن الشعراء يرسلون قصائدهم وقصصهم إلى دور النشر لينشروها، بل وأعطاني اسم وعنوان أحد الناشرين ونصحني بأن أرسل له بعض قصائدي، خصوصاً القصيدتين اللتين ألقيتهما في الصف. وهو جاد في كلامه. إذاً أنا شاعر.

١١/٢٢

للمرة الثالثة أكتب رسالة، لكنها تطول كل مرة. قال لي الأستاذ كاتب، كلما أوجزت الرسالة كلما أصابها حظ أفضل أن تُقرأ، لكن كيف أفسر بكلمات موجزة سبب كتابتي للقصائد؟ حتى الآن طردت ليلى ثلاث مرات من الغرفة، لأنها كانت تريد لمس الرسالة بأصابعها الوسخة. رأسها اليوم حجر لا تؤثر الكلمات فيه.

وأخيراً أنهيت صوغ الرسالة. كتبت للناشر أني أرسل له سبع عشرة قصيدة أريتها لأستاذنا في المدرسة. وقلت ربما كنت صغيراً جداً، لكن

عليه أن يتذكر أن كثيراً من شعرائنا كانوا صغار السن، جرير مثلاً. كما ذكرت عمي، أفضل شعراء المنطقة. وشرحت له، ربما يكون من الجنون تطيير شجرة، لكن الأستاذ يقول إن الشعر من دون جنون مثل وعظ قداس الأحد. ثم كتبت أنني لم أنتحل كلمة واحدة ويمكنه أن يتأكد من كلامي. كتبت أنني صغت جميع القصائد وحدي، فأمي لا تستطيع القراءة وأبي يحب الشعر، لكنه لا يكتبه أبداً.

أتمنى لو يقرأ القصائد. سأشعل شمعتين للعذراء إذا طبع الناشر قصائدي. لم تفهم أمي ما هي دار النشر. حاول أبي أن يشرح لها. لكنه قال لي إن ثمن الطوابع التي سألصقها على الظرف نقود مبذرة من دون فائدة، وكأنه ليس لدى الناشرين ما يفعلونه سوى الرد على رسالة ابن خباز.

١١/٢٥

منذ يومين لا أنام جيداً. أظل طوال الليل مستيقظاً أفكر بالناشر. ما الذي سيقوله؟ ربما كان يجب أن أكتب أن عمري سبع عشرة سنة. أو ربما كان الأفضل أن أكتب القصائد على ورقٍ غالٍ؟ ما الذي سيفكر به عندما يعرف أنني ابن خباز؟

فكرت البارحة بأن أذهب إلى دار النشر، فهو يقع في حي الصالحية، حي الأغنياء، ما الذي سأقوله؟ هل أقول: كنت ماراً بالقرب صدفة وأريد أن أقابل السيد المدير؟ سيسأل الحارس: من أنت؟ يا إلهي، لو أنني أكبر قليلاً ولديَّ بنطال أفضل. بنطالي العتيق لا يصلح لأي شيء، لكن قصائدي جيدة.

أحاول أن أتخيل شكل الناشر. هل هو طويل، نحيف، أشيب العارضين وبنظارة ذات إطار عاجي؟ هل سيضحك عندما يقرأ قصائدي؟ لا بد أن تعجبه قصيدة «حلم على كيس طحين» كثيراً. وقد كتبت له أنني خربشت القصيدة أول مرة على حواشي جريدة قديمة، لأنه لم يكن في المخبز ورق أفضل.

١١/٢٧

كنت قد لففت لنفسي رغيف جبنة وجلست على الدرج أمام باب الدار آكلها عندما اتجه المجنون نحوي. طار عصفوره إلى شرفة منزل جوزيف القريب، كأنه يعلم أن المجنون سيجلس بجانبي، وهذا ما فعله حقاً. نظر إلى «عروستي» وقال: «جبنة».

قطعت له نصفها فأكلها وهو شارد البال وكأنه يتأمل ويفكر. بعد فترة بدأ بالكلام، فجأة ركله جورج الخنزير عندما مر بنا. انكمش الرجل المسكين على نفسه من الخوف وغطى رأسه بيديه. تطايرت الجبنة على أرض الحارة. اغتظت من جورج وتمنيت لو أخنقه. مسدت رأس الرجل لكي يهدأ، أخذت «العروسة» الفارغة من يده المتشنجة وأعطيته حصتي. هدأ شيئاً فشيئاً وبدأ من جديد بالهمس. لم أفهم منه الكثير. تمكنت بين الحين والآخر من التقاط كلمة عربية، لكن الكلمات الأخرى كانت أصواتاً غريبة علي. «أعد الجملة مرة ثانية» كنت أرجوه وأصيخ السمع. لكن لم أفهم إلا كلمات «الشرق» و«قوس قزح» ولا شيء آخر. ثم قال بكل وضوح: «ورق» وقضم العروسة. نهضت. كان جورج ينتظر على مسافة قريبة ويبتسم ابتسامته

القبيحة يتوسل المصالحة، كما هي عادته بعد كل حقارة يعملها. هددت بضربه إذا تجرأ ولمس الرجل ثانية. جئت للمجنون بورقة وقلم رصاص فضحك ضحكة الطفل. فرك راحتيه، أخذ القلم ورسم بعض الإشارات. كانت كتابته غريبة. بعد سطر واحد كتب جملة بالعربية، ألحقها بحروف لاتينية، لكنها لم تكن لا كلمات فرنسية ولا إنكليزية. ثم جاءت كلمة الشرق بالعربية، ومن جديد كتابة عجيبة، وهكذا.

«اقرأ»، قال لي المجنون وابتسم وذهب. خطه العربي جميل كما في الكتب.

في المساء أريت الورقة لأبي. حملق فيها طويلاً وقال: «هذا عبري. وهذا تركي. وهذا هنا فارسي وهذا يوناني، لكني لا أستطيع قراءتها». يا ترى، ما الذي كتبه هذا الرجل؟

١١/٢٨

سأل الأستاذ كاتب محموداً، إن كان يعرف أحداً يطبع له مسرحيته على الآلة الكاتبة، ليرسلها إلى الإذاعة. من أين لمحمود أن يعرف «ضارباً» على الآلة الكاتبة فسألنا الأستاذ، ألا تكفي كتابتها بخطي الجميل، فرد الأستاذ كاتب: «لا، الناس في الراديو لا يحبون النصوص المكتوبة بخط اليد»، وقرر أن يصفَّ المسرحية بنفسه على الآلة الكاتبة. نعم الرجل.

١١/٣٠

شكل المسرحية الآن جميل وهي مصفوفة على الآلة الكاتبة

ومرتبة كما في الكتب. في المقدمة أرفق بها الأستاذ كاتب ورقة كتب عليها اسم محمود وعنوان المسرحية: (الحروف ـ تمثيلية إذاعية). على الصفحة التالية جاءت أسماء الشخصيات وأحياناً وردت بعض الكلمات بين قوسين، ما لم يكن في النص الأصلي. شرح لنا الأستاذ كاتب، أنه يشرح الأصوات وأوصاف المكان بين قوسين وأن هذه الملاحظات مهمة جداً، كي يتمكن المستمعون من فهم أجواء التمثيلية وأمزجة الشخصيات، لأنهم لا يستطيعون رؤيتها. وقال لمحمود أن يكتب رسالة إلى سيد اسمه أحمد ملص على العنوان التالي: الإذاعة السورية، دمشق، قسم التمثيليات الإذاعية.

اليوم ظهراً جلسنا معاً وكتبنا رسالة. كان محمود متوتراً جداً، بحيث ذهب إلى البريد على الفور.

١٢/١

قريباً منا يسكن ميكانيكي سيارات يوناني الأصل. يضحك كثيراً ويسكر أكثر، لكنه يصلح السيارات على أحسن وجه، بحيث لا ينقطع عنه الزبائن. ذهبت إلى ورشته وأريته الورقة التي كتبها المجنون.

نظر إليها بعينيه المنتفختين وضحك. «هذه الجملة فوق باليونانية، وهذه الكلمة تحت. خط جميل». ترجم لي معانيها وكتبتها على الورقة بقلم الرصاص. «اسمع يا ولد. هذا المكتوب هنا طلياني وجانبه اسباني. إذا حليت اللغز، أعلمني أنا أيضاً بما معناه».

١٢/٢

على بعد حارتين يعيش كثير من الشيعة. بعد الكثير من السؤال تعرفت على عطار ذي أصول فارسية. ترجم لي ثلاثة مقاطع، كانت مكتوبة بالفارسية، وقال إنه لا يظن بأن المجنون مجنون فعلاً.

١٢/٣

بائع الخضار يعقوب ترجم لي اليوم الكلمات العبرية في النص وأعلمني أن هناك عجوزاً إسبانياً، هرماً نسبياً، يعيش قرب باب توما ويصنع الكمانات.

١٢/٤

ذهبت عند الاسباني. رجل طاعن في السن، لكنه أنيق جداً. لم يتركني أخرج قبل أن يريني أجمل ما عنده. كمان عتيق. فوجئ عندما قلت له إن كاتب الورقة ليس مدرساً، إنما هو المجنون. ومنه علمت أيضاً أين أجد حلوانياً إيطالياً.

١٢/٥

خسرت الرهان. ماذا أعمل، حظي تعيس. على كل حال. الرهان كان على كأس عصير برتقال. راهنت مع جوزيف على أني سأذهب للاعتراف في الكنيسة وأخرج من دون فرض صلاة كجزاء.

قال جوزيف، حتى المسيح نفسه لن يخرج من عند الخوري يوحنا من دون «أبانا الذي في السموات» أو «فعل الندامة» أو على الأقل ثلاث مرات «السلام عليك يا مريم».

اتفقنا. دخلت. سجدت وقبل أن آخذ نفسي سألني الخوري: «أية خطايا اقترفناها في الفترة الأخيرة يا بني؟».

«اعترفت السبت الماضي ولم أرتكب ذنوباً هذا الأسبوع»، أجبت بصوت ورع.

«غير ممكن يا بني. اجمع أفكارك. تذكر الوصايا العشر. ألم تسب أحدا؟».

«لا»، أجبت مرتاح الضمير، لأننا لا نعتبر الشتائم البسيطة على غرار «تلحس» و«كلب» خطايا. فالكلمة الأولى عرض والثانية مخلوق من مخلوقات الله.

«ما اشتهيت شيئاً لا يخصك؟».

«لا»، قلت بصفاء نفس، لأني لا أحب أحداً غير نادية.

«تذكر يا بني، تذكر. ألم تكذب؟».

«لا، في هذا الأسبوع لا». وتمتمت بشيء وشعرت بضيق الصدر، لأن الرجل لم يحل عني.

«غير ممكن. هذا غرور. صل يا ابني، كي تستعيد الخشوع إلى قلبك. أبانا الذي في السموات مرة، ومرة فعل الندامة ومرتين السلام عليك يا مريم» تابع الخوري حذلقته.

١٢/٦

لم يكن الحلواني حاضراً، لكن زوجته أيضاً تتكلم الإيطالية، لأنها كانت تزور أهل زوجها في إيطاليا كثيراً. ترجمت لي الكلمات الإيطالية الثلاث وقرأت ما ترجمته حتى الآن.

أراد أبي أن يعرف إن تمكنت من الحصول على نتيجة. غريب أن يشغله هذا الأمر. عرفت منه أن عائلتين كرديتين تعيشان في الحارة المجاورة. نظر إلى الورقة وقال: السطر ما قبل الأخير لا يمكن إلا أن يكون آشوريا وعلي الذهاب إلى الكنيسة الآشورية القريبة وأسأل الشماس هناك.

١٢/٧

حصلت على معلومات من العائلات الكردية والشماس. اكتمل النص. المجنون حكيم زمانه. وهذا فحوى قصته.

كان يا ما كان، كان في طير يعيش في بلاط وارف الظلال في الشرق، وفي رقبته طوق ثقيل مرصع بالجواهر. كان الطير يشعر بالأمان والطمأنينة في قصره المرمري. كان يشم روائح الورد ويستمع فرحاً إلى خرير النافورة الصغيرة. وكان إذا جاء ضيوف الأمير، يقول أحدهم: «الله، ما أجمل هذا الطير الأخضر». فيعارضه آخرون ويقولون: «إنه فعلاً طير جميل، لكنه ليس أخضر، إنما بنّي. عليك أن تمعن النظر». كان آخرون يهتفون: «لكن يا سادة يا كرام، كل من له عين ترى، يرى أن الطير أزرق». ومع أن الضيوف لم يتفقوا على لون الطير، لكن الجميع كانوا مسحورين بجمال الطوق.

جاء الخريف وذبلت أوراق الأشجار التي تظلل البلاط وتساقطت وتمكن الطير من رؤية السماء. وفيْ يوم من الأيام لمح سرب طيور يهاجر نحو الجنوب. أراد اللحاق به، لكنه لم يستطع الارتفاع عن الأرض بسبب الطوق الثقيل. يوماً بعد يوم تجمد الطير في البرد المتزايد وشعر بمرارة سجنه. في فجر اليوم السابع حرر نفسه بهزة قوية من الطوق الثقيل، الذي ترك في رقبته جرحاً عميقاً. نزف الطير نزيفاً شديداً لكنه خفق بجناحيه في السماء الرحبة حراً. طار فوق بحار وصحارى، فوق جبال ووديان وشاهد جمال الدنيا. تعلم التحايل على الثعابين والأفاعي والعيش رغم المخاطر. وفي اليوم الحادي والثلاثين، تمكن من اللحاق بسرب الطيور الكبير في الجنوب ودهش بالسعادة التي استقبلته بها الطيور.

شرحت له البومة سبب فرح أقرانه قائلة: «عندما يأتي طير قوس قزح، فإنه يجلب الخير والسعادة لنا جميعاً». هنا فهم الطير سر تعدد ألوانه. عاش طير قوس قزح سنيناً وسنيناً وطار في كل الدنيا. إلا أن الندبة العميقة في رقبته كانت تؤلمه كلما رأى طوقاً.

غداً سأجول على أصدقائي الجدد كما وعدتهم وأريهم ترجمة الحكاية. أعتقد بأن هذه هي الهدية التي أراد المجنون أن يعطيها لي. فالآن أعرف كم من الشعوب تعيش هنا معاً.

١٢/٨

أحب والدي أن يسمع موسيقى بعد العشاء. فتح الراديو، فانطلق منه صوت عالم دين إسلامي، عالياً. بعكس العم سليم، يستمع أبي

إلى كل ما يقال عن الدين. لم أصغ إلى المذياع جيداً، إلا أن أبي بدأ يلعن الشيخ فجأة، لأنه ادعى أن ليس للمسيحين دين حقيقي فهم كفار ويتوهمون أنهم يتبعون ابناً لله: «يحكي وكأن المسيحيين في هذه الدولة صم بكم لا يفهمون العربية. لعنة الله على الشيطان. هذا ليس شيخاً، بل غبي سلطوه علينا».

١٢/٩

يا لخيبتي! تشوقت لرؤية المجنون وفرحت كثيراً عندما رأيته اليوم برفقة عصفوره. ركضت إلى البيت وحملت له حلوياتي: برتقالة و«عروسة» معقود مشمش. كان يغني لعصفوره:

«طر يا عصفوري طر

غداً يأتي البرابرة

طر عالياً فوق السحاب

هناك بنيت لك عشاً

طر وخذ أحزاني معك

فرحتي تخيف البرابرة».

كلمته بصدد حكايته، لكن بدا عليه وكأنه لا يفهمني واكتفى بأن يكرر: «طر يا عصفوري طر».

ملاحظة: حصل محمود على دعوة من المحرر. ظننت أنه يمزح، لكن الرسالة كانت فعلاً بتوقيع أحمد ملص. ما زلت أنتظر جواباً من دار النشر.

١٢/١١

اليوم ذهب محمود إلى الإذاعة. تفاجأ المحرر بصغر سنه. سأله إن كان والده كاتباً، فرد محمود، بأن والده لا يعرف الكتابة حتى، كما أنه لا يحتاجها في بيع البطاطا. ضحك المحرر وأمر بإحضار الشاي لمحمود وقال إن عليه أن يشتغل على التمثيلية كثيراً وإذا انتهى سيعلم محمود.

ضحك العم سليم من تمثيلية محمود حتى تقاطرت الدموع من عينيه. وسرد علينا حكاية: كان عليه مرة أن يدخل امتحاناً للحوذية، ليُختبر إن كان يعرف إشارات المرور الجديدة، فقال للممتحن الأفضل أن يسأل حصانه، فهو غالباً ما ينام أثناء القيادة فالأحصنة تجد طريقها لوحدها. ضحك الممتحن كثيراً وأعطاه علامة جيدة.

١٢/١٢

اليوم قضيت يوماً ممتعاً مع أمي. لعبت دور صحافي وهي دور المثقفة. من الممتع الاستماع إلى أمي وهي تتحدث العربية الفصحى، فهي لا تصرف الأفعال وتتكلم بصيغة الجمع وكأنها ملكة.

سألتها في المطبخ: «سيدة حنة، ما الذي تحتاجه سوريا برأيكم؟».

تنحنحت أمي بتكلف واقتربت من الميكروفون الوهمي الذي أمسكه بيدي: «إذا فكرنا بعمق، نجد أن سوريا تحتاج إلى الحلوى والزبل». لم أتماسك وضحكت. أمي تمثل دور جلالة الملكة المنتفشة والمهانة:

«أين الخدم والحشم ليطردوا هذا الصحافي المقمل من قصري؟ نحن لا نحب الصحافيين. الصحافيون لا يسمحون لهمون بالضحكون».

ضحكت كثيراً على كلمة «قصري»، لأننا كنا في مطبخنا المعدم. حقاً إن أمي صورة عن الآلهة عندما ترفع أنفها عالياً وتنظر من تحت حاجبين مقطبين إلى الصحافي المسكين بعجرفة. على عكس أبي يمكن المرح مع أمي دائماً.

سألتني نادية عن الناشر، فقلت لها ألا تفقد صبرها بسرعة. في النتيجة لهكذا رجل مشاغل كثيرة.

آه، متى سيرد عليّ؟

١٢/١٣

ألصق نبيل ذيلاً ورقياً على ظهر أستاذ اللغة الإنكليزية. كان الذيل مضحكاً وهو معلق بالأستاذ الأنيق دائماً.

اليوم فشل أبي في خبز كمية جديدة من الكعك وعلينا منذ اليوم أن نبتلع كميات هائلة من الكعك المحترق والبابس طوال أسابيع. فهو لن يتمكن من بيعه حتى إلى أفقر الفقراء.

لم يتوقف المطر منذ أيام. لم أحصل بعد على جواب من الناشر.

١٢/١٤

ذهب أهل نادية مع شقيقها إلى حفلة. تسللت إلى بيتهم وأرتني

مكان نومها. استلقيت بجانبها في الفراش الصغير. كانت قريبة جداً مني وتمكنت من شم رائحة شعرها الجميل. هي تعرف أن الياسمين نبتتي المفضلة.

١٢/١٥

سأطير من الفرح. اليوم رد علي الناشر. كتب لي رسالة لطيفة ليخبرني أنه وجد قصائدي جيدة. مستحيل! ينوي طباعة خمس من قصائدي في ديوان للشعراء الشباب. أكد لي أن أشعاري الأخرى أيضاً ليست سيئة. علي أن أرسل صورة لي وسمح لي بأن أزوره في مكتبه إذا أحببت.

أيتها العذراء المقدسة، سأشعل لك شمعتين غداً في الكنيسة.

صعق أبي. وحضنني للمرة الأولى منذ عدة شهور. كان فخوراً جداً بي. ظهرت في عينيه دموع حقيقية وقال إنه في هكذا لحظات يتأكد أن عمره لم يذهب سدى. قال، علي أن أشتري بنطالاً جديداً وأتحمم قبل زيارة الناشر. بل وأعطى أمي النقود، فاضطربت أفكارها. كانت تظن بأن الشعراء يموتون من الجوع وها هو شاعرها الصغير ينعم ببنطال. ثم بدأت بالنحيب وتمنت لو عاش المرحوم أبوها هذا اليوم، لكان شديد السعادة والفخر بحفيده.

اكفهر وجه والدي وأمرها بالكف عن الحديث عن الأموات فمن خفة العقل التفكير بالأموات في مثل هذا اليوم. وقال: «نريد الآن أن نفرح»، وقفز ذاهباً إلى المطبخ ليعود بعد فترة وقد حضَّر قهوة لي

ولأمي. قالت أمي باكية: «هكذا هو أبوك. إلى هذه الدرجة يحبك أبوك»، وكأنها تعني أنه في الأحوال العادية لا يجلب حتى كأس ماء لها. مسحت الدموع عن وجنتيها بكمها، ثم تمالكت نفسها وذهبت لتغسل وجهها وجلسنا نرتشف القهوة معاً.

علي أن آخذ صورة جديدة لدى المصور باسل. الفضل كل الفضل يعود على هذا الإنسان العظيم، الأستاذ كاتب.

١٢/١٧

لم يسبق أن هطل المطر كما في الأيام السابقة. كأن السماء تريد أن تجيب أدعية الفلاحين وصلواتهم دفعة واحدة. ما هو نعمة للفلاحين، نقمة على دمشق. يجرف المطر الطين عن السطوح والجدران ويغرق الشوارع بالوحل.

سُدَّت مجاري شارعنا، وعندما نزلت الحرارة في الليلة الفائتة إلى ما تحت الصفر، تفجَّر الكثير من مواسير المياة.

محمود ونادية فخوران بأن قصائدي ستظهر في كتاب.

١٢/١٨

لحقت بأمي نكسة فاجعة. تضغط عليّ منذ أسابيع لأغني في جوقة (كورس) الكنيسة وها أنا ذهبت اليوم إلى الكنيسة لأرضي خاطرها. مكافأة على هذا أعطتني برتقالتين، هذا أزعج أختي. هي الأخرى تريد الالتحاق بجوقة، إذا كانت ستنال برتقالتين.

التقينا اليوم في الساعة الثانية في حديقة الكنيسة. اصطحبنا الخوري جرجس، مدير الجوقة. أراد في البداية أن يختبرنا نحن المستجدين، ليختبر التغيرات التي طرأت على أصواتنا مع سن البلوغ.

كان علينا الاصطفاف بحسب الطول، فوقفت في الصف الأخير لأن طولي يبلغ ١٦٥ سم. كان واجبنا أن نرتل وراءه عدة أناشيد كيريالايسون، إلا أنه كان يتطلع في الجوقة متحيراً.

قال: «أحدكم يجعر». وعلى الفور أخرج جورج السمين، الذي يقف في الصف الأول، همس في أذنه شيئاً وانسحب السمين مطأطأ الرأس إلى الباب. والآن كان علينا أن نعاود الترتيل، لكن الخوري ظل غير راض.

«من منكم يجعر بعد؟» سأل مستنكراً. تطلعنا في بعضنا البعض ورفعنا أكتافنا متسائلين. فقسمنا إلى ثلاث مجموعات صغيرة. لسوء الحظ كنت ضمن المجموعة التي يصدر عنها الصوت النشاز. حاولت الترتيل بأكبر قدر ممكن من الرقة والصوت الخفيض.

أومأ الخوري جرجس برأسه إيماءة ذات معنى عميق، اتجه نحوي، ربت على كتفي وقال: «لا أقصد سوءًا يا بني، لكن صوتك عميق جداً». طيب، المنحوس منحوس.

عندما خرجت كان جورج لا يزال منتظراً وضحك في وجهي ضحكته الكريهة. «كلام فارغ، كنت أنشد طوال الوقت عمداً خطأ لأتخلص من الجوقة»، قال وصدع رأسي بنقّه طوال الطريق إلى البيت.

لدى وصولي إلى البيت استغربت كثرة الجارات المجتمعات عند أمي لشرب القهوة. المسكينة تسرعت في أحكامها وأخبرت الجارات

أن الخوري رجاني أنا شخصياً أن أنضم إلى الجوقة. عندما رأتني في الباب مبكراً في العودة، نظرت إليَّ شاردة. قلت لها إن الخوري طردني، فاجتاحتها موجة من الغضب العارم على الخوري. حاولت النساء الأخريات أن يهدئن من روعها منافقات، لكنها لم تعد تسمع شيئاً وواصلت لعناتها: «وما الذي يفهمه هذا الغراب العجوز من الموسيقى والصوت الحنون؟».

١٢/٢٣

ترق السطوح الطينية تحت المطر المتواصل ويتسرّب الماء عبر السقف وينزل إلى المسكن قطرات قطرات. ومن سقفنا يدلف الماء من أكثر من موضع. الوضع في غرفة أهلي ليس بهذا السوء، لكن في غرفة الجلوس، حيث ننام أنا وليلى، فإنه يثير الأعصاب.

أبي مثله مثل جميع الرجال يخاف الطلوع على السطح الزلق ليسد الثقوب، فلا يبقى بيد أمي إلا أن تضع طناجر وسطولاً في كل أنحاء الغرفة.

كيف يمكنني النوم بعد وأنا أرقد في مغارة مثل مغارة جعيتا اللبنانية بصواعدها ونوازلها وصوت الماء ينقط في الأوعية. نق، نق، نق سأجن.

ملاحظة: كاد محمود يختنق من الضحك عندما حكيت له عن الجوقة ويصر على أن أكرر الحكاية على أسماعه.

١٢/٢٥

عيد الميلاد. اليوم تناولنا وجبة طعام شهية. تجاوزت أمي حدود مهاراتها في الطبخ ودبر أبي قنينة نبيذ أحمر، أفرغناها معاً. حتى ليلى حصلت على كأس صغيرة.

١/٧

مرض بعض زملائي في المدرسة. وكيف لا يمرضون في هذا الجو التعس. كما أن ليلى والعم سليم أصيبا بالرشح.

بل أصابت ليلى اليوم نوبة حمى حقيقية. قامت في الفراش وبدأت بالغناء. رفعت ذراعها اليمنى وتمايلت ذات اليمين وذات الشمال وكأنها تريد الرقص. ضحكتُ فهال أمي ما فعلت وطردتني من الغرفة.

«يمكن الواحد يجن عند الحمى العالية وأنت الأبله تضحك!»، صرخت غاضبة بعد أن هدأت ليلى ونامت.

ملاحظة: ذهبت إلى دار النشر، لكنه كان مغلقاً. في ١/١٠ سيعود الناشر.

١/١٠

اليوم ذهبت إلى دار النشر. يا إلهي كم ارتجفت وبالكاد خرج مني صوت عندما وقفت أمام الناشر وجهاً لوجه. لكن كل خوفي

وقلقي كانا من دون داع. إنه رجل قصير له صلعة وأصابعه ثخينة جداً. يدخن مثل المدخنة، فيضطر للسعال طوال الوقت. كان لطيفاً معي بشكل لا يتصور. انقشع خوفي من أن يعتبرني صغيراً جداً مع أولى الكلمات، فقد تصرف معي كما يتصرف مع البالغين. حدثني عن مشاكله وعن الكتب العظيمة التي عملها والتي يريد عملها. فوجئت بأنه لا يملك مطبعة. أهداني مجموعة شعرية جميلة، ثم تحدث معي عن قصائدي، التي سيطبعها في الصيف. تلاها أمامي بصوت عال وقال إن أفضلها هي قصيدة الشجرة الطائرة وإنه سيبدأ الكتاب بها. تمنيت لو أعانقه لفرحي بما يقول.

قطعت المسافة إلى البيت سيراً على الأقدام. كنت أريد أن أكون وحيداً. تمليت الأشجار العالية. كان الجو مشمساً وقارساً وتخيلت نفسي يداً بيد مع نادية ألقي أشعاراً أمام جمهور كبير.

١/١٢

يوماً بعد يوم يجعجع الراديو عن الحرب أكثر فأكثر. أبي يكره الحرب. يقول ليس لأي إنسان الحق بإنهاء حياة إنسان آخر. أحلامي في الفترة الأخيرة مزعجة وعلاوة عليه فإن خوفي يتضاعف.

١/١٣

اليوم عم الهرج والمرج درس الديانة.

سأل جوزيف الخوري: «لماذا يظهر المسيح في جميع الصور أشقر وبعينين زرقاوين؟».

ثرثر الخوري كلاماً فارغاً مبرراً هذا بأن المسيح يشع بالسلام. لكنه لم يقنع جوزيف الوقح: «هل ولد المسيح في فلسطين أم لا؟ للفلسطينيين واليهود عيون سود وشعر أسود ومع هذا يبدون مسالمين وحربيين كالشقر وذوي العيون الزرق».

تورط الخوري في ثرثرته أكثر فأكثر. لكن جوزيف طرح كل أسئلته ليصل إلى سؤاله الرئيسي: «ولماذا لم نر حتى الآن فلسطينياً في مركز البابا؟ ها؟ أو أفريقيا؟».

أخرج السؤال الخوري عن طوره وأمر جوزيف عقاباً له بكتابة «فعل الندامة» عشر مرات.

في الفرصة أخبرت جوزيف بحلمي أن أكون صحافياً. ضحك علي. «الصحافي يعيش من الأسئلة، لكنك في هذا البلد تحصل على «فعل الندامة» جزاء على أسئلتك. أنا أريد أن أصير ضابطاً. الضابط لا يَسأل أبداً. إنه يأمر وينفذ الأوامر».

ربما كان علي أن أخبره بحلمي في يوم آخر.

ملاحظة: استعادت أختي ليلى صحتها وعادت إلى شيطنتها كما كانت.

١/١٥

سعدت جداً بشفاء العم سليم أيضاً. كان الجو دافئاً نسبياً، فخرج من غرفته واستمتع بالشمس في الخارج صامتاً، ملفوفاً بلحاف، وجلس ساكناً وابتسم لي عندما طردت جميع الأطفال من الحوش، كي ينال راحته.

١/١٦

لم نعرف أنضحك أم نبكي. عندما عدنا من المدرسة كان العم سليم ينتظرنا أمام باب الدار. لم يكن صوته ينم عن الفرح، عندما أخبر محمود أن تمثيليته أذيعت اليوم الساعة ١١ قبل الظهر. على الفور سأل محمود، هل قالوا إنه المؤلف؟ تلعثم العم سليم مدعياً أنه ربما يكون فاته سماع إسم المؤلف، لكنه بهذا لم يقدر على إقناع محمود. ثم اعترف بأنه يظن بأن المذيع ذكر اسم «أحمد ملص» كمؤلف للتمثيلية. لا أفهم هذا. لا بد أنه التباس. سنرى. غداً ستعاد إذاعة التمثيلية. ربما لم يصخ العم سليم السمع.

١/١٧

فعلاً حقارة. بكى محمود. المحرر الوقح يدعي أنه المؤلف ولا يذكر اسم محمود بكلمة. أكيد سمع الأستاذ كاتب الراديو اليوم. لقد أخبرناه بموعد إذاعة التمثيلية. مستحيل. ماذا لو سرق الناشر قصائدي وادعى أنها لابنه؟

١/١٨

الأستاذ كاتب مذهول. كتب رسالة غاضبة إلى المحرر وأعلمه أن أكثر من خمسين تلميذاً شاهداً على السرقة الوضيعة. طلب تصحيح الخطأ واعتذاراً كتابياً لمحمود. ألقى محمود الرسالة في البريد، لكنه كان يشك في أن يكون لها أثر. إلا أن الاستاذ كاتب هدأ من روعي

قائلاً إنه يعرف الناشر وإن هذا لن يقوم بهكذا أعمال وضيعة. فكل ما كان يعرفه عن المحرر الإذاعي، هو أنه يشجع الكتاب الشباب على إرسال تمثيلياتهم إليهم.

١/٢٠

حقاً إني استمتع بالكتابة في دفتر مذكراتي. اليوم ذهب أهلي لزيارة أحد الأقرباء المرضى وأخذوا ليلى معهم. حضَّرت لنفسي الشاي وجلست على الشباك.

لمحت نادية على باب بيتهم فلوحت لي وأنا أرسلت لها «قبلة على الهواء». (هذا اختراعي أجبرتني عليه بعد المسافة. أقبل نادية وكأنها معي، ثم أقطف القبلة من الهواء كزهرة الياسمين. كل هذا أقوم به في منتهى البطء. ثم أضع القبلة على راحتي وكأنها ريشة عصفور وأنفخها باتجاه الحبيبة. وهي تلتقطها بعد ثانية وتضعها حيث تريد. أحياناً على الخد، على الشفتين أو حتى تحت القميص).

الآن، وبعد هذه القبلة التي وضعتها نادية على شفتيها، أكتب وأتصفح دفتري. لقد كتبت الكثير حتى الآن وهذا ما يدفعني إلى متابعة الكتابة، فبدون ذلك لما عرفت في حياتي، أين حدث ماحدث ولا من قال ما قيل ولمن وبأي مناسبة.

١/٢٢

قررنا البارحة معاقبة المحرر الإذاعي. خطر في بال جوزيف أن

تكون العقوبة باسم عصابة «اليد السوداء». فقلت: «العصابة انحلت» فأجاب جوزيف بصوت رخيم كأنه جد عجوز: «العدالة تتطلب الأمر يا صغيري». ضحكنا وقررنا القيام بثلاثة أشياء.

في الليل سيكتب جوزيف على الحائط المقابل للإذاعة باللون الأحمر «محررو الإذاعة فارغو الرأس! تبرعوا لهم بأفكاركم. اليد السوداء». أنا ومحمود سنحرس جوزيف. بعد عدة أيام سنؤدب المحرر، بينما جوزيف يراقب المكان.

١/٢٤

اليوم صباحاً استطلعنا نتائج شعاراتنا على الحائط. استحسن بعض المارة الكتابة. قال أحدهم لزوجته: «واضح. لقد لاحظت هذا من زمان ولهذا ما عدت أفتح الراديو». صاح شخص صاحب نكتة: «إذا كان الأمر كذلك، فليذهبوا إلى الشارع ويشحذوا قرب الجامع ويجمعوا كم فكرة طازجة». ضحك الناس. لكن الأمر لم يدم طويلاً حتى خرج موظف في الإذاعة حاملاً سطل دهان وطمس الكتابة بطبقة سميكة من الدهان على عجل. غمر محمود شعور عال بالفرح وسخر من الموظف.

١/٢٥

كان واجبي مراقبة المحرر وواجب محمود «العناية» بسيارته. تسللنا إلى كراج الإذاعة وانتظرنا المحرر حتى وصل أخيراً. إنه رجل

قصير ويتقافز أثناء المشي بعصبية. ثقب محمود إطارات سيارته الأربعة بسكين حاد وألصق على زجاجها الأمامي ورقة جاء فيها: «أجمل التحيات من اليد السوداء». أنا شددت «النقيفة» على آخر مدى وقذفته بكيس صغير من النايلون المليء بالحبر الأحمر. أصاب الكيس ظهره بقوة وانفجر ملوثاً معطفه الأنيق، كاد يموت من الخوف وبدأ يصرخ كالمسعور: «انجرحت! دم! انجرحت». أطلقنا سيقاننا للريح.

ملاحظة: إدعى جوزيف أن وقته الضيق يمنعه من مشاركتنا بالعملية. قال عندما استفسر محمود عن هذا الضيق المفاجئ بالوقت إن عليه كتابة وظائفه بعناية. غريب، عادة يتهرب جوزيف من كتابة الوظائف حتى من دون دقة!

١/٢٧

في هذه الفترة أكتب الكثير من القصائد، خاصة عن نادية التي أحبها.

الثلاثاء: العماء يصيب هذا الزمن! منذ البارحة أعمل في المخبز اليوم بطوله. في هذا الشتاء رجع معظم الفلاحين إلى قراهم، أو هاجروا إلى دول الخليج أو اختفوا حيث لا يعلم إلا الله. لم يستطع أبي العثور على أجراء. لم أكتب مذاكرة الرياضيات. صحيح أن أستاذ الرياضيات إنسان جيد، لكنه شديد القسوة. وأبلغني عن طريق محمود أنه سيرسل لي إنذاراً إذا لم أكتب المذاكرة خلال أسبوعين كأقصى حد. كما سأل عني أستاذ العربي، كما قال لي محمود.

لأنها من حقي، كما قال.

٢/٧

اليوم السابع في المخبز. اليوم كان عليّ إيصال كمية كبيرة من الخبز إلى المطعم المجاور لمدرستنا في استراحة الظهيرة. كان الطلاب بدأوا بالخروج من المدرسة. تجمع أتفه طلاب صفي حول عربة الخبز وراحوا يهزأون بي. ردد ابن صائغ الذهب: «ابن الخباز، لباسه طزاز»، ضحك الآخرون ضحكة قذرة. تمنيت من كل قلبي أن أصفعهم الواحد تلو الآخر. ثم بدأوا فوق هذا بمد أيديهم إلى الخبز، راغبين في نتف أو قضم أجزاء منه. هرول محمود لنجدتي وتمكنا معاً من طردهم شر طردة. يا إلهي، ما الذي كان صاحب المطعم سيقوله لو وصله الخبز بحالة مهترئة. كانت القيامة ستقوم فوق رأسي مرتين في المطعم وعند العودة بالخبز إلى والدي. هؤلاء التلاميذ الأغبياء لم يفهموا أو لم يريدوا أن يفهموا هذا حتى أفهمناهم ذلك باللكمات. عاركنا أنا ومحمود ولدي طبيب الأسنان طويلي اللسان. لكننا أريناهم ما نخفيه في داخلنا من قوة فانسحبوا بآذان وآناف حمرٍ، جارين ذيول الخيبة.

الأنكى أن أبي بدوره شتمني، لأنني رجعت إلى المخبز متأخراً وفوق كل هذا وسخاً. لكنني لم أحك له شيئاً عن الشجار. كل ما آمله أن يجد عن قريب عاملاً.

الاثنين: مذاكرة العلوم أيضاً فاتت علي. اللعنة. وصلتني إنذارات

مادتي التاريخ والرياضيات. امتنع أبي عن الرد على رسالة مدير المدرسة وقال يمكن للمدير أن ينتظر عدة أيام، فلن يدوم الأمر طويلاً حتى أعود إلى المدرسة. يعطيني كل يوم ثلاث ليرات، لكنني لا أريد ليراته التافهة، كل ما أريده هو العودة إلى المدرسة.

تقول نادية إني أصبحت عدوانياً جداً في الفترة الأخيرة. ما الذي تفهمه هذه الفتاة الرقيقة من الحياة؟ قلت لها، لتعمل يوماً واحداً في المخبز فستفهم حالتي.

٢/١٤

لن أتحمل أكثر. الآن انكشفت لي الحقيقة. كيف له أن يكون لئيماً إلى هذا الحد؟ لا يريد أبي أن أتابع الدراسة. يا له من غشاش. كان يضحك علي طوال الوقت.

اليوم زار الأستاذ كاتب والدي في فرنه وحاول أن يشرح له الخطأ الفادح الذي يرتكبه بإخراجي من المدرسة. لكن أبي تصرف بلؤم وكأن الأستاذ هواء. إلا أن الأستاذ كاتب كان عنيداً ولم يستسلم بسهولة. كان ينتظر بأدب حتى يخرج الزبائن ليلح عليه من جديد. صرخ أبي في وجهه بأن أمري لا يعنيه على الإطلاق، فأنا بالنتيجة ابنه ويحق له أن يفعل بي ما يشاء. خجلت منه وتمنيت لو تنشقُّ الأرض وتبتلعني.

احتفظ الأستاذ كاتب بهدوئه وتابع حديثه. علا صوت أبي أكثر فأكثر، فهو لا يخاف الموظفين والأساتذة. ادعى أن المدرسة لم تعد

تهمني وسألني غاضباً وصائحاً إن لم يكن ما قاله صحيحاً. لم أنبس ببنت شفة من شدة الفزع وبدأت بالبكاء. وعندما تطرق الأستاذ كاتب إلى واجبات الأهل تجاه أبنائهم، ثارت ثائرة أبي. شتم الأستاذ والمدرسة قائلاً إنه يعرف أن التعليم إلزامي حتى الصف الخامس فقط وعلى المعلم ألا يستغبيه لأنه مجرد خباز بسيط. حاول الأستاذ كاتب أن يشرح لوالدي أنه لا يعني ما ينص القانون عليه فقط بل واجباً آخر، إلا أن والدي أرغى وأزبد ودفع الأستاذ بعنف خارج مخبزه. لم يقم الإستاذ بل ذهب وهو مطرق الرأس حزيناً. أما والدي فقد التذ أيما لذة بنصره على الأستاذ ولم يكف عن التفاخر به أمام عماله طوال اليوم.

لم أعد أكلمه. كأني مشلول. حاول الوالد أن يشرح بشكل ما وضعه العسير ورغبته هو أيضاً في إكمال دراسته عندما كان صغيراً، إلا أنه أُجبر يومذاك على العمل في المخبز. قال إنه يتفهم مرارتي وغضبي، لكن قريباً سيكون معي من المال أكثر من جميع الأولاد وأضاف أنه سيزيد يوميتي إلى أربع ليرات، أي سأنال أكثر من ألف ليرة في السنة. ولما انتهى من مواله المشروخ الطويل، سألته لماذا يتحتم علينا أن نظل خبازين. نظر إليَّ مذهولاً وقال إن هذا قدرنا.

لكنه ليس قدري أنا. أنا لا أريد أن أكون خبازاً. أريد أن أتابع الدراسة وأصير صحافيا.

حاولت أمي أن تهدأني قائلة إن الأوضاع ستتحسن عن قريب وعلي ألا أضيق بكلام أبي، لأن هذه الفترة من حياته صعبة. لن أكلمه بعد الآن.

٢/١٢

نادية تغيرت. صارت تصرفاتها غريبة. وجوزيف الوسخ، الذي يدعي أنه صديقي، يغازلها من بعيد لبعيد. أعتقد بأنهما يسخران مني. يقول محمود يجب على الحبيبة ألا تخجل من حبيبها، حتى لو كان خبازاً. وبرهن على كلامه بحكاية أمه، التي حرمت من الميراث لأنها أحبت أباه. فهي من عائلة غنية جداً ورفضت الزواج بابن عمها. هربت مع أبيه وتعيش معه في الفقر المدقع لأنها تحبه. يقول الأفضل لي أن أنسى نادية.

لكن كيف أنساها، فأنا أحبها.

٢/١٧

رويت لمحمود ما جرى بيني وبين أبي. ضحك وقال إن جميع الآباء على الشاكلة ذاتها. إنه يحلم بيوم يتحول فيه الآباء أبناء لأبنائهم ولو لعدة ساعات فقط، ويرى دهشتهم. ومحمود يظن أن معظم الآباء سيفقد عقله عندما يسمع ما يدور في رؤوس أبنائه. محمود هذا عظيم، لأنه يضحك على كل شيء، على نفسه، على أبيه وعلى المدرسين، مع أنه في وضع لا يحسد عليه بتاتاً.

٢/١٩

اليوم ائتمنت العم سليم على سري. فعلاً ما عدت أطيق. سأهرب من البيت. سألني العم سليم إن كنت فكرت في الموضوع

مليا، فقلت إني وفرت حوالى مائتي ليرة وعلي الخلاص من البيت. نظر إليَّ حزيناً وقال إنه سيتكلم مع أبي مرة أخرى في الموضوع، فربما غير رأيه. لا أرغب في أن أشيخ في المخبز وأقول لابني في يوم من الأيام: عليك أن تكون كما كنت أنا.

٢٦/ ٢ الساعة ١١ ليلاً

لا أمي ولا العم سليم نجحا في إقناع أبي بمتابعتي للدراسة. أتشاجر معه كل يوم واليوم هددته بالهروب من البيت إذا لم أعد إلى المدرسة. ضحك وسألني إلى أين؟ لا يهمني أين أذهب، المهم أن أتخلص من المخبز.

بكت أمي طويلاً وشحب وجه نادية عندما بحت لها بالسر وقالت إنها تشعر بالمرض، لكني رغم هذا سأهرب. اليوم ليلاً، عندما ينام الجميع، سأضع ثيابي ودفتر أشعاري وصورة نادية ودفتر مذكراتي في صرة وأهرب. يجب علي الخلاص من هذا الوضع وإلا مت.

سأسافر إلى حلب، بعيداً عن يد أبي ودموع أمي. لا أريد أن أبكي طوال عمري، أريد أن أضحك وأحيا كما أشاء. هناك، في حلب، أكبر مدن الشمال، سأجد غرفة ما بعشرين ليرة في الشهر، سأبحث عن جريدة حال وصولي. سأمسح الأرض، أغلي الشاي للصحافيين، أوصل رسائلهم إلى البريد، وكل ما أريده هو أن يعلموني كيف أصير صحافياً. وإذا لم أكسب رزقي بهذا العمل، فسأعمل طوال النهار وأكتب في المساء كل ما أسمعه من الناس.

سأكف الآن عن الكتابة. هذه هي آخر السطور من دمشق. لن يستطيع أي شيء إيقافي.

٢/٢٧

البارحة ليلاً تسللت على الدرج ناوياً الهرب، فوجدت العم سليم جالساً في الظلمة على أسفل درجة. كم ارتعبت.

حضنني وهمس لي: «هل تريد الذهاب من دون أن تودع صديقك؟» فبدأت بالبكاء.

«اتركني، أريد أن أذهب»، رجوته لكنه أصر على أن أشرب معه كأس شاي قبل الرحيل، وقال بوسعي الذهاب بعدها إلى آخر الدنيا لو أردت. وافقت ودخلنا مطبخه الصغير.

حضّر الشاي صامتا ثم حمله إلى غرفته الواسعة فتبعته صامتاً. أعطاني كأس شاي وقال لي: «ستصير صحافياً جيداً. نعم وستكتب، بحسب خبرتي فيك، وبالتأكيد ستكتب عني وعن حكاياتي المجنونة. قلبي يقول لي إنك ستعملها».

«لكن المخبز يهد حيلي!» قاطعته.

«معك حق. المخبز يهد الحيل. سابقاً كنت أحسد الخبازين، لكنني منذ تعرفت عليك أشفق عليهم». طأطأ رأسه وصمت برهة ثم تابع الحديث: «لكن، بماذا تختلف حلب عن دمشق؟ هل تستطيع أن تقول لي؟ ليس لأني أحب الشام، لا، الحوذية مثل الشحاذين، لا وطن لهم. لا، أنا لا أتحيز للشام، لكن بماذا تختلف حلب عنها؟ إذا

كنت تريد الهرب من البيت، فهاجر إلى السعودية. هناك تستطيع كسب الآلاف، لكن حلب؟! في حلب ستصادف المزبلة الشامية نفسها».

«لكن عمري لم يتجاوز الخامسة عشرة ولن يتركوني أغادر البلد».

«معك حق. حكومة غبية». صب لي كأساً أخرى ومسَّد شعري. «وهل فكرت أن تعوض علي بصديق جيد مثلك قبل أن تهرب؟ ها؟ عندي ولدان وثلاثة عشر حفيداً ولا أحبهم مثلما أحبك وماذا تفعل أنت!» تروح وتتركني وحيداً! أنا أكره المخابز».

«لن أنساك أبداً وسأكتب لك» وعدته وأخذت بالبكاء من جديد، لأني شعرت في تلك اللحظة بحزني وتعاسة صديقي.

«تكتب لي! أنا لا أستطيع القراءة. سيكون علي أن أتوسل الجيران ليقرأوا لي الرسائل ولن يكون من حقي أن أطالبهم بالكتابة إليك، لأن ما سيكتبونه لن يكون نفس ما أريد قوله لك مباشرة».

«لكني هنا سأختنق».

«تختنق متى استسلمت. سليم لم يستسلم أبداً. عندما كدت أموت جوعاً وأتجمد لقراسة البرد في الجبال حيث اختبئت. وعشت لفترة عيشة الكلاب، لأنني لم أرد وقتها الالتحاق بالجيش، فكرت أيضاً بإنهاء المذلة في ذلك الشتاء وأداء الخدمة العسكرية كبقية أصدقائي وأقربائي، لكنني تحمّلت وفكرت بطريقة أدبر بها رأسي. في الربيع مر راع في تلك المنطقة. أعطاني أكلاً وعرض علي العمل معه. أمن لي أوراقاً مزورة وهكذا صار اسمي مصطفى لمدة خمس

سنوات. وما كانت حياتي بين الرعيان سيئة. ندم كثير من رفاقي الذين ضحكوا علي في البداية، لأن حرب السفر برلك التي بدأت عام ١٩١٤ هدمت حياتهم. انجرح الكثير منهم، اختفوا أو ماتوا موتة تعيسة. وعلى العكس من ذلك لم يعاني الرعيان جوعاً أو عطشاً. الأحسن لك هو أن تفكر كيف تتخلص من المخبز من دون أن تهرب. أنت لست بالغبي وتعرف الشام جيداً. فكر لك فكرة ويمكن أن نخطط معاً. سليم يعرف كيف يخطط وأنا واثق يا صديقي، أنك ستصبح صحافياً».

صمتُ طويلاً وكان العم سليم يعاود الكلام. لم أصدق أن فكرته ستنجح لكنه شجعني بالقول: «جرب لمدة نصف سنة. اليوم هو ٢٦ شباط. سنجلس معاً بعد نصف سنة وإذا كانت أوضاعك بعدها لم تتحسن، وقتها سأحمل لك حقيبتك إلى الباص، لتهرب إلى حيث تريد. هل أطلب منك الكثير؟ نصف سنة».

طيب سأحاول أن أجد حلاً. بوسعي الهرب بعد نصف عام. سألني العم سليم: «هل تعدني بهذا؟». «أعدك» قلت له وتسللت إلى فراشي.

٣/١

توسلت إلى نادية: «اكتبي لي، ما الذي جرى» عندما مرت بمحاذاة دارنا لتأخذ الحليب.

«لماذا؟ حتى تتباهى بما أقول؟» قالت بكل برود. ما عدت أفهم الدنيا. هل جنت؟

٣/٤

يحز في قلبي أن أرى التلاميذ في الصباح يذهبون إلى المدرسة ممشطي الشعر. أحياناً يلاحظ والدي هذا وآنئذ يمسد على شعري ويرق لي طويلاً. بل إنه بكى مرة وقال: «أنت أذكى من كل هؤلاء الطلاب. أعرف أي ابن أنجبته للدنيا». مرة أخرى قال: «يولد الناس كلهم عراة، لكن بعد النفس الثالث يختلفون».

حقاً، إني أشفق عليه أحياناً. لا أظن أن أبي صار خبازاً بمحض إرادته.

٣/٦

اليوم علمت أن العم سليم لم ينم على الدرج تلك الليلة وحدها، بل حرسه طوال أسبوع. كان يحس أني سأهرب فعلاً. إنه صديق عظيم.

٣/٨

اليوم أقنعت الوالد بأن أفضل ما أفعله له هو إيصال الخبز إلى بيوت الزبائن. هكذا لن أكون مضطراً للعمل تحت غبار الطحين والحرارة وسأتمكن من كسب المزيد من الزبائن لمخبزه. لم يقتنع أبي بالفكرة، لكن وبعد أسبوع من الصياح والشجار آثر السلامة ووافق على اقتراحي. هؤلاء زبائن أغنياء يصلهم الخبز الطازج إلى بيوتهم. يدفعون عدة قروش زيادة. العمل صعب. علي أن أحمل سلة فيها من

عشرة لخمسة عشر كيلو خبزاً وأصعد وأنزل سلالم. بعضهم يسكن الطابق الرابع. عندي قائمة بزبائن يشترون معاً ستين كيلو يومياً، أوصل الخبز لهم في أربع دورات أبدأها في الصباح الباكر وأنهيها عند الظهر. بعض الزبائن حقير، آخرون لطفاء ويعطونني أحياناً قرشاً أو تفاحة. لكن ما يضايقني هو أني أوصل الخبز إلى بيوت بعض زملائي السابقين في الصف وهم يسخرون مني. لكن العم سليم يقول إنني قمت بخطوة كبيرة نحو الأمام والمسألة كلها مسألة وقت، حتى يستطيع أبي الاستغناء عن خدماتي. وبهذه الخطوة قضيت على كل محاولات تعليمي العمل على العجانة أو أمام التنور. لا أعرف، ربما يكون العم متفائلاً أكثر من اللزوم.

٣/٩

عندما همست لنادية كلمات العشق والغرام، قالت بغضب: «اتركني بحالي أنت وحبك» وتجاوزتني لتدخل بيتها. عجيب. ماذا الذي تظنه بي؟

٣/٢٠

كسبت الكثير من الزبائن الجدد. أوصل حتى الظهر حوالى مائة وعشرين كيلو خبز إلى الزبائن. والدي مبسوط جداً، فمخبزه لم يبع طوال عمره هذه الكمية. أنا لا أجد سعادة في العمل، لكن وقتي ملكي. أقرأ كثيراً وأكتب الأشعار.

اليوم كتبت أولى مقالاتي عن امرأة أوصل لها الخبز منذ أسبوع. أحياناً تبدو فرحة كطفلة وأحياناً حزينة لدرجة البكاء. عندما قرأ العم سليم ما كتبته، قال: «الصحافي يجب أن يعرف سر التغييرات الطارئة على المرأة». سأحاول معرفة سبب تقلبات المرأة.

٣/٢١

اليوم أخذت للمرأة خبزاً محمصاً بعناية. بدت حزينة لكنها دعتني إلى الشاي. شقتها جميلة. بعد أخذ ورد فتحت لي قلبها وحكت لي قصتها.

اسمها مريم وتنحدر من قرية في شمال البلاد. أحبت صديق طفولتها حباً جنونياً، لكن أهلها كانوا يريدون تزويجها بغني عجوز ولهذا هربت مع حبيبها إلى دمشق. تزوجا وعاشا في ثبات ونبات حتى أصبح زوجها عاطلاً عن العمل ولم يجد شغلاً بعد البحث الطويل والمضني. وعندما وجد عملاً في الكويت قبله على الفور، رغم أنه لم يُسمح له بأخذ زوجته معه. هاجر خمس سنوات، كان يعود فيها إلى البيت أسبوعين فقط في السنة. والآن رجع من الكويت رجلاً غنياً، عنده متجر كبير وسعيد جداً بحياته، لكنه تغير في الغربة، فلم يعد يمزح معها، لم يعد يمسد شعرها ولا يحب إلا تجارته. وهي لا تعاني من نقص في الطعام أو اللباس، إنما تشعر بنفسها وحيدة جداً.

هذا هو سبب حزنها، لكن لم أعرف سبب فرحها أحياناً، رغم كل إلحاحي.

أنكرت مريم أن تكون فرحة أحياناً. لا بد أن أعرف السبب عن قريب.

٣/٢٣

اليوم عاد الشك لينخر في قلبي: هل كان قراري بالبقاء هنا صحيحاً. رماني اثنان من أغبى طلاب صفي بالحجارة. الجبناء، كانوا يعرفون بأنني لن أترك سلة خبزي لأركض وراءهم. أصابت حجرة أذني وأدمتها.

حتى نادية تغيرت. إنها تتحاشاني ولا أستطيع التكلم إليها رغم إصراري منذ أيام. قال جوزيف إنها قالت له عني: «أجير خباز». عندي شعور بأن جوزيف يستمتع بخيبتي.

٣/٢٧

«السلام عليكم»، حييت نادية وشقيقها الكبير عندما صادفتهما في الحارة. «وعليكم السلام» رد أخوها السلام ومد لي يده، لكن نادية نظرت في اتجاه آخر وتابعت السير، كأنها لم ترني في حياتها. طعنني تصرفها هذا في صميم القلب ولم أعد آبه بشقيقها.

٣/٣٠

اليوم بذّل العم سليم حلاّقه. عاد حليق الشعر على الصفر وبعدة

جروح في وجهه، لكنه كان يضحك وأقسم بأنه لن يذهب إلى حلاق غير هذا الحلاق الجديد. استغربت منه، لأنه ترك أفضل حلاقي الحارة واختار هذا الجزار الذي شطّب وجهه وقال:

«منذ عشرين سنة وأنا أقص شعري عند المدعو سامي هذا، لكن كلماته تقل يوماً بعد يوم لازدياد زبائنه، حتى مللت من سكوته. الحلاق يجب أن يكون مسلياً أكثر من الراديو وإلا فهو حلاق سيئ. سامي عنده زبائن كثر ويعتبر كل قصة يحكيها خسارة. يزن كل كلمة يقولها ويملّلني بكلماته: «نعم، نعم! معك حق. أي والله، شو هاالحكي؟» التي يكررها من دون أن يصغي إليك. واليوم بحثت عن حلاق جديد، وعثرت عليه في باب توما.

للحلاق صانع صغير السن ولأنني زبون جديد فقد سلمني المعلم لهذا الصبي واهتم بزبائنه الدائمين. سلم الله فم الصبي من عين الحساد، لكن يديه ليستا يدي حلاق، بل يدا فلاح، فهما مثل المجارف. دفع الصبي بمقصه في شعري وكأنه ينوي حصد أعشاب برية. ضحك عندما قلت له إن منظري بقصة شعري الجديدة منظر رجل غبي يصلح فوراً للخدمة في الجيش. ورغّى ذقني بالصابون من دون أن يتوقف عن الكلام. وضع موسى الحلاقة الحاد على وجنتي وبدأ بحكاية الملك الغبي وزوجته الذكية، فضحكت لأن أسلوبه في السرد كان مسلياً وسبَّب ضحكي انزلاق يده وجرح خدي. آه، كم أوجعني هذا! اعتذر ألف مرة وحاول إيقاف الدم. رأيت في المرآة، كيف تهيأ المعلم ورفع بصمت يده ليصفع الصبي ظاناً أن الصانع لم يره لكن الثعلب الماكر تظاهر فقط بذلك، وفي اللحظة المناسبة انحنى

وصارت الصفعة من نصيبي. اعتذر المعلم ولعن الصبي وعاد إلى زبونه. تابع الصبي قصته وجرحني مرة ثانية، لكن الجرح هذه المرة كان خفيفاً. قلت له إني أتصور نفسي بين يديه كالخروف، فضحك وجرحني من جديد جرحاً أوجعني، فخرجت من فمي آهة. هذه المرة جاء المعلم على أقل من مهله، رفع يده، ونزلت صفعته من جديد على رقبتي! لأن الأجير خلص نفسه من المصيدة بشطارة مثل المرة الماضية. قدم الحلاق اعتذارات كثيرة على عدم لياقته وخفت أن أصرخ عندما جرحني الصبي على خدي الآخر. وعندما انتهى أخيراً من الحلاقة، مددت يدي إلى جيبي لأدفع، لكن الحلاق الخجلان لم يرض أن يأخذ النقود. «حلاقة بصفعتين! سأعود مرة أخرى» قلت لهم وضحكنا كلنا».

لن أذهب السبت القادم إلى ابن عمي الحلاق، فهو حلاق سيئ وليس له من حديث إلا عن ديونه.

السبت: وجدت حلاقاً جديداً. المحل فوضى بفوضى. الحلاق أرمني وصانعه إيراني الأصل، هاجر أجداده إلى سوريا منذ زمن طويل.

الصالون، مقارنة بصالون ابن عمي وصالون سامي الراقي، خربطة لا أول لها ولا آخر. دولاب التسنين في زاوية. وفي زاوية أخرى رف كبير عليه طبقة سميكة من الغبار وكثير من القوارير والزجاجات المليئة بماء الخزامى وماء الورد والياسمين. كما هناك حوضان زجاجيان مليئان بالعلق. هذه الديدان مقرفة جداً، لكن يقال إن لها فوائد كثيرة. على طول الجدار توجد كراس للزبائن وهناك

كومة كبيرة من المجلات. أخذت مكاني وقرأت المجلات المصورة بنهم وتسليت بالحلاق وأجيره، الذي لم يتوقف عن المزاح، بينما المعلم يتأفف ويتذمر بلغة مكسرة.

عنما دخلت إحدى الجارات الصالون لتسن سكاكينها، ترك الحلاق بكل بساطة زبوناً مرغّى الوجه، أخذ منها السكاكين وبدأ بسنها بكل مهله.

تأفف الزبون، فتظاهر الحلاق فجأة بأنه لا يعرف العربية ورد عليه بالأرمنية.

لكن الجميل في الأمر، هو أن قصة الشعر تكلف نصف السعر الذي يطلبه ابن عمي العزيز وبهذا أحلق شعري وآكل بوظة أيضاً.

٤/٦

عندما ابتسمت لي نادية عند بائع الخضار رجوتها: «دعينا نعمل مشوار في الحقول».

«ما أسهل الكلام عندك»، قالت وابتعدت عني، كأني ظربان. ترى، ما الذي جرى لها؟ هل ما زالت تحبني؟

٤/١١

طوال حياته لم يعمل العم سليم أكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع. كان يقضي ثلاثة أيام مع عائلته ويخصص اليوم السابع للعزلة

والتفكير. لم يصبح بعمله غنيًا، إلا أنه لم يكن معوزاً قط. اليوم حكى لي كثيراً عن حكمة الموت، التي لا يفهما إلا القليلون: «الموت يا صغيري يقول لنا كل ساعة: عش حياتك، عش، عش».

كان يوم والدي مملوءًا بالهموم وفي المساء كان عكر المزاج. عندما جاء العم سليم ليشرب معه الشاي، حاول والدي أن يتظاهر بالفرح، فهو يحب العم سليم جداً ويحترمه، لكن لا أحد يستطيع إخفاء شيء عن الجار العجوز. إنه قصير النظر، لكن بصيرته ثاقبة.

نصح أبي: «اعمل مثلي. كان عندي أنا أيضاً أيام كلها غم ومع ذلك تعودت أن أشعر بالراحة في البيت».

«لكن كيف يا عم؟» سأله والدي.

«عندما تصل إلى البيت، قف أمام العتبة وقل لهمك: انزل عن كتفي يا هم، انزل! ثم تعده أن تحمله عند الصباح القادم فينزل الهم وينتظرك. وبعدها تدخل البيت وفي اليوم التالي تقف أثناء الخروج في نفس الموضع وتقول: يا هم، الآن إركب على كتفي من جديد. لكن عليك ألا تنساه أمام باب الدار وإلا انتقم لنفسه فوراً».

ضحك أبي، مسد على ركبة العم سليم وقال: «لكن ما الذي سيحدث إذا تسلل همي ورائي من شقوق الباب؟ ها!».

«آه، وقتها نادي عمك سليم وسآتي بخنجري وسترى. وقتها سينبح مثل الكلب ويسحب ذيله وراءه».

ضحكنا كلنا وشعرت بأن بعض هموم أبي زالت فعلاً.

٤/١٥

سكن سائح بيتاً قرب حارتنا، فقد أخذ تصريح سكن من الحكومة. وكما سمعت من محمود، فقد اعتنق الإسلام منذ فترة. إنه بخلاف روبرت ليس مرحاً أبداً، يمشي بوجه عابس وكأن القيامة ستقوم غداً. وهو متزمت جداً، بحيث إن جيرانه المسلمين ضاقوا ذرعاً به، رغم إعجابهم به في البداية. كانوا يمدحون تقاه وورعه. إنه يصرف الكثير من الماء، لأنه يتوضأ خمس مرات ويغسل سيارته مرة في اليوم. لكن دمشق مدينة مغبرة، بحيث إن السيارة تتسخ بعد دقيقتين. وهذه ليست أكبر المصائب، الطامة الكبرى أن لسيارته سحراً عجيباً علينا وعلى الكلاب فهي تجذبنا كالمغنطيس ولذلك نبول كلنا على دواليب سيارته، ما أزعج الرجل بشدة فألصق أربعة لافتات مكتوبة بالقلم الأحمر بالعربية على نوافذ سيارته من الداخل: «ممنوع التبول». لكن الأطفال لا يقرأونها عندما يبولون، إنما يضحكون.

٤/١٨

أردت أن أراها بأي طريقة. اقترح محمود أن أركل الكرة إلى باحة بيتهم. ركلت الكرة عالياً فوق الجدار، طرقت على الباب ودخلت البيت. كانت نادية وأمها وشقيقاها جالسين في الحوش. سألتهم عن الكرة. تبسم الأخ الأكبر ببرود وقال لنادية: «نادية! أعطه الكرة، لقد وقعت وراء أحواض الزريعة». لكن نادية لم تتحرك من مكانها قيد شعرة. نهض الأخ الأصغر وأعطاني الكرة وهمس في أذني: «تصرفاتها غريبة في الفترة الأخيرة»؟

«أترك نادية بحالها»، صرخت عليه الأم، التي سمعت ما همسه لي.

نادية فعلاً غريبة. حتى مع السلامة، لم تقلها عندما خرجت. شتمها محمود.

٤/٢٦

مر شهران على عملي في المخبز. زبائني راضون عني ولن يأخذهم مني أي خباز مهما كان. بالتدريج تتحسن أحوال والدي، تقل ديونه ويزدهر مخبزه.

العمل يمللني. إنه ليس صعباً. الآن أحمل السلال بسهوله أكثر ولم تعد السلالم تزعجني. الملل وحده يقتلني. أقرأ كثيراً، لكن لا أكتب إلا القليل، بغض النظر عن دفتر مذكراتي.

يزودني العم سليم كل يوم بالقوة. يصر على الكلام معي عن عملي، يلعن معي الوضع وأحياناً أضطر لتهدئته بالقول إن المخبز ليس دائماً جهنماً.

لا أشعر بالراحة إلا عند مريم. لا تتركني أذهب قبل أن أشرب شاياً أو قهوة. أعزها كثيراً وأظن أنها أيضاً تعزني. لكنني حتى الآن لم أعرف لماذا تكون أحياناً سعيدة مثل طفل.

نادية تعيش منذ أكثر من أسبوع لدى جدها في القرية. لماذا؟ لا أعرف.

٤/٢٨

مفاجأة سارة. اليوم أهدتني مريم قميصاً أزرق. كيف بحق السماء عرفت أن الأزرق لوني المفضل.

قالت: «على بنطولنك الأبيض، سيكون منظرك رائعاً» وطبعت قبلة حنونة على خدي. هل تعشقني يا ترى؟ يقول العم سليم إن الحب لا يعترف بفوارق العمر، لكنه أوصاني أن أحذر، حتى لا يكتشف زوجها غرامنا.

هل يبالغ، أم إنني زدت البهارات التي نثرتها فوق روايتي عن مريم؟

٤/٢٩

اليوم أخذت معي قطعة كاتو لمريم. سُرَّت بها وحدثتها طويلاً عن حلمي في الصحافة فضحكت، لا أعرف لماذا، ووعدتني بأن تساعدني. قالت إن جارها اسمه حبيب وهو صحافي جيد، ستكلمه عني وكل ما علي هو أن أحضر معي خبزاً شهياً له.

٤/٣٠

أخيراً حدث المراد. مريم إنسانة عظيمة. لقد رافقتني بالفعل إلى الطابق الثاني ورنت الجرس. بعد قليل فتح الباب رجل في حوالى الخمسين، ما زال في ثياب النوم. ابتسم بينما هو يتثاءب ودعانا

للدخول ثم قال: «إلى هذه الدرجة صار خبازو هذه الأيام أنيقين». كنت مرتدياً بنطالي الأبيض وحذاء الرياضة الأبيض وطبعاً القميص الأزرق، الذي أهدتني إياه مريم. ولهذا كان أبي يتذمر طوال اليوم.

تناول حبيب الخبز وشمه، ثم قال: «لذيذ! فعلاً لم تبالغ مريم».

شربنا الشاي في غرفة فوضوية وكانت مريم سعيدة كطفلة. سألني عندما ودعته، إن كنت أستطيع أن أوصل له نصف كيلو خبز كل يوم. وهل يحتاج هذا إلى سؤال!

الجمعة: كنت أعرف أن اليوم عطلة حبيب. انتقيت له أفضل الأرغفة المحمصة بشكل خاص، كما يشتهيها هو. حملتها له عندما أنهيت جولتي الصباحية وصار عندي ساعة فراغ قبل أن أبدأ جولة الظهر. دعاني إلى شرب الشاي فجلست في غرفته، حتى أحضره. كانت الكتب والجرائد موزعة في جميع أنحاء الغرفة ومعظمها باللغة الفرنسية. كان بنطاله مرمياً على أحد الكراسي وعلى الطاولة الصغيرة المزدحمة، كانت زجاجة عرق ومنفضة سجائر وعدة أقداح. غالب الظن كان عنده ضيوف ليلة أمس.

وكان كتاب سميك لجبران خليل جبران مرمياً هناك. إني أحب هذا الكاتب، لكن لا أعرف عنه الكثير. كنت أقلب صفحات الكتاب عندما دخل حبيب حاملاً الشاي.

«هل تحب جبران؟»، سألني حبيب.

«طبعاً أحبه. إنه يحب الأطفال وهو أفضل من يفهمهم».

«هل تعرف الكثير عن حياته المأسوية؟».

«طبعاً»، تحذلقت، رغم أن كل ما أعرفه هو أن أفضل الشعراء اللبنانيين اشتهر في الخارج قبل أن يلقى التقدير والاعتراف من أبناء جلدته. كان مهاجراً إلى أميركا.

«وأنت لا تتشاطر!؟»، سألني حبيب مع بعض الشك.

«لا، لماذا؟ هل ألقي عليك بعضاً من أشعاره»، سألته بكل ثقة بالنفس، حيث أني أحفظ قصيدتين لجبران عن ظهر قلب.

«اعملها يا صغيري، اعملها، فالاستماع إلى جبران يطرب دائما». أدهشت حبيب، فقد سمعته يهمس، كأنما يقول لنفسه: «صبي خباز يعرف قدر جبران ورئيس التحرير يسألني من هو جبران».

قلت له إني أريد أن أصبح صحافياً ورجوته أن يعلمني شيئاً عن هذه المهنة، فقال لي: «انسَ الموضوع يا صغيري، انساه. أنا أتمنى لو كنت خبازاً فالخباز يعرف على الأقل أنه يعمل شيئاً مفيداً».

بشكل من الأشكال أشعر بالخوف من حبيب، فهو يختلف عن العم سليم وغالباً ما يتكلم بفظاظة. فلم أجرؤ مثلاً على التدخين عنده، رغم أن سجائري كانت معي. وعلى العكس من العم سليم يتقلب مزاجه بسرعة، فقد يكون عابساً وحانقاً على كل شيء، ثم يصبح بشكل مفاجئ مرحاً صاخباً. ضحك على أحلامي المستقبلية وشعرت بأنه لا يريد أن يراني بعد، إلا أنه أعطاني كتاب جبران عند الوداع وقال لي: «خذه. أريد أن أتحدث معك حوله لكن انس الجريدة».

٥/١٠

ترك محمود المدرسة. أبوه أيضاً لا يريده أن يتابع الدراسة، فهو لا يستطيع إطعام تسعة أفواه وحده. «يأتون بأولاد إلى الدنيا ثم يشتكون»، قال محمود الذي كان يتمنى مثلي تماماً أن يتابع دراسته وكانت أمنيته أن يصير طياراً ويسافر في أرجاء العالم.

ينحر الفقر أحلامنا في مهدها.

إنه يعمل الآن في مقهى في الصالحية. لم يبق من أعضاء عصابتنا في المدرسة إلا جوزيف. تريد أمه أن يصير طبيباً. ورثت عدة مزارع قرب المدينة وقيمتها ترتفع من عام لعام. جوزيف يصير طبيباً! كلا! أفضّل أن يعمل لي جزار عملية على أن يعملها لي جوزيف، الذي لا يعرف الفرق بين القلب والكلية. بالنسبة له يريد أن يكون ضابطاً ويصعقنا حلمه هذا تماماً كأمنية أمه.

٥/١٤

اليوم ازداد شكي في صحة قراري بالبقاء في دمشق. تدحرجت اليوم ظهراً على الدرج وخدشت ذراعي اليسرى. إنها تؤلمني أشد الألم. وسكان هذه العمارة الملعونة استغلوا محنتي وسرقوا بعض الأرغفة.

يقول جوزيف إن اللآلئ تحتاج إلى البحار العميقة والماء الرائق والشمس كي تنمو في أجواف الصدف. ثم سألني حزيناً: «هل رأيت في عمرك قوقعة أنجبت لؤلؤة في حفر مراحيض الشام؟». بهذا

السؤال وضع إصبعه على جرحي من دون أن يعرف. المخبز ينهكني ويحطم أعصابي. ما هو مصيري؟

٥/١٦

لم أكن أعرف أن العم سليم قد يغضب بهذا الشكل. انشغل اليوم طويلاً بتجهيز الأركيلة، ثم حضَّر الشاي وجلس في الحوش أمام بابه. كان الأطفال يلعبون بكرة تنس صغيرة. نبَّه العم سليم الأطفال مرتين أن يكفوا عن اللعب ساعة زمان حتى يدخن «على رواق» كما يقول، أركيلته، لكن أولاد سائق الشاحنة عبدو تابعوا اللعب وكأن الصمم أصاب آذانهم.

فجأة أصابت الكرة الأركيلة، فألقتها أرضاً، لكنها لحسن الحظ لم تنكسر ولكن التنباك تناثر على أرض الحوش. لعن العم سليم الأطفال الذين أفسدوا عليه صفاء باله. شعر والد الأطفال بالإهانة ورد على العم سليم بنبرة حادة عليه ألا يعمل مسرحية طويلة عريضة بسبب أركيلة وعرض عليه علبة سجائر عوضاً عنها.

«الأفضل أن تعلم أطفالك، أن لي أنا أيضاً الحق في متر مربع أمام بابي وساعة راحة في اليوم»، صرخ العجوز بوجهه. نشب شجار ما له آخر بينهما وأهان سائق الشاحنة العم سليم، بأنه يظن نفسه باشا وهو عربجي مُرَقع. فقد العم سليم أعصابه وكال للرجل شتائم قاسية. سمع أبي الصراخ وطلب من أمي أن تجهز ركوة قهوة كبيرة وركض في البيجاما إلى الأسفل وألح على سائق الشاحنة ثم على العم سليم أن ينهيا الشجار. هدأ الاثنان قليلاً وعندما قدمت أمي القهوة كان

الشجار في طي النسيان وحملت زوجة عبدو أركيلة مزخرفة و«معمَّرة» للعم سليم.

٥/٢٢

أخيراً عادت نادية. أخيراً رأيتها. وقبل قليل دست في يدي خفية ظرفاً سميكاً. إنها رسائل حب كتبتها لي طوال الفترة التعيسة وأنا الأبله شككت في حبها لي. لو كان باستطاعتي لركلت نفسي ألف ركلة لأنني شككت فيها. إنها تحبني، تحبني.

لم أقرأ في حياتي رسائل بهذه الرقة والحزن. والآن أعرف سر تصرفاتها الغريبة نحوي. لقد رآنا أخوها ونحن نقبل بعضنا وفشى بما رآه لأبيه. وهذا البربري ضربها، حبسها في غرفتها وهدد كل العائلة بعقوبة إذا باحوا بالسر لأحد. كانت نادية تأكل وحيدة في غرفتها. كان الأب وحده يملك المفتاح، كان يفتح بابها مساء ليسمح لها بالذهاب إلى الحمام.

وبعد أسبوع سمح لها بالخروج من سجنها، لكنه سلط عليها شقيقها، فسمموا حياتها وقالوا لها إنهم سيعرفون كل شيء من محمود وجوزيف، لأني دائماً أتكلم عنها أمامهما. هذا كذب، لأني لم أقل لهما تقريباً أي شيء عن نادية. شكت فيّ نادية وخافت إلى درجة المرض، فأرسلها والدها إلى القرية عند أهله، حيث وجدت السلام والطمأنينة وازداد حبها لي. وهي تتشوق للقائي، لكن شقيقيها لا يتركانها وحدها أبداً.

يجب أن أكون حذراً، كي لا تصاب نادية بمكروه.

٥/٢٣

العم سليم أسوأ طباخ. وهو لم يتعلم الطبخ أبداً، كما أن عزة نفسه لا تسمح له بطلب المساعدة من الآخرين. أمي والجارات الأخريات يخرجن دائماً بحيل جديدة، حتى يتذوق الأرمل العجوز طعاماً شهياً.

«أنت تفهم في الأكل أكثر من زوجي. هو يقول إن أكلي ما له طعم. من فضلك ذق من هذا الصحن وقل لي رأيك بصراحة؟».

«حرقت لساني لما شربت القهوة، ذق هذا الصحن من فضلك وأخبرني هل ينقصه شيء من البهارات أو الملح؟».

«اليوم تمكنت أخيراً، وبعد خمس عشرة سنة، من طبخ هذه الأكلة الصعبة وأريد أن تمدحها أمام زوجي».

«لن تصدقني. لكن اليوم جاءتني مريم العذراء ـ السلام على اسمها ـ في الحلم وقالت لي: تبرعي بصحن فول إلى أغلى إنسان على قلبك، عدا عائلتك، وإلا ستصابين بالحصبة مرة ثانية. عمي، أنا ما عندي أحد أغلى منك وأنا لا أريد الحصبة مرة ثانية».

والعم سليم يأكل، ليحصن المرأة ضد الحصبة، ليؤكد للرجال أن نساءهم أحسن الطباخات، ليقول إن الطعام بحاجة إلى رشة كزبرة أو فلفل. بهذه الحيل الذكية لنساء الحوش يحصل العم سليم على وجبة طعام فاخرة كل أسبوع.

٥/٢٨

لا أستطيع الكف عن قراءة رسائل نادية المرة تلو الأخرى. كتبت

في أحدها: «حتى لو نزعوا قلبي من صدري، سأبقى أحبك أنت بكل ما بقي لي».

رويت لمحمود هذه الجملة فاحمر خجلاً، لأن رأيه فيها كان سيئاً. علينا أن نفكر بطريقة للقاء من دون أن يعرف أهلها.

٦/١٠

لم أكتب شيئاً منذ أكثر من أحد عشر يوماً.

لست متأكداً تماماً، لكني أعتقد بأن هناك علاقة بين مريم وحبيب. اليوم رأيتها عنده. شعر حبيب بالارتباك. اكتفى بغمغمة قصيرة ولم يرغب في دخولي، لكن مريم قالت: «إنه صبي طيب».

صبي طيب! لست صبياً طيباً. ما معنى كلامها؟ يجب أن أعرف. ربما كان حبيب هو السر وراء فرحها الفجائي. وأنا الأحمق ظننت أنها تحبني. صبي طيب! ما أدراها هي؟

٦/١٤

كتب محمود مسرحيته الثانية. والبطل طبعاً هو أحمد ملص. إنها قصة قاسية:

يشتهر محرر إذاعي، لكن الإلهام لم يعد يأتيه فيعطيه زميل له نصيحة وهي أن يزور السجن، فالسجناء يروون حكاياتهم لأجل علبة دخان وأحياناً بالمجان وحكاياتهم مشوقة ومثيرة إذا بهّرها الكاتب قليلاً

تصبح دراما ملتهبة. والنجاح المنقطع النظير، ضربة العمر، سيحظى به إذا سرد أحد السجناء أمام الميكروفون كيف وأين ارتكب كل جرائم القتل والسرقة والغش والخداع. سيجن الناس إذا سمعوا هذه الفظاعات. وإذا تمكن من التقاط بعض الصور للمساجين، فسيكون بإمكانه أن ينشر القصص في الجريدة وبهذا يضرب عصفورين بحجر واحد.

يصف محمود المحرر بأنه شخص يضرب لغبائه بدل العصفورين بحجر نفسه بحجرين. يذهب إلى السجن، لكن المساجين لا يتحدثون أمام الميكروفون ولو دفع لهم المرء كل مال العالم، فهم قاسوا الأمرين طوال سنوات السجن وعانوا المتاعب بسبب ما ذكروه. لكن وبعد أخذ ورد، يوافق بعض المساجين على ذكر قصص حياتهم شرط أن يكتفي المحرر بكتابة الملاحظات من دون ذكر الأسماء. ووافق هذا على الشرط وجمع كثيراً من الأقاصيص المملة بحد ذاتها، إلا أنها، إن تُبُلت وبُهِّرت وفُصِّلت على شخصية واحدة، تعطي صورة كاملة للوحش المرعب.

زميل آخر يعطي المحرر الذي انقطع عنه الإلهام نصيحة أخرى، مفادها أن الكثيرين من الممثلين كبار السن عاطلين عن العمل وعليهم ديون متراكمة، يمكنهم أن يلعبوا دور المجرم. بعد بحث وتنقيب يعثر المحرر على فنان عجوز يوافق على العمل معه، شرط أن يذكر الحقيقة في الحلقة الأخيرة.

يبدأ المسلسل ويروي الرجل باستمتاع سادي كيف خنق العجائز، كيف سطا على المارة وسرق لقمة الأطفال من أفواههم واغتصبهم.

يقبل الممثل تصويره بشعر أشعث وذقن مرسلة وتباع الجريدة حتى آخر نسخة.

مع الحلقة الثالثة ينتهي المسلسل في الراديو والجريدة معاً من دون أن يفي المحرر بوعده ويصارح الجمهور بأن الرجل ممثل وليس مجرماً.

يقع الممثل المسكين في الشرك. يتحاشاه جيرانه وحتى الباعة لا يرضون أن يبيعوه بضاعتهم، لأن صورته انتشرت في كل مكان وصارت معروفة أكثر من صورة رئيس الجمهورية. يثابر الرجل المسكين على الذهاب إلى دار الإذاعة، لكن المحرر لا يسمح له بالدخول، وكلما تمكن الممثل من العثور على المحرر بعد طول انتظار، يواسيه هذا ويعده بأن ينشر الحقيقة غداً أو بعد غد.

وبعد شهر ينهار الممثل كليا، لكن الجيران لم ينسوا قصته كما وعد المحرر. في النهاية ينتظر الممثلُ المحررَ جائعاً، في ثياب رثة ويقتله. تنشر الجريدة حلقة رابعة من المسلسل، وكذلك الراديو، وأخيراً يتنفس الجيران الصعداء، لأن الرجل صار خلف القضبان.

محمود لا ينسى. لكني أشك في أن تعرض هذه المسرحية على أحد المسارح. أعجب حبيب والعم سليم بالمسرحية أيما إعجاب، عندما رويت لهما أحداثها. وصف الجيران بهذه الوضاعة لم يعجبني كثيراً، لكن محمود يقول إن الناس يصدقون كل شيء إذا زُيِّنَ وزُوِّقَ.

٦/٢٤

مرت علينا فترة قاسية. جرى لنا الكثير في المخبز في يوم

الأربعاء الماضي. كنت أنهيت جولة الظهر للتو وأردت أن آخذ استراحة عندما انكسر محور العجانة. بدله أبي بعد جهد جهيد بمحور جديد كان يحتفظ به احتياطاً وكان بالغ الراحة والسعادة. وحالما قال: «كلنا نستحق كأس شاي»، توقفت سيارة شرطة أمام الفرن. قفز منها شرطيان، وقفا باستعداد أمام باب الفرن وسداه برشاشيهما. نزل رجل في بدلة أنيقة بعد ذلك ببطء من السيارة وتطلع إلى مخبزنا. جفف والدي المسكين يديه بذيل مريوله بعصبية وهو يهمس: «يا مريم العذراء احميني، دخيلك يا قديسة مريم أعينيني».

كان الرجل الأنيق في حوالى الثلاثين من العمر سأل عن اسم أبي وما إن نطق المسكين باسمه، حتى أمره الرجل بوجه جامد خالي من الحياة: «تعال معي».

«ماذا عملت سيدنا؟»

«لا داعي للخوف، إذا ما كنت عملت شيئاً»، جاوبه الرجل بصوت خفيض جداً وبإشارة منه أعطى أوامره للشرطة لإبعاد الزبائن المتذمرين عن الباب. وفي لمح البصر بدأ الشرطيان بالانهيال على الناس بأعقاب البنادق. بدا أبي مرعوباً. للمرة الأولى في حياتي أراه شاحباً هكذا.

سأل مرتعداً: «إلى أين؟ قصدي، هل علي أن أخلع المريول وآخذ جاكيتي معي؟».

«نعم، الأحسن أن تأخذ معك الجاكيت»، قال الرجل.

«يا عذراء»، همس أبي وتناول جاكيته من المشجب، رمى المريول في زاوية ثم مسد على شعري وتأتأ: «لا تخف يا بني، سأعود فوراً»، ثم خرج.

استعدت وعيي عندما أوثق الشرطي يدي أبي بالحديد. ركضت وأمسكت بجاكيت أبي ناوياً أن أجره إلى الخلف عندما دفعوه إلى السيارة. ضربني شرطي، إلا أني تمسكت بأبي بكل قوة وصرخت طالباً النجدة، فرفسني المجرم في بطني وترنحت نحو الخلف. أمسكني اثنان من عمال المخبز وصرخ أحد الناس عالياً: «أيها الكلاب المسعورة، لا يزال طفلاً».

انطلقت السيارة، هرع إليَّ الجيران الخائفون وأعطاني بائع الورد كأس ماء، قائلاً: «اشرب يا بني اشرب. يفيد ضد الصدمة. الله وحده يبقى عالياً وكل المنايك سيسقطون».

لم نستطع النوم ليلة أخذوا أبي. بكت أمي وكان الجيران يتناوبون على زيارتنا ليسهروا عليها ومعها طوال الليل. كانوا قلقين عليها جداً. كما وأن العم سليم بدوره لم ينم. في الرابعة صباحاً جاء معي إلى المخبز من دون أن يقول كلمة واحدة. كان يقف على البسطة، يزين ويبيع الخبز، يستشير العمال في ما عليه أن يفعل وأنا كنت أوصل الخبز إلى زبائني وأرجع مثل الصاروخ. لم أعرف ما هو التعب. لم أكن أريد أن أترك صديقي العجوز وحده، فقد تجاوز الخامسة والسبعين من العمر، كما أنه قصير النظر، لكنه كان يحكي نكتاً طوال النهار ويهدئ الزبائن بأن أبي سيعود حالاً.

ضربوا أبي طيلة أربعة أيام، ومرتين وضعوا المسدس على صدغه وهددوه بالقتل إذا لم يقر بالحقيقة. وعندما ألح أنه لا يعرف حتى ما الذي يريدونه منه، ضغطوا على الزناد. لم يكن المسدس محشواً، لكن أبي سقط مغشياً عليه، إلا أنه كان رجلاً وظل صامداً أمام

التعذيب، فلم يبك ولم يسترحمهم، كما كان المعتقلون الآخرون يفعلون.

«قل من أنت»، أمر رجل المباحث فلاحاً، فقال المسكين اسمه، فأشبعوه ضرباً حتى قال الجواب المطلوب: «أنا كلب، أنا خائن». وإذا استرحم أحدهم صارخاً: «لأجل الله»، كان الجلاد يضحك، يتناول عصا أخرى ويقول: «هذه مشيئة الله!». بكى أبي مثل الطفل وهو يروي لنا مجريات الأحداث، فقبله العم سليم بين عينيه وأمسك بيده.

طيلة أربعة أيام ضربه المجرمون حتى اكتشفوا أنهم أخطأوا بين اسمه واسم محام، يحمل بالصدفة نفس اسم أبي ويعمل ضد الحكومة.

العم سليم لا يصدق هذا التفسير: «هم ضربونك أنت، ليخيفوننا، حتى ترتعد أوصالنا. هم يعرفون بالضبط أن اسم أبيك وأمك مختلفان ويعرفون أنك خباز» قال ذلك بحزم ولعن الحكومة.

لم أشعر من قبل بمثل هذا الفخر بأبي ولأنهم عذبوه فإني أحبه أكثر من قبل. لحسن الحظ أني لم أهرب من البيت. لما كان هو وأمي تحملا هربي، فقد سأل عني أول ما سأل. لكني لن أسامح الحكومة أبداً. وعندما بحت للعم سليم بحقدي عليها قال: «الذي ينسى الظالم، يساعده على ظلمه».

رجانا أبي ألا نحكي لأحد عن التعذيب في السجن، فقد هدده الخنازير بأن يعذبوه شهوراً وشهوراً إذا حكى كلمة واحدة عن هذا الموضوع. ورغم ذلك فقد رويت لمحمود القصة كاملة ورأيه على رأي العم سليم. انتشرت موجة اعتقالات اعتباطية في دمشق ونشرت بين الناس حالة من الذل والإهانة.

كدت أنسى. لكن قبل أن أتوقف اليوم عن الكتابة، علي أن أكتب شيئاً آخر. عندما سلّم العم سليم أبي إيراد الأيام الأربعة أراد أبي أن يعطيه نقوداً على أتعابه، لكن الرجل الطيب رفض رفضاً قاطعاً أن يأخذ قرشاً واحداً، فألح عليه أبي واستحلفه أن يأكل كل يوم أحد عندنا، لأجل خاطري. قبل العم سليم الدعوة بطريقته الفكاهية: «بكل سرور، فوقتها يمكنني أن أحكي لصديقي بعض حكاياتي الحمقاء. بذلك ينسى هو طعامه وآكل حصته».

٦/٢٦

بسرعة دست نادية رسالة في يدي. كتبت بحب وحنان بالغين أنها لم تعلم بالخبر إلا أمس. قال أبوها إنهم قبضوا على الكثير من المشبوه فيهم واستجوبوهم وإن الحكومة تفادت بذلك انقلاباً. كتبت نادية أنها تحتقر أباها، الذي يلحس طيز كل الحكومات. نادية عظيمة.

٦/٢٩

أردت أن أعرف من حبيب ما هو سبب موجة الاعتقالات من دون أن أكلمه عن أبي، فشقته بعيدة عنا ولم يسمع بما حدث لأبي. سألته لكن حبيب لم يجاوب. صمت، ثم سأل بعد برهة إن كنت قد قرأت جبران. رفعت صوتي بوجهه قائلاً، إن جبران لا يهمني الآن وأريد أن أعرف أخبار موجة الاعتقالات لأن صديقاً لي سجن من دون

سبب. سكت ونظر إليَّ بعينين حزينتين: «من دون سبب؟ ومنذ متى تحتاج هذه الحكومة إلى سبب لتعذيب الناس؟» وضحك مثل المجنون وخبط الحائط بقبضته. خفت منه لأنه كان يحدق فيّ بعينين جاحظتين. أردت الهرب منه، إلا أنه استعاد هدوءه. «إسأل أباك إن كان يحتاج إلى عامل في المخبز، أريد العمل عنده، سأعمل برغيف خبز في اليوم» قال وهو يودعني. حبيب هذا شخص غريب.

٧/١٠

اليوم تأكدت من أن مريم تحب حبيب. كنت متشوقاً لاكتشاف السر، لكنني اليوم نادم على اكتشافي له. إنها تحبه هو لا أنا. أقضت الشكوك مضجعي في الفترة الأخيرة. أي نعم، أحب نادية، لكنني كنت متحرقاً لأعرف موقف مريم مني ومن حبيب. سألتها أمس إن كانت تحبه فأنكرت وقالت إنه رجل لطيف ولطفه هذا يهمها ليس أكثر (يا إلهي، كيف شددت على هذه الكلمة!). قالت إنها تعزني لكنني صغير جداً عليها. معها حق. لكنها رغم هذا تحب حبيب.

أمس كلمتها عن تعذيب أبي في السجن ورجوتها ألا تخبر أحداً. فقالت إنها لم تكن تعرف ما الذي جرى، لكنها استغربت من ضيق وقتي في الأيام الأربعة الأخيرة. حبيب لم يلحظ هذا قطعاً.

٧/١١

اليوم أوصلت لحبيب رغيفه ونويت الرجوع مباشرة، لكنه أصر

على أن أدخل. ومن جديد كان سكران، كما هي عادته في الفترة الأخيرة. لم أرد أن أخجله ودخلت. حضَّر لي شاياً وسألني فجأة، لماذا لم أرو له عن تعذيب أبي. لا أعرف الآن كيف خطر في رأسي الجواب التالي: «لأنك تشتغل في جريدة الحكومة».

لن أنسى نظراته إليَّ طوال عمري. لم تكن عيناه مليئتين بالمفاجأة والغضب والحزن فقط، بل ورأيت فيهما خجلاً، فغضضت الطرف لأني عرفت كم أوجعه جوابي. بصوت خفيض قال لي إنه لن يتحمل العمل في الجريدة أكثر فهي تدمر حياته. سُجن الكثير من رفاقه ولا يحق له أن يكتب حرفاً واحداً عنهم. حدثني عن وحدته وازدادت نبرة الحزن في صوته إلا أنه لم يبك. إنه عموماً شخص صلب. من دون أن يذرف دمعة واحدة، كلمني عن ملاحقة الحكومة السابقة له واغتيال زوجته. آنذاك هرب إلى الخارج ولم يعد إلى البلد إلا عندما استلم حزبه الحكم وفي هذه الأثناء صار صديقه رئيساً للتحرير وحصل حبيب على مركز مهم في هيئة التحرير. لكنه بعد عام واحد اختلف مع صديقه، الذي حول الجريدة إلى صحيفة أكاذيب، تماماً كما فعلت الحكومة السابقة، وضحى بأحلامه في سبيل بيت جميل وسيارة حكومية.

هرب الكثير من الصحافيين، لكن حبيب بلغ الخمسين. لقد تعب من الترحال ولا يريد إلا أن يعيش أيامه براحة وهدوء.

فجأة شعرت بالعطف عليه وفقدت خلال نصف ساعة كل مخاوف الأشهر السابقة وأشعلت سيكارة. حبيب لم يلحظ هذا حتى.

«وماذا ستفعل؟» سألني عند الوداع.

«سنرى!»، قلت باختصار شديد.

٧/٢٢

ناقشت محمود ونظمنا عملية ضد ثلاثة مخبرين يعيشون في حينا. أبو نادية يعيش في حارتنا، آخر يعيش في حارة الزيتون والثالث قرب شقة حبيب.

لم يرغب محمود في أن نخبر جوزيف، لأن هذا صار يتحمس للجيش أكثر فأكثر. كتبنا نصاً قصيراً جداً ووقعنا عليه باسم عصابة اليد السوداء: «لا تنسَ يا عميل. نحن كالجمل لا ننسى شيئاً وذات يوم ستنال جزاءك».

٧/٢٩

يقال إن الثعلب أمكر الحيوانات على وجه الأرض، لكنني أظن أن الإنسان أكثر مكراً من أي ثعلب في الدنيا واليوم برهن محمود على هذا.

يشتري أبو محمود عادة نوعين من الشاي. شاياً رخيصاً للعائلة، لأن الأولاد التسعة يشربون يومياً كميات هائلة منه وشاياً سيلانياً من النخب الأول يقفل عليه. اليوم ذهبت أم محمود مع ثمانية من أطفالها لزيارة إحدى صديقاتها، بينما ظل محمود في البيت. جاء أبوه من العمل، اغتسل وعمل لنفسه شاياً واكتشف فجأة أنه لا يوجد سكر في

البيت. وكأنه يخاف على شايه الغالي وضعه في النملية، أقفل عليه بابها وخرج مسرعاً إلى الدكان على رأس الحارة ليشتري سكراً. وطوال هذا الوقت كان محمود يراقبه من غرفتي. وعندما خرج أبوه من البيت، تسلل إلى المطبخ. بطريقة حاذقة وضع شلمونة (مصاصة) عبر شبك النملية وأزاح غطاء الإبريق وامتص الشاي مستمتعاً به. بين الحين والآخر كان ينفخ ليبرد لسانه لأن الشاي ساخن جداً، لكن هذا لم يمنعه من شرب كل ما في الإبريق. وعاد سريعاً إلى غرفتي وبيده الشلمونة وانتظر حتى عاد الأب وهو يصفِّر. ما دمت حيّاً، لن أنسى وجهه عندما أخذ الإبريق من النملية وبحلق في بطنه الفارغ. في البداية نطق بسورتين معروفتين من القرآن ضد الجن ثم تماسك وصرخ: «محمووووود، تعال فوراً». وعندما ظهر محمود في الباب كالحمل الوديع نظر إليه الأب وضحك: «هل حرقت فمك ـ إن شاء الله ـ على الأقل؟!» أومأ محمود برأسه ولاحت ابتسامة ماكرة على فمه.

٨/٣

جن جنون جوزيف. سمع بعملياتنا من أخي نادية. إنه يخاف أن تتلاشى أحلامه بأن يصبح ضابطاً إذا اكتشف السر. تصايحنا وقال، ليس من حقنا أن نستغل اسم العصابة التي أسسها هو وإذا ما أعدناها، فسيبلغ عنا.

٨/٧

صادفت جوزيف في الشارع، فحياني ببرود واستعجل السير. لم يعد يريد حتى أن يُشاهد معي. غريب أمره.

٨/١٤

روى لي العم سليم حكاية قصيرة سمعها من آخرين. لم يكشف لي اسم البلد، لكن أظن أن القصة قد تحدث كل يوم على حدود بلدان كثيرة. وهذه هي قصته:

أحد الركاب كان يضحك على الركاب الآخرين عندما دنت عربتهم من الحدود. وعموماً كانت ملابس الرجل غريبة، فقد كان عارياً اللهم إلا من منشفة لف بها وسطه.

قال للركاب: «أنت عندك شوكولاتة، أنت عندك راديو، وأنت تحمل مسجلة» وضحك وأضاف: «سيأخذون منكم كل شيء على الحدود. أنا أعرف هذه البلاد. ممنوع أن يدخلها أي شيء».

انزعج الركاب من الرجل، لكنه لم يكل أو يمل طوالة الطريق من إثارة أعصابهم: «وأنت، ماذا عندك؟ ساعة، قميص؟ وأنت هناك، كيف ستعبر الحدود بهذا المعطف؟». توترت أعصاب الناس أكثر فأكثر كلما اقتربوا من الحدود وشيئاً فشيئاً بدأوا يفهمون لماذا يسافر هذا المجنون شبه عار. وحتى الفوطة التي يتغطى بها كانت من صنع البلد الذي اقتربوا منه.

عندما وصلت العربة إلى الحدود، اكتشف الناس أن الجمارك

أشد مما وصفها الراكب شبه العاري، الذي ظل جالساً يضحك بينما كانت موظفو الجمارك يصادرون كل شيء: الراديوات، الشوكولاتة والمعطف.

عندما جاء دوره تبجح: «أنا عار، وهذه الفوطة من منتجاتكم»، فسأله موظف الجمارك بوجه جامد السحنات: «أنت تعرف الكثير، أليس كذلك؟». «نعم أقرأ الكثير»، تباهى الرجل، فسأله الموظف: «وماذا تقرأ؟».

عدد الرجل عناوين كتب كثيرة، بينما الموظف يسجل كل عنوان ويتساءل بأدب عن الكتابة الصحيحة لاسم المؤلف. وحالما توقف الرجل عن العد سأله الموظف: «هذا كل شيء؟»، فتباهى الرجل بقائمة جديدة من الكتب التي قرأها. سجل الموظف كل العناوين وشيئاً فشيئاً بدأ الرجل العاري يدرك إلى أية هاوية قادته ثرثرته فسكت وشعر بالغثيان.

قال الموظف للرجل المتذاكي: «هكذا إذاً! أنت تحمل في رأسك مائتي كتاب وتريد تهريبها ونصف هذه الكتب ممنوع في البلد. يا الله، عجيب أمر هؤلاء المهربين، كل يوم يطلعون بأساليب جديدة للتهريب» وسب الرجل العاري وأعاده من حيث جاء.

٨/١٦

في سينما العباسية تعرض أفلام إباحية مرة في الشهر، في عرض خاص عند الظهيرة حيث لا يعرض في هذا الوقت في أي سينما

أفلام. يرشو صاحب السينما الماكر الشرطة وهذه تسد عيونها وآذانها. لكن ثمن التذكرة لا يبلغ ليرة واحدة فقط كما هي العادة، إنما ثلاث ليرات. هذا الخنزير يجمع ثروة من وراء هذه العروض الشهرية.

السينما حديثة وعملاقة تتسع لمئات المشاهدين، الذي يبلّغون بعضهم البعض بموعد عرض الأفلام الإباحية بالدعاية الشفوية وطبعاً يتظاهر الجميع بالتكتم على الموعد حتى لا تعلم الشرطة! يسألني محمود، كيف يمكن ألا تعلم الشرطة بتجمع أكثر من ستمائة بني آدم في السينما في عز الظهر وهذه الشرطة نفسها تعرف على الفور إذا تجمع خمسة أشخاص لشرب الشاي وتعلمهم بأنهم مراقبون منذ عدة أسابيع.

اليوم ذهبت للمرة الأولى إلى سينما العباسية مع محمود. كانت طوابير الرجال تتجه نحو السينما كالتظاهرة. من دون شباك تذاكر ومن دون إعلانات اشترى الجميع تذاكرهم بالصدفة!

كان الفيلم ساخناً. عرضت فيه كثير من بيوت الدعارة في أوروبا وأطلق الرجال حسراتهم في فضاء الصالة. عندما أشعلت الأضواء التقت عيناي بعيني أستاذ الرياضيات في مدرستي السابقة. احمر وجهه وشعرت أنا بحرارة أذني. لم يسلم علي، كما لم أسلم عليه. أشاح كل منا نظره إلى ناحية أخرى. لم يلحظ محمود هذا الشيء على الإطلاق وعندما أخبرته به، ضحك على حرجي.

٨/٢٠

اليوم عندما سلمت حبيب خبزه نويت الرجوع على الفور، رحب

بي قائلاً: «آه، كنت انتظرك: أصرَّ أن أفطر معه. كان عندي وقت نصف ساعة حتى استراحة الظهيرة، فبقيت معه.

«أحسنت عملك»، قال لي وابتسم بمكر. «كيف وأي عمل أحسنت؟» سألته حيران.

«ضربة اليد السوداء يا ملعون».

يبدو أني بحلقت فيه كالأبله، لأنه ضحك وقال: «ابلع لقمتك قبل أن تختنق» وربت على يدي وأضاف: «لا داعي للخوف. أنا وحدي أعرف بالموضوع. المهابيل في الجريدة عرفوا الخبر من المخابرات. طبعاً ممنوع أن نكتب كلمة واحدة عن الموضوع، لكن عندما سمعت اسم حارتكم، فهمت القصة تماماً. المدير يظن فعلاً أنها عصابة حقيقية وبدأ يخاف منذ اليوم. تهانينا».

جاوبته بعد أن أخذت نفساً: «لن تقول لمريم ولا كلمة!».

سأل مندهشاً: «ولماذا مريم؟».

فأجبت: «أنا أعرف كل شيء، لكن الغبي زوجها لا يعرف». وضحكنا معاً كالمتآمرين وللمرة الأولى أشعر بالقرب منه. أحياناً يحتاج الإنسان لزمن طويل حتى يتمكن من رؤية قلب الآخرين.

«هل تريد فعلاً أن تصبح صحافياً؟ الواقع أنك الآن صحافي، لكن إذا أردت تعلم بعض الأشياء الصغيرة ف. . . .».

قاطعته متحمساً: «نعم. علمني، رجاءً».

«اعتباراً من اليوم تأتي كل يوم لساعة من الزمن بعد الساعة السادسة مساءً لتتدرب. سأريك بكل سرور بعض التفاصيل، يا زميل»، قال وحضنني لأول مرة عندما ودعته.

٨/٢٦

«صار لنا ستة شهور بالضبط»، قال لي العم سليم وتابع: «هل أنت نادم على قرارك؟».

كنت قد نسيت اتفاقنا منذ زمن بعيد، لكن هذا الصديق لا يقول شيئاً عن عبث، ووعده مقدس.

جاوبته: «لا. أنا سعيد ببقائي هنا». وفعلاً أنا غير آسف على قراري، فهنا في دمشق أيضاً سأصبح صحافيا.

٨/٢٩

اليوم مر الأستاذ كاتب على مخبزنا وسلم أبي نسختين من المجموعة الشعرية، حيث طبعت قصائدي. عندما رجعت كان هو قد ذهب، إلا أن عينيّ أبي كانتا تلمعان وهتف بفخر: «هذا هو شاعري الصغير»، لم يفهم جارنا البلاط ولا الزبونة العجوز من هو الشاعر وما هو سر ابتهاج أبي، الذي أسرع في تسليمهم الخبز وحضنني، ثم طلب لنا كأسي شاي.

«ماذا تعطيني إذا بشرتك بشارة حلوة؟»، شوّقني. فهتفت: «القصائد؟... نشروها؟!».

«يا بخيل» هتف أبي مبتهجاً وقال: «مع أني كنت أريد أن أبشرك أنا؟ طيب؟ مو مشكلة. ها هي» وسحب الكتابين من الخزانة. خفق قلبي بشدة حتى أني لم أعد قادراً على التنفس. وبركبتين مرتعشتين جلست على كرسي دوارٍ ونظرت إلى الكتب.

عنوان الكتاب هو (الشجرة الطائرة ـ شعر الشباب). عنون الناشر المجموعة باسم قصيدتي. الكتاب رائع! الغلاف مرسوم بالالوان المائية. قمر أزرق ينظر إلى شجرة تطير والأوراق لها أشكال مختلفة فتبدو مرة كنجوم وأخرى كالسنونو. انزلقت يدي على الصفحات وبحثت عن اسمي في الفهرس ثم في داخل الكتاب.

كما أنه قد وردت معلومات عني. ففي المقدمة يتكلم الناشر عن لقائي به ويقول إنه كان لديه مشاكل مالية في نشر الكتاب، لكنه وبعد الحديث معي ـ وهنا يذكر اسمي ـ اقتنع بوجوب طبع الكتاب مهما كلف الأمر. يا الله! يا له من يوم! أخذت معي الكتاب في جولة الظهر وكلما أوصلت الخبز إلى زبونين، كنت أجلس في مكان ما وأقرأ وأقرأ بنهم. قصائد الشباب الآخرين أيضاً عظيمة.

لم يكن حبيب في البيت. أرادت مريم أن أعطيها الكتاب، لكني قلت لها، عليها أن تشتري نسخة منه إذا أرادت، فهذه النسخة لحبيب والأخرى سأحتفظ بها لي ولأهلي ولمحمود. وطرت إلى البيت طيرانا وعندما مررت بباب نادية طرقت عليه. ما فكرت قط بالأخطار ولا بإخوتها. أطلت أمها مبتسمة ونظرت إليَّ باستغراب. «نشروا قصائدي، أريد أن أريها لنادية».

وفوراً جاءت نادية مهرولة وقالت: «حظنا سعيد، الاثنان ليسا هنا. جميل. رائع» همست لي ومسدت بأحن يد في العالم على القمر في غلاف الكتاب ثم على وجهي. دفعتها إلى الممر المظلم وقبلت شفتيها. «آه، لهذا تكتب القصائد إذاً»، داعبتني وضحكت. ركضت إلى البيت على جناح السرعة. ظنت أمي أني جننت. كنت أغني

بصوت عال مع أني لم أفعلها بعمري، فأنا أعرف أن صوتي كريه إلى حد أن الغراب يذرف دمعة شفقة عليَّ عندما يسمع غنائي والحساسين تنتحر، لهذا أرحم نفسي والآخرين من غنائي، لكن اليوم غنيت كالمجنون بكل اللغات التي أعرفها ولا أعرفها. ضحكت أمي وسألت، إن كان ـ لا سمح الله ـ لدغتني أفعى. قلت لها يجب أن تخرج هذه الصرخات، لأني كنت أحبسها طوال أيام وشهور في صدري. وخاصَرتُها مهللا ودرت بها. كادت تغشى من الضحك.

رويت بعد أن هدأت قليلاً: «قال الأستاذ كاتب إنه سيلقي قصائدي في الصف حتى يتذكرني التلاميذ وسيلقيها كل عام كي لا ينسوني». بدأت أمي بالبكاء: «الأستاذ كاتب هذا إنسان عظيم. نحن فقراء كثيراً، لكن العذراء ستستجيب لدعواتي وتحمي حياته. فهي تسمع دعاء الأمهات دائماً».

رجوتها أن تتوقف عن مثل هذا الكلام المحزن، فنحن نريد أن نحتفل لا أن نبكي. أخرجت من جيبي ورقة بعشرين ليرة وأعطيتها لها لتشتري كيلوغرامين قهوة وواحد شاي.

«وأنا؟» تدخلت ليلى على الخط وكأن الجيران وحدهم سيشربون الشاي! طيب، أعطيتها ليرة كاملة. اشترت في العصر زبدية بوظة وفستق وعلكة وغزل البنات، ثم شعرت بالغثيان، فأعطتها أمي فنجان يانسون ثقيل. ليلى تظن أنها مرضت لأني لم أعطها الليرة من كل قلبي. إنها مجنونة ناكرة جميل بلا شك!

ملاحظة: كنت عند حبيب في الساعة السادسة مساء. لم يكن إعجابه بالكتاب الذي أهديته إياه قليلاً. قال لي: «إذا القوم قالوا من الفتى..» وشرح لي ساعة كاملة كيفية كتابة المقالات.

الأحد: اليوم تناول العم سليم طعام الغداء عندنا. كان الجو عظيماً. مدح أبي الشاي الجيد، الذي تبرعت به.

٩/١

أهلي يطلعون كل الجيران والأقارب على الكتاب.

لا يكل حبيب من وصف العمل في الجريدة وكيفية كتابة المقالات بشكل مشوق. أما هو فإنه غير سعيد بعمله. سيساعدني لأتخلص من العمل في المخبز، فأحد أصدقائه يملك مكتبة في الصالحية. أحوال أبي تحسنت وتخلصنا من الديون وإيراد المخبز يكفي نفقات عيشنا.

٩/٣

روى لي محمود ما الذي جرى أمس على حلبة الملاكمة:

أشهر ملاكمي سوريا حشاش وأزعر من الدرجة الأولى ورياضي من الدرجة الثالثة. لم يفز بأية مباراة مع الجوار العربي. كل ما كان يقوم به سنة بعد سنة بطح خصومه السوريين الضعفاء أرضاً، فيحتفل هؤلاء به بطلاً بلا منازع. منذ أسابيع ملأت الملصقات الجدران والشوارع في دمشق، فقد تحدى ملاكمنا بطلاً من الولايات المتحدة الأميركية. قبل المستر بلاك فاير التحدي وجاء إلى دمشق. بلغ ثمن تذكرة الدخول في السوق السوداء عشرين ليرة بالتمام والكمال. كان الكثيرون يرغبون رؤية هزيمة المتبجح السوري ويقفون في صف

الضيف الأسود، خاصة وأنه ذكر سوريا والعرب بأحسن الكلمات. أجرت معه الصحف والمجلات والراديو لقاءات ليلاً ونهاراً في فندق سميراميس الغالي، حيث نزل ضيفاً هناك. الآخرون، أنصار الملاكم السوري المتعجرف، رغبوا في أن يبرهنوا على أن بطلهم العملاق أكثر من مجرد كتلة شحم. كانت أخبار النزال شاغل الناس. لا أحب الملاكمة على الإطلاق، لكن محمود تمكن من الحصول على تذكرة دخول من أحد الصحافيين في المقهى.

يقال إن الملاكم الأميركي كان مرعباً حقاً. كان يزعق بالانكليزية ويحاول التهجم على المشاهدين في الصفوف الأولى، الذين يسخرون منه بكلمات بذيئة. ثم بدأ النزال. انتهت الجولة الأولى بهدوء. جاءت الجولة الثانية لمصلحة الملاكم الأميركي. شجع الجمهور الملاكم السوري المهزوم، فهجم هذا في الجولة الثالثة على خصمه بلا هوادة وأشبعه ضرباً. تمكن الأميريكي من الوصول إلى زاويته بجهد جهيد وصفق المشاهدون، سواء خصوماً أم مشجعين، للعملاق السوري وحرضوه ليوجه إلى خصمه ضربات قاتلة في الجولة الرابعة وفجأة أصاب هذا أنف خصمه بقوة، فترنح هذا وبدأ بالصراخ! وبأي لغة؟ بالعربية! هرب أمام العملاق وصاح في الصالة أنه ليس أميركياً، بل فلسطيني: «النجدة يا عالم، النجدة يا مؤمنين، الوحش هذا ينوي أن يقتلني. ما كان الاتفاق هكذا. يا إخوان والله العظيم ما اتفقنا على هكذا ضربات». كرر استغاثاته واختبأ خلف الحكم، فأصابت هذا لكمات الوحش السوري الذي انفجر غضباً بعد أن هاج الجمهور. كان كل ما يأمله العملاق السوري، هو إسكات خصمه بضربة قاضية، لكنه

كان يصيب الحكم وحده. بدأ المتفرجون بالشغب والهياج. كسروا الكراسي وتركوا الصالة بعد عراك طويل مع الشرطة.

كتبت الصحافة: «كان المسكين فلسطينياً من مخيمات اللاجئين شارك في هذه التمثيلية الدموية لأجل قليل من المال وعدة أيام جميلة في الفندق. كان الملاكم السوري قد وعده بألا يضربه بقوة لتستمر المباراة خمس عشرة جولة ويسقط الضيف بالضربة القاضية بإشارة من ملاكمنا».

عندما رويت الخبر للعم سليم، ضحك ثم قال: «أترى هذه اللعبة، يا بني، إنها تماماً مثل السياسة في البلاد العربية».

٩/٥

يصر عليَّ حبيب أن أفاتح والدي بموضوع العمل في المكتبة. صديقه موافق على أن أعمل عنده، فهو يحتاج عاملاً يحب الكتب وأيضاً العم سليم يشجعني على الجرأة فلقد قال لي اليوم: «إما الآن أو لا». علي أن أستغل الفرصة أخيراً، علي أن أعملها معتمداً على نفسي من دون طول تفكير وتردد. أحياناً أقلب المواضيع في ذهني كثيراً. غداً سأغامر.

٩/٦

شيء خيالي الجمال! عندما قلت لأبي إني أريد ترك المخبز لأعمل في مكتبة، أومأ فعلاً بالموافقة. «مكتبجي مهنة محترمة». صمت لحظة

ثم أعاد القول: «مكتبجي! هذا شيء جيد، أنت لم تُخلق للعمل في المخبز. كنت أعرف هذا. أنت تحب الكتب، إذاً إعملها».

هنأني حبيب وأمي والعم سليم بوجه خاص. الآن يجب أن أبحث عن صانع لأعلمه شغل المخبز والطريق إلى دور زبائني أسبوعاً ثم أخرج من دون عودة. وحدها مريم لم تفرح بالخبر، لكنني طمأنتها بأني سأزور صديقها حبيب كل يوم. لم يظهر عليها أي اندهاش بكلمة «صديقها».

٩/١١

منذ ثلاثة أيام وأنا أعلم الصانع الجديد. إنه شاب ذكي من قرية على الحدود مع لبنان وعنده طموحات كثيرة. فهو يريد أن يصبح ممثلاً وصوته رائع، وإذا غنى في المخبز يستمع إليه حتى أبي. ليس صوته وحده هو الجميل، إنما يقدر على أن يقلد ممثلين مشهورين تقليداً رائعاً وأفضل من يقلدهم هو شارلي شابلن. بعض المارة يلوون شفاههم ويقولون إن المرء يجن إذا قام بمثل هذه الحركات. سيصبح ممثلاً إذا كان عنده صديق جيد مثل العم سليم.

٩/١٥

اليوم كان يومي الأول في المكتبة. ومع أنها ليست كبيرة جداً يعمل فيها خمسة عمال على الأقل. واجبي هو حقيقة أداء الأعمال السخيفة: جلب كراتين الكتب من المخزن، تفريغها وترتيبها على

الرفوف، مسح الرفوف والواجهة، تحضير الشاي، ولا شيء آخر. لم أبع أو ألف كتاباً واحداً، فهذا يفعله العمال الآخرون المتمرسون.

صاحب المكتبة رجل غريب الأطوار. يقول إن علي تعلم كل شيء من الصفر وإلا لن أصبح بائع كتب جيداً وإنه كان في زمانه يعمل حتى في بيت معلمه وحديقته. لا بد أنه يبالغ قليلاً، لكنه يعتبر حبيب أفضل أصدقائه.

أكسب نصف ما كنت أكسبه في المخبز، لكني هنا لا أتعب نصف تعب المخبز. لدينا استراحة ظهر لمدة نصف ساعة واليوم قرأت فيها قصة قصيرة لكاتب روسي. قصة جميلة وحزينة.

٩/١٨

كان يوم محمود معتّراً. زبون القى نظرة بمغزى على مؤخرته. في البداية كان الزبون لطيفاً جداً معه ودعاه إلى كأس عصير على حسابه، لكن الرجل وبشكل ما لم يعجب محمود فرفض دعوته بأدب جم. وفجأة ادعى هذا الحقير أن القهوة رديئة فجلب له محمود فنجان قهوة آخر وطازجة. فقال إنه يريد شاياً. قدم محمود القهوة لزبون آخر وجلب للرجل الشاي، لكنه تواقح. صرخ في محمود محتجاً أنه لمس حافة الكأس بيده القذرة، كما قال، ولن يشرب منه، فقدم له محمود كوباً جديداً. شرب الرجل شايه، ثم ذهب إلى صاحب المحل حيث اشتكى على محمود مدعياً أنه قال: «هاك، أشفط أخيراً شايك النتن». لم يقل محمود هذا، إلا أن معلمه صدق الزبون وشد أذن محمود. فجن محمود ولكم الزبون في بطنه، فطرده معلمه من العمل.

إنه لا يجرؤ على إعلام والده ويحتاج الآن إلى عمل آخر بأقصى سرعة.

٩/٢٥

مضى على هذه الحادثة أسبوع ومحمود يبحث عن عمل من الصباح إلى المساء ولكنه لا يجد. كان علي اليوم أن أعطيه ثلاث ليرات كي يريها لأبيه، فقال لي إنه لن ينسى فعلي أبداً. أنا أصدقه. إنه صديق جيد. سأظل أعطيه من مدخراتي ثلاث ليرات في الأسبوع حتى يجد عملاً، فقد وفرت حوالى ٢٥٠ ليرة.

١٠/٢

ها قد مر الأسبوع الثاني ومحمود لم يوفق في العثور على عمل. أعرف أنه يشعر بالذل والإهانة في بحثه الدائب عن لقمة العيش ويكره بحقد ذلك الزبون الذي دمر حياته، فهو يذهب كالشحاذ من محل لآخر. ربما وفق اليوم لدى خياط يهودي في سوق الحميدية. سألت صاحب المكتبة، لكنه لا يحتاج عمالاً آخرين.

الساعات التي أقضيها عند حبيب تزداد متعة يوماً بعد يوم. عمل الصحافي متعدد الوجوه ومشوِّق.

سيتطوع شقيق نادية الكبير في الجيش. الجيش هو المأوى المناسب لهكذا مساطيل ومهابيل.. بعد أسبوع سنتخلص منه. سيعمل دورة تدريبية على الرادار في الكلية العسكرية في شمال البلاد، على ما أظن حلب.

شقيقها الآخر يتابع الدراسة، لكنه في كل الأحوال ليس سيئاً مثل الأخ الكبير.

١٠/٩

وأخيراً انتقل شقيق نادية إلى حلب، اللهم، درب يسد وما يرد، واحتفالاً بهذه المناسبة التقينا أنا وهي ساعة كاملة. أمها تعرف كل شيء ووصتنا أن نكون حذرين وأن تعود نادية إلى البيت في الوقت المحدد (شقيقها الآخر يعود من المدرسة الساعة الرابعة ووالدها من العمل الساعة الخامسة مساء). ما أروع أن أشعر بأصابعها الرقيقة في يدي من جديد.

طلب مني حبيب ان أكتب له مقالاً عن العمل في المكتبة لأتمرن على الكتابة. كما علي أن أجري لقاءً مع صاحب المكتبة وهذا ما فعلته فعلاً، لكن الرجل يتكلم كالشلال، بحيث لم أتمكن من كتابة الكثير من كلامه. ثم اشتغلت على المقال وشذبته عدة أيام.

قرأه حبيب ورماه غاضباً وصاح: «مصيبة. مصيبيبة. ما الذي علمتك إياه أنا الأحمق؟ ها؟ ما هذا؟ رصف كلمات ممل». ثم هدأ، وكشف لي كل ما فبركته.

١٠/١٠

وجد محمود عملاً جديداً. يقول إن معلمه عجوز لطيف ومكسبه ليس سيئاً، كما أن والده لم ينزعج لأنه بدل العمل. كان ينوي أن يرد لي الليرات الست بالتقسيط، لكني أهديتها له، ما أثلج صدره.

ذهب أهل نادية لزيارة أحد معارفهم وبهذا خلي لنا الجو وذهبت إليها. للمرة الأولى أقبلها قبلة حقيقية. قبلت رقبتها، صدرها وبطنها. جلدها ناعم جداً. تأوهت بسعادة وقالت لي مؤنبة: «عندك خبرة كثيرة، ها!».

ادعيت بأني أعرف المزيد وقلت إذا كان مشوار أهلها أطول لأريتها أكثر. شعرت بنفسي قوياً بهذا الادعاء، لكن ماذا لو صدقته نادية فعلاً؟

١٠/١١

يتشدق المذياع ليلاً ونهاراً بدعوة الناس إلى بذل المزيد من الجهد في العمل. العم سليم لم يعد يفهم العالم. «هؤلاء الأغبياء»، كان يكرر القول بينما نحن نشرب الشاي ونسمع المذياع وعندما بدأ مغن بمدح العمل في الحقول والمعامل (كانت الأغنية تقول: أحن إلى قبضة المنجل وضربة المطرقة على السندان) أطفأ العم سليم الراديو بقرف وقال: «كذاب! أكيد ما لمس في حياته قبضة المنجل. فالقبضة التي يحن إليها هذا الغبي تحرق الجلد. لازم يحصد مرة واحدة بعمره في شهر حزيران ويعمل على البيادر ووقتها سيغني آه يا ظهري، يا ما أحلى عيشة التنابل في الفرشة بالفي».

١٠/١٢

فرصة سعيدة. أراد العم سليم أن يقص شعره وأنا أيضاً. تمشينا

رويداً رويداً في الطريق إلى باب توما. ضحكنا كثيراً عند الأرمني العجوز، الذي كان معتكر المزاج بشكل استثنائي اليوم. سأل الصانع العم سليم ما إن دخل الصالون: «أتعرف ميخائيل؟».

طبعاً كل الناس تعرف ميخائيل العملاق وهو جزار يربي الحمام على سطحه. غالباً ما تقوم حروب كشاشي الحمام بين بعضهم البعض وبينهم وبين الجيران. بين بعضهم البعض بدواعي الحسد وبينهم وبين الجيران لأنهم كثيراً ما يرمون حماماتهم بالحصى وقشور البرتقال وغالباً ما تسقط الحجارة على رؤوس الجيران وفي صحون وأواني الطعام والشراب. كما يترك الحمام ذرقه على الغسيل وعلى المربيات والخضار والفواكه التي تجفف على الشرفات.

قال الصانع: «مساء يوم من الأيام كان ميخائيل جالساً يتناول العشاء مع زوجته عندما سمع فجأة وقع خطوات حذرة على سطحه. حمل عصاه وطلع خفية على السطح. كان أحد خصومه ينوي سرقة أفضل حماماته. حمامة ذات جمال نادر، يبلغ ثمنها مائة ليرة. عندما كان الحرامي على وشك فتح القفص أمسك ميخائيل برقبته ورماه على الأرض وانهال عليه ضرباً بالعصا وأثناء هذا كان ينادي زوجته لتطلب الشرطة، ففعلت. في هذه الأثناء حمل ميخائيل اللص الضعيف المغمى عليه تحت إبطه وكأنه كيس صغير من الطابق الأول وحتى عتبة الدار وانتظر الشرطة ونادى بينما هو يستند بيده اليسرى الضخمة إلى عصاه واللص تحت إبطه اليمين: «أين هي الحكومة التي تحمي مواطنيها؟». كان المنظر مضحكاً للغاية.

ترقب الجيران مشاهد مسلية وانتظروا معه. بعد لحظات جاء

شرطي عجوز لاهثاً على دراجته، فتح طريقه بين جمهرة الجيران وسأل عما جرى. كان الحرامي قد استعاد وعيه قبل حين، لكنه انتظر حتى دنا منه الشرطي ووقتها حرر نفسه من ذراع ميخائيل القوية وارتمى على قدمي رجل الأمن والنظام: «أرجوك انقذني. هذا الرجل يريد أن يقتلني». فصاح ميخائيل غاضباً: «لازم تضعه في الحبس». تطلع الشرطي في اللص المرعوب، الذي كان رأسه ووجهه متورمين كلياً وقال: «لازم ننقله إلى المستشفى وليس إلى السجن. الأحسن أن تأتي له بكأس عصير ورباط وقليل من اليود وإلا مات وسيكون علي وقتها أن ألقي القبض عليك بتهمة التعدي والقتل».

«ليموناضه! ولماذا لا آتي له أيضاً بكأس عرق وسيخ كباب؟» زأر ميخائيل، الذي لم يعد يفهم الدنيا. رفع عصاه وهوى بها على رأس الشرطي، الذي أغمي عليه وانطرح أرضا».

ضحك العم سليم بأعلى صوته، لكن عندما غمغم المعلم بالأرمنية سكت الصانع وأسرع في قص الشعر، لكنه كان يضحك بين الحين والآخر ويغمز للعم سليم.

١٠/١٣

في الفترة الأخيرة أقرأ كثيراً وأناقش حبيب في ما أقرأه. معلمي لا يمانع القراءة في المكتبة أو حتى أن آخذ معي كتاباً إلى البيت، شرط ألا أثني صفحاته أو أعيد الكتاب ملوثاً ببقع الزيت.

قرأ حبيب الصيغة الثانية لمقالي عن صاحب المكتبة وقال

بجفاف: «ماشي الحال» ونصحني بأن أضع فيه مزيداً من الحيوية والتفاصيل، كي يفهمه من لا يعملون في المكتبات أيضاً.

١٠/١٥

لا يستطيع أحد أن يميز في دمشق بين الواقع والخيال. يقال إنه هنا على الزاوية صار رجل عادي اسمه شاوول، مسيحياً ومؤسساً للكنيسة باسم بولص، نتيجة لرؤيا رآها. كان شاوول يلاحق المسيحيين وذات يوم جاء من القدس إلى دمشق ليلاحق أتباع المسيح في هذه المدينة، ليأسرهم ويقدمهم للمحكمة. ويقال إن المسيح ظهر له على أبواب دمشق بهيئة نور وأنبه وعاتبه لأنه يلاحقه. وسقط شاوول على الأرض مغشيّاً عليه وعندما استعاد وعيه كان قد صار أعمى. ثم فتح له رجل اسمه حنانيا عينيه وجعله يؤمن بالمسيح.

حارة حنانيا لا تبعد عن حارتي إلا مئات الأمتار وفيها كنيسة صغيرة تحمل اسم حنانيا. يقول العم سليم إن لهذا الحدث العجائبي نكهة شامية خاصة. إنه اختصاص شامي بحت. صحيح أن فولاذ دمشق وحريرها مشهوران، لكني لم أسمع بهذا الاختصاص الدمشقي. يقول العم سليم إن دمشق تستورد كل فترة شاوول وتعمل منه بولص ثم تطلقه على البشرية. بعد الحدث صار بولص مسيحياً وصار يُلاحَق بدوره. اختفى فترة طويلة عن أعين الجنود الذين فتشوا عنه لأنه خانهم. ويقال إن المسيحية ما كانت ستنتشر في كل أنحاء العالم لولا بولص، فهو باني جهاز الكنيسة كله. ما الذي كان سيحدث في العالم

لو أن بولص هذا اكتشف أو مات آنذاك وهو يتسلل في ليلة ظلماء عبر حارتي وهرب أخيراً من مكان في نهايتها يقع على سور دمشق مختبئاً في سلة؟ هل علي متابعة التفكير أم أني أهذي؟ حارتي أنا، ببيوتها الطينية أهدت للعالم أجمع نهجاً جديداً لأن بولص هرب عبرها! (يقولون إنه اضطر للانتظار في آخر كوخ على السور يومين كاملين حتى خلى له الجو). هل هذه خرافة؟ المجنون معه حق عندما يقول إن الحياة عبارة عن قوس قزح بكل أطيافه. وبعض الناس يرون منه فقط لوناً فاقعاً ويهتفون: «ما أجمل هذا القوس الأخضر!» لأنهم لا يرون إلا اللون الأخضر، لكن قوس قزح سيكون مملاً إذا كان أخضر فقط. فالألوان الأخرى تحديداً، الألوان المختفية برشاقة ورقة في الخلفية، هي التي تصنع قوس قزح. وحارتي هي أحد هذه الألوان الخفية.

كلمني حبيب عن جمهورية القرامطة في القرن العاشر. لم يكن في هذه الجمهورية سلطان أو أغنياء، ولهذا لم يكن فيها فقراء أيضاً. لم يكن المواطن يملك أكثر من ثيابه وسيفه. كما كانت للنساء أيضاً كلمة ويحق لهن أن يطلقن أزواجهن وكان للأطفال روضات. عملية طحن الحبوب، التي كانت تنهك النساء وحدهن وتقضي عليهن، صارت تتم في المطاحن المركزية. كانت هيئة مكونة من ستة أشخاص تقود الجمهورية وكان يحق لمجلس الجمهورية أن يحل هذه الهيئة متى شاء. أعضاء هيئة الشورى لم يحصلوا على أجر على عملهم هذا وكان عليهم كسب عيشهم من أعمال أخرى. كان الأطفال ينشأون دون ديانة ودون محرمات. أعلنت الجمهورية مساواة جميع البشر

وألغت الرق، الذي كان يعتبر قضاء من الله. كما أعلنت السلم مع جميع شعوب الأرض. دام عمر الجمهورية ١٥٠ عاماً وامتدت رقعتها من الخليج حتى العراق وسوريا، لكن أعداءها اللدودين، حكام الدول المجاورة، اتفقوا عليها وسقطت الجمهورية المكروهة تحت سنابك خيولهم. لم ينج طفل أو امرأة من أيدي أعداء الجمهورية، فقد اعتبروا كلهم مصابين. مصابين بعدوى أخطر جرثومة في كل زمان ومكان، جرثومة الحرية.

عندما يبدأ حبيب بالحديث عن القرامطة فإنه لا يستطيع التوقف وتلمع عيناه بشكل رائع. وحبيب هذا ذاته لا يصدق كلمة واحدة من حكاية بولص. يقول إنها خرافة مملة، اختلقها المسيحيون، ليكون لهم أيضاً أمكنتهم التاريخية وشخصياتهم المعتبرة. كلا، إنه لا يصدقها. لكن الكتب المدرسية لا تذكر شيئاً عن القرامطة وجمهوريتهم. هذا العصر الذي امتد على مدى ١٥٠ عاماً لا يستحق الذكر بسطر واحد في كتب التاريخ المدرسية، لكننا نعرف ما الذي فعله هارون الرشيد عندما لم يستطع النوم ليلة وما الذي فعله الخلفاء الآخرون ومتى حكموا ومتى ماتوا.

أمي تؤمن بكل حرف من حروف قصة بولص، لكن عندما رويت لها عن نساء القرامطة، قالت إن حبيب أخذ هذه الحكاية عن أمه ولا بد، فهي تعرف أن كل نساء الأرض يسردن مثل هذه القصص، ليس لأنها حدثت فعلاً، بل لأنها يجب أن تحدث.

لا يهمني الصدق والكذب في هذه الحكايات، فهي موجودة ونحن نعيشها ونعيش فيها يومياً.

منذ أيام يشغلني سؤال وحيد أوحد. كيف تمكن كتابة مقال عن الشحاذين؟ اقترحت هذا الموضوع على حبيب كتمرين، فوافق.

ينشر محافظ دمشق الجديد عساكره ليطاردوا الشحاذين، كي تخلو دمشق منهم خلال نصف عام. فهذا ما وعد به في خطابه الأول بعد استلامه للسلطة، لأن الشحاذين، في رأيه، يشوهون منظر المدينة في أعين السياح. تحدثت مع بعض الشحاذين ومع العم سليم وكتبت ثلاث صفحات. حبيب لا يحب المقالات الطويلة.

كتبت أن المحافظ الجديد غبي في رأيي. فهو يأمر بالقضاء على الفقراء عوض القضاء على الفقر. وإذا كان السياح سينقطعون عن زيارة المدينة بسبب الشحاذين، فيجب علينا إذاً أن ننصب لهؤلاء تمثالاً (هذا ما اقتبسته عن العجوز سليم). ينحدر المحافظ من إحدى أغنى عائلات الشمال، فأجداده كانوا يملكون ضياعاً بما فيها من السكان. أبوه يملك مصرفاً. وها هو الابن يريد القضاء على من فقدوا خبز يومهم بسبب أجداده وآبائه. فكثير من الشحاذين كانوا حرفيين أو فلاحين سدت في وجوههم أسباب العيش وهاجروا إلى دمشق على أمل العثور على عمل، لكن أحلامهم ضاعت. كما كتبت أن الشحاذين يفهمون الإنسان وروحه أكثر من كثير من المدرسين في المدرسة، فحالما ينظرون إلى أحدهم يعرفون من النظرة الأولى كيف يخاطبونه. هل يستطيع المحافظ ذلك بعد عشر نظرات؟

١٠/٢٩

كان حبيب اليوم في أسوأ حالاته النفسية عندما زرته. جلست ساعة كاملة في الغرفة ولم ينطق بكلمة واحدة، إنما كان يدخن ويشرب العرق على أقل من مهله. شعرت بالملل ونويت الانصراف، فسألني فجأة عن مقالي عن الشحاذين.

ناولته المقال وبدأ قراءته. مع كل صفحة كانت أسارير وجهه تنفرج أكثر فأكثر. وفي النهاية قهقه وضرب على فخذه: «يا ولد! هذا جيد! جيد. أعطيت الموضوع حقه»، هتف ومد لي يده وقال: «أنت الآن زميل. لم يعد لدي ما أعلمك إياه. خلنا نشرب بصحتك».

وصب لي كأس عرق صغيرة. أنا لا أحب هذا المشروب، فهو حاد وله طعم الصابون. شربت شَفَّة وسعلت. ضحك حبيب. ثم أضاف قائلاً: «لا تنسَ أبداً القاعدة الذهبية للأديب: اكتب كل يوم حتى ولو نصف صفحة».

لن أنسى هذا أبداً.

ملاحظة: قال حبيب إن المقال جيد جداً، بحيث لن تنشره الجريدة الرسمية. وهذا في رأيه مديح لي. ما هذه الجريدة الحقيرة!

١١/٣

رضي عني معلمي لأني شرحت لزبونٍ مضمون رواية الأم لمكسيم غوركي شرحاً وافياً. جاء الزبون إلى المحل طالباً نصيحة. كان يرغب في أن يشتري لابنه كتابين، مجموعة شعرية (طبعاً أشرت

عليه بأفضل الدواوين: ديواننا) ورواية، لكنه كان يرغب في أن يعرف أولاً ما هو محتوى الرواية، خاصة وأن الكاتب روسي. كنت قرأت الكتاب قبل فترة وجيزة في ثلاث ليال وتقمصت في هذا الوقت شخصية البطل. إنها أفضل رواية قرأتها حتى الآن ولهذا استطعت اقناع الزبون وفرح صاحب المحل ببعض الليرات الزائدة في خزنته.

١١/١١

في مكتبتنا وحدها بعنا مائة نسخة من المجموعة الشعرية. كتب الناشر رسالة ملؤها المحبة والشكر، عبر فيها عن شكره لتعاوننا معه وأكد أن الكتاب لقي إقبالاً حسناً في كل مكان. وبعد هذه الرسالة عرض معلمي كتاب الشجرة الطائرة في واجهة المحل.

١١/١٢

يختلف حبيب عن العم سليم كثيراً، فرغم أنه يعزني جداً، إلا أنه لا يحدثني عن نفسه مطلقاً. وإذا ما كنت أعرف شيئاً عنه، فإني أعرفه عن طريق مريم. وهو في الفترة الأخيرة حزين جداً، يدخن ويشرب كثيراً.

حصل جنرال، هذا لأنه خطير جداً كما قيل، على أكوام من المال على شكل سبائك ذهبية وعملات أجنبية وهاجر إلى أميركا اللاتينية، حيث اشترى مزرعة كبيرة ويعيش الآن ببذخ لا مثيل له. نوى حبيب أن ينشر مقالاً عن هذا الحدث، يقول فيه إن الحكومة

رشت الجنرال بأموال طائلة كي يتركها تحكم على راحتها. قرّع رئيس التحرير حبيب على مقاله تقريعاً قاسياً مدعياً أنه ليس هناك أية إمكانية لنشر المقال. لكن ما خيب ظن حبيب أكثر، هو أنه تقاسم في المنفى مع رئيس هيئة التحرير هذا كل ما يملكه حتى لقمة الخبز. آنذاك أقسم الصحافيان المشردان لبعضهما أن يكتبا الحقيقة دائماً ولا شيء غير الحقيقة.

١١/١٦

اليوم حصل حبيب على تكليف بترجمة رواية من الفرنسية عن طريق أحد الأصدقاء. اسم مؤلف الرواية هونوريه دو بلزاك.

عندما زرت حبيب كانت نفسيته تحسنت قليلاً. كان قد بدأ بالترجمة. حبيب يحب بلزاك هذا كثيراً وقال إنه أفضل الكتاب الفرنسيين في القرن التاسع عشر. فجأة ضحك ضحكة جنونية وقال: «بلزاك فرصتي للخلاص».

لا أفهم ما يعنيه. هل ينوي ترك الجريدة؟

١١/١٨

في نهاية الصف التاسع أخرجوا نادية من المدرسة. لم يرد أبوها أن تحصل على أكثر من شهادة الإعدادية. هي كانت تحلم بأن تصبح طبيبة أطفال، لكن والدها يريدها أن تعمل في مكتب محاماة مشهور.

١١/١٩

اختفى المجنون صاحب العصفور الدوري. أخبرنا صانع الحلاق أنه أعتقل لأنه جاسوس وأن الدوري لم يكن عصفوراً عادياً، بل كان يحمل كاميرا دقيقة جداً يصور بها الأماكن الممنوعة.

١١/٢١

لم أجد حبيب في البيت. ربما نسي موعدنا. لم أجرؤ على أن أطرق باب مريم، فقد كانت الساعة السادسة ومن المؤكد أن زوجها في البيت.

١١/٢٤

منذ يومين لا أفكر إلا بحبيب. لقد اعتقل وأصبح خبر المدينة كلها. كتب مقالاً عن وضع الصحافيين المضطرين للكذب كي لا تشك بهم الحكومة. بحذق ومهارة تمكن من الضحك على الرقابة، فقد أراها مقالاً عادياً بحيث حصل على موافقة النشر وبهذا الختم سلم مقاله الآخر إلى المطبعة. بعد عدة ساعات بيعت كل نسخ الجريدة، ربما للمرة الأولى في تاريخها. اعتقل كامل هيئة التحرير بمن فيها رئيسها.

انزعج معلمي وشتم الحكومة التي لم تذكر حكاية الاعتقال في العدد التالي. ما زالت الجريدة الرسمية تنشر وكأن شيئاً لم يكن. فقط من ينتبه إلى أسماء المحررين المكتوبة بحروف صغيرة يعرف أن هيئة التحرير تغيرت.

اليوم طلبت من معلمي أن يمنحني إذناً بعد الظهر وأسرعت في المضي إلى مريم. ولمفاجأتي علمت أنها كانت تعرف كل الحكاية مسبقاً. كان حبيب أخبرها قبل اعتقاله وأخفى حقيبة ملفات ومفتاح شقته لديها وطلب منها أن تعطيني المفتاح، لكن لا أحد يحق له رؤية الحقيبة.

بكت مريم بكاء حاراً وقالت إنها لن تتحمل الحياة من دون حبيب وعليها رغم هذا أن تتظاهر بالسعادة أمام زوجها لأن أعماله تسير على خير ما يرام ويعاملها أحسن معاملة.

أخذت المفتاح وأسرعت إلى شقة حبيب. أحسست بإحساس غريب، فالشقة من دونه حزينة تماماً ولسبب من الأسباب بدأت بترتيب الشقة وبعد لحظات جاءت مريم أيضاً ومسحنا الشقة معاً. عندما ذهبت حوالى الساعة السادسة إلى البيت توجهت إلى خزانة الملابس لأرتبها، فرأيت صورة امرأة ألصقها حبيب على الباب من الداخل وكتب عليها بالخط العريض: «سأنتقم ما دمت حياً».

لا أستطيع فتح كتاب أو كتابة سطر واحد (عدا في دفتر يومياتي). حبيب رجل شجاع حقاً.

الخميس:

مضت ستة أيام وحبيب لا يزال في السجن. العم سليم غاضب على الحكومة. علم بالاعتقال من دوني، فهو يسمع راديو لندن واسرائيل كل يوم ظهراً وهذه ذكرت اسم حبيب وأذاعت مقاله. لم أذكر الموضوع لوالدي بكلمة واحدة، لكن لا يمكن إخفاء شيء على

أمي. بدأت بالسؤال عن نادية وعندما علمت أن أخبارنا جيدة، قالت: «أكيد صار شيء مع حبيب، أليس كذلك؟» واضطررت لإخبارها.

١٢/١

منذ أسبوع ونادية تعمل في مكتب المحاماة. عملها ممل بالنسبة لها. عليها أن تقوم بكل الأعمال التافهة، كعمل القهوة، توزيع البريد الوارد على المحامين، حمل البريد الصادر إلى مكتب البريد وأحياناً مسح الطاولات أيضاً. وفي الأسبوع المقبل ستذهب إلى دورة لتعلم الآلة الكاتبة، فقد تتمكن هكذا من تحسين وضعها في المكتب، فهي لا تريد أن تظل طوال عمرها تعمل قهوة.

المحامي مشهور جداً ويعمل في مكتبه خمسة محامين شباب ويعاملهم معاملة سيئة نسبياً. وهو لا يحترم حتى القضاة. يقول إنهم جميعاً تخرجوا من تحت يديه وهو من صنع منهم قضاة.

منذ أن بدأت نادية العمل نلتقي كل يوم في استراحة الظهر، فالمكتب لا يبعد عن مكتبتنا أكثر من ثلاثة شوارع. دائما انتظرها تحت، لأن معلمها لا يعجبه أن يرى واحدة من سكرتيراته الأربعة تلتقي بصديق لها.

١٢/٣

المشوار مع أمي للسوق حدث ممتع بحد ذاته. نادراً ما أذهب معها إلى سوق الحميدية البعيد نسبياً عن حينا في باب شرقي، وأيضاً لأن التسوق مع أمي يتطلب كثيراً من الوقت، لكنني رافقتها اليوم. دائما

أفاجأ من جديد بأن التجار يتعرفون على أمي من بين آلاف الزبائن الذين يتسوقون في السوق يوماً بعد يوم. وهم يبادرونها بالسؤال عن أبي وهي تسألهم عن زوجاتهم وأطفالهم وأحياناً تجلس في محل أحدهم لتستعرض ما عنده من قماش وثياب، تشرب معهم القهوة، تتحدث وتستمع إلى أقاصيصهم، ثم تنهض وتذهب من دون أن تشتري شيئاً، والتاجر لا يزعل منها حتى. لكن إن بدأت المساومة، فعلي أن أكون صبوراً كأيوب. واليوم كان يوماً من أيام المساومة.

وجدت أمي قماشاً أعجبها وسألت عن سعر المتر. قال التاجر سعره وأكد لأمي أنه عيّن هذا السعر الرخيص لأنها من زبائنه الدائمين وبدل أن تفرح، غضبت وعرضت على التاجر نصف السعر. لف التاجر القماش وأعلن أنه ليس أحمق ليبيع أفضل ما لديه بنصف السعر وعرض على أمي قماشاً أقل نوعية للسعر الذي عرضته. فحصت أمي النسيج الجديد بلمسة خفيفة من يدها وقالت إن القماش ليس سيئاً لكنها تريد شراء الأول وعرضت على التاجر عدة قروش أكثر، فصاح هذا مندهشاً واتهم أمي بقطع رزق أولاده، لكنه خفض السعر. توقع التاجر أن تحزن أمي الحساسة على قطع رزق أولاده، إلا أنها ضحكت وتمنت للأولاد الصحة والهناء وعرضت عدة قروش أكثر. هذه المرة كان رد فعل التاجر أرحم وأمرح. ذكّر أمي بالمرة الأولى التي تسوقت فيها عنده، قبل حوالى ثلاثين سنة وبأنه ما زال يعرف بالضبط أنها كانت ترتدي فستانا أزرق وأنها كانت جميلة جداً فيه (أمي ما زالت رائعة الجمال) كما وذكّرها بأنها ارتدت القماش الذي اشترته منه طوال عشرين سنة، ثم خفّض السعر قليلاً. لكن وعوض أن

تذوب أمي في كلامه المعسل جاء ردها قصيراً وجافاً وقالت، إنه كان آنذاك طيباً جداً لأنه كان تاجراً فقيراً، لكنه اليوم اغتنى ولم يعد يلين لزبونة قديمة تركت كل التجار وجاءت لتشتري منه (هذا غير صحيح. فقد فحصت القماش ذاته عند التجار الآخرين وسألت عن أسعاره) لكنها عرضت عدة قروش أكثر، فضج التاجر بالشكوى: «إذا سمعت أم الأولاد أني بعت القماش بهذا السعر الرخيص فإنها ستطلقني»، ضحكت أمي وقالت: «هذا لن يضرها بشيء، فربما وجدت تاجراً أجمل وأصغر. أنت صرت عجوزاً وبخيلاً» أضافت جملتها الأخيرة وعرضت عدة قروش أكثر. ضحك التاجر ومدح أبي لأنه تزوج امرأة مقتصدة وخفّض السعر قليلاً، لكنه أقسم بحجه إلى مكة أنها كلمته الأخيرة.

تظاهرت أمي بأنها لم تعلم أبداً بأمر حجه: «ماذا؟ أنت حاج؟ ما عرفت هذا، متى حججت؟».

فأسهب التاجر في وصف رحلته الشاقة إلى السعودية والوقفة الجليلة في الأرض الحرام مع آلاف الحجاج. ثم كف بلباقة عن الاسترسال، فقد كان يعرف أننا مسيحيون. وأضاف أنه سيحج في أقرب فرصة إلى القدس، مدعياً أن هذه المدينة هي ثاني أقداس المسلمين بعد مكة.

نهضت أمي وقالت أثناء الخروج: «الظاهر أنك لا تريد البيع. كنت أخذت كمية كبيرة»، ثم عرضت عليه سعراً جديداً، أعلى بعدة قروش من سعرها الأخير.

يائساً تنهد التاجر (أو تظاهر بهذا على الأقل) وأعطى أمي

القماش. نسي قسمه ولم ينس أن يرجوها ألا تذكر لأحد أنها اشترت القماش بهذا السعر الرخيص، فهو لا يريد أن يخرب بيته.

سعيداً بالاتفاق أخذت لفة القماش وأسرعت إلى البيت مع أمي، التي ـ ويا لدهشتي ـ مدحت التاجر وصدقه وقلبه الطيب وأنا توقف دماغي عن التمييز.

١٢/٦

قضيت وقتاً رائعاً مع نادية. للمرة الأولى نقضي ساعتين وحدنا. أوصتني أمها أن أحرس نادية وأعيدها للبيت قبل الساعة الخامسة. (حتى الآن لم أفهم قصدها بأن أحرس نادية. هل تعني أن أحمي نادية من نفسي!). سرت أمامها وهي لحقت بي ودخلنا سراً إلى شقة حبيب. استمتعت بروعة الاستلقاء إلى جانبها والتمسيد على جسدها البض. كما أنها هي بدورها قبلتني بقوة. مضى الوقت بسرعة البرق وفجأة بلغت الساعة الخامسة إلا ربعاً. أسرعت نادية بالعودة إلى البيت وأنا سرت الهوينا على مسافة بعيدة خلفها.

ملاحظة: تعتقد نادية بأن قبلاتي رائعة إما لأني أعرف امرأة متزوجة أو لأني أشاهد أفلام حب كثيرة. أقسمت لها بأني لا أحب أحداً غيرها. والأفلام! ربما شاهدت أفلاماً إباحية، لكنني لم أشاهد قط فيلماً يقبل فيه الحبيب بطن وساق حبيبته، أي تماماً ما تحبه نادية. وتواعدنا أن نلتقي كل يوم جمعة، يوم عطلتي في شقة حبيب، حتى لو خرج هذا من السجن. سأخبره ولا بد أنه سيتفهم الوضع، فهو أيضاً يحب مريم.

الثلاثاء:

مفاجأة سارة! بعد ثلاثة أسابيع من السجن أفرجوا عن حبيب. جاء قبل الظهر إلى المكتبة. اندفعنا للترحيب به وطلب معلمي عصيراً وشاياً. لكن المرارة كانت بادية على وجه حبيب ولم تظهر عليه علامات الفرح مثلنا. عندما طلب مفتاحه قال معلمي علي أن أذهب معه ودس في جيبي عشرين ليرة وهمس في أذني: «اشترِ له شيئاً».

ذقن حبيب شائبة، تليق به وتجعله يبدو أكبر سناً. عندما فتحت باب شقته، جاءت مريم لاهثة. كانت سمعت أصواتنا على الدرج. حضنها حبيب وقبلته هي.

عندما رأى الشقة دهش بترتيبها وقال ضاحكاً: «أظن يجب أن أدخل السجن مرة في الأسبوع». اختفيت مدة ساعتين لأتسوق له. أنا فهمان ولست بليد الحس! تمهلت بالشراء! عندما رجعت بأكياس مليئة، كانت مريم قد ذهبت. ابتسم حبيب بلطف ومحبة وفرح بالأغراض التي جلبتها له. حكى لي طويلاً عن السجن. لكنني الآن مرهق. غداً سأكتب التفاصيل.

الأربعاء:

ما عاناه حبيب في الأسابيع الثلاثة الماضية يبدو كقصة مرعبة من القرون التي انقرضت. تفاصيلها لا يقبلها عقل. لكن الأنكى من ذلك أنها حدثت في دمشق. حُشِر حبيب مع حوالي خمسة عشر شخصاً في زنزانة لا تتسع لأكثر من خمسة أشخاص. وهكذا كان على عشرة

مساجين أن يقفوا بجوار بعضهم البعض متراصين كي يتمكن الخمسة الآخرون من الاستلقاء لعدة ساعات، وهكذا بالدور. لم يكن التفاهم بين السجناء سهلاً دائماً، فقد جعلهم التعب عدوانيين، لكنهم تمكنوا بعد فترة من قهر البؤس واسترداد إنسانيتهم.

وضع حبيب كان صعباً جداً لأنه عضو في الحزب الحاكم. لم يتكلم معه الآخرون في البداية، فقد اعتبروه مخبراً، لكنهم بعد ذلك كشفوا له كل بشاعات حزبه، ما آلم حبيب إيلاماً أكثر من التعذيب الوحشي الذي تعرض له على يد الجلادين.

في البداية لم يمسه أحد بسوء وبهذا تمكن من تحضير نفسه للتحقيق، لكن هذا التحضير لم يكن له فائدة، فالمحقق لم يكن يريد أن يعرف لماذا نشر المقال، إنما اسم الجهة التي دفعت له ليشوه سمعة البلد. لم يشفع له كونه حزبياً قديماً عانى ما عاناه من أجل الحزب. فالمحقق بدى وكأنه آت من المريخ. نفد صبر حبيب فوضع الذنب كله على عاتقه وبرأ بذلك ساحة كل زملائه، حتى رئيس هيئة التحرير، لكن هذا لم ينفع. ففي اليوم الخامس عذب عذاباً شديداً، انهار على الأرض فاقداً الوعي ولم يستعد وعيه إلا في الزنزانة، حيث نسي السجناء الآخرون نفورهم منه واعتبروه واحداً منهم. أعطوه من سجائرهم المهربة وكشفوا له أسباب اعتقالهم.

في هذه الزنزانة كان أعضاء من مختلف الأحزاب والمهن والأديان والشعوب في سوريا وكان بينهم مجنون متهم بالجاسوسية، لا يكف عن الغناء عن عصفوره الدوري القتيل. والمجنون الذي يبحث عن قاتله. كانت أغانيه تقطع نياط القلب. كان وضع المجنون

سيئاً جداً ومرض عدة أيام. وهنا حدثت المعجزة، فقد طار عصفور وحط على الكوة وغرد كالمهووس. كاد السجناء أن يطردوه، إلا أن المجنون فرح بالعصفور وقدم له فتات الخبز الذي يوفره من طعامه. كان العصفور يأتي يومياً، لكن المجنون ازداد مرضاً في اليوم الثالث بحيث نقل من الزنزانة ومنذ ذلك اليوم اختفى العصفور أيضاً. رجوت حبيب أن يصف لي الرجل. أنا واثق أنه المجنون الذي أعرفه.

قال لي حبيب عندما ودعته: «الصحافة في هذا البلد شيء مستحيل». إنه ينوي الاكتفاء بالترجمة.

١٢/٢٠

حبيب منكب على الترجمة. اليوم كان مزاجه رائعاً، لكن عندما أعدت عليه السؤال: هل ينوي فعلاً الاستسلام بعد سجنه، صرخ في وجهي ومزق قميصه. صدره مزروع بالندوب المرعبة.

صرخ حبيب: «هذه هي الصحافة». غضضت طرفي، فقد أشفقت عليه. إلا أنه هدأ وضحكنا على رئيس هيئة التحرير الذي لا ينقطع عن الاعتذار في الراديو والجرائد، كي يتمكن من الحصول على مركز ولو صغير.

سألت حبيب إن كان في الإمكان أن آتي أنا ونادية مرة في الأسبوع إلى شقته. قهقه وقال: «مرة في سبعة أيام؟ هل أنتم رهبان؟ تستطيعون المجيء سبع مرات في اليوم». غمز لي ولكزني. لا بد أن أعلم نادية فوراً.

١٢/٢٣

من جديد تخاصمنا أنا وحبيب. ما زلت أعتقد بأنه في الإمكان القيام بالعمل الصحافي من دون جريدة الحكومة. لكن حبيب سأل بعدوانية: «وكيف؟» ولم أعرف جواباً، فرددت على الصراخ بالصراخ وقلت لو أني مارست الصحافة طويلاً مثله، لوجدت مئات الوسائل، إلا أنه عنيد ويترجم روايته باستمتاع. اليوم اتهمني بأني تيس لا يمكن إصلاحه. فليقل ما يشاء، فأنا لم أشعر حتى بالإهانة.

١/١١

اليوم رأيت المجنون. أطلقوا سراحه. كان مقرفصاً أمام المسجد الأموي صامتاً مثل أعمدته الحجرية. كان الناس يمرون به من دون أن يأبهوا به. أحياناً كان أحدهم يرمي له بقرش.

عرفته على الفور رغم أنه تغير كثيراً. شعره محلوق على الصفر، بشرته شاحبة. ندبتان مدورتان تلمعان على صدغيه كأنه كوي بقطعة معدنية. كان ساكناً تماماً في جلسته. لم يكن يهتم على الإطلاق بطيور الحمام التي كانت تقترب منه وتنقر الحب وفتات الخبز الذي ألقاه بعضهم للرجل. الحمام يجد الحماية والأمان في الجامع ولهذا تجتمع أسراباً أسراباً ولا تكف عن الهديل.

قرفصت إلى جانبه وكلمته. نظر إليَّ بعينين زائغتين وأعاد علي سؤالي: «كيف حالك يا عم؟ ماذا صار بك؟». لمس صدغيه بأصابعه المتخشبة الهزيلة وبدأ بالبكاء ثم نظر إلى البعيد صامتاً.

كم من العذاب الأليم عانى هذا الإنسان المسكين! لقد حولوا بتعذيبهم الوحشي هذا الإنسان الحكيم لكومة حقيرة من اللحم والعظم.

١/١٥

اليوم جرت مشادة حادة بيني وبين جوزيف. يزداد إعجابه بالجيش يوماً بعد يوم وينوي الالتحاق بالمظليين لأنه ضخم وقوي. يريد المشاركة في الحروب واستهجن بغضب نكتة المظليين التي رويتها له. سمعت النكتة من العم سليم، الذي لا يطيق كل جيوش الأرض:

يكلَّف مظلي بالقفز وراء خطوط العدو ليقوم بعمليات تخريب. يشرح له الضابط واجبه الصعب وكيفية أدائه: «لأن مهمتك صعبه جداً فقد أمنا لك مظلتين. بعد القفز من الطائرة تضغط على الزر الأخضر فتنفتح المظلة. إذا لم تنفتح، وهذا لا يحدث إلا نادراً، اضغط على الزر الأحمر وستنفتح المظلة الثانية مائة في المائة. إذا وصلت إلى المكان المحدد تجد أمامك دراجة نارية مسنودة على شجرة وبهذه الدراجة تنطلق إلى موقع مهمتك». يقفز المظلي، يضغط أكثر من مرة على الزر الأخضر والمظلة لا تنفتح. يقول لنفسه طيب، ويضغط على الزر الأحمر، مرة، مرتين، ثلاثة، لكن المظلة الثانية أيضاً لا تنفتح. فيلعن حظه: «ما هذا اليوم الخرى. أكيد إذا وصلت للأرض، سيكون أحدهم قد سرق الدراجة».

غضب جوزيف وقال لا يحكي هذه النكات إلا جبان مثلي أو رجل خرف مثل سليم. جرحني كلامه هذا عميقاً.

١/٢٠

كيف يمكن نشر جريدة من دون إذن الحكومة؟ تطبع الأحزاب السرية نشراتها وتوزعها على أعضائها الذين ينقلونها من يد إلى يد. حصلت على جريدتين من هذا النوع عن طريق أحد معارفي، لكنها تقتل من الملل. هل تستحق مثل هذه الثرثرة الغبية أن يضحي أحد بحياته لأجلها؟ لا.

انسحب حبيب من الحزب. أنا فرحان لفرحه. شربنا الشاي عنده أنا ومريم. ناضل في العمل السري ثمانية عشر عاماً وتحمل كل الإهانات الممكنة بسبب حزبه، لكنه لم يتحمله سنتين بعد استيلائه على السلطة.

١/٢٧

من جديد أردنا التفرج على فيلم ساخن. محمود دبر بطاقات الدخول. في هذه المرة نويت أن أفتش عن أستاذ الرياضيات وأحييه قصداً، لكنه لم يكن موجوداً، أو أني أنا لم أره على الأقل. قبل العرض ظهر رجل على المسرح وهتف في الصالة: «للأسف لا نقدر على عرض الفيلم. أخذ رئيس الشرطة الجديد علماً بالقصة وسيرسل الشرطة المدنية خلال نصف ساعة وإذا ضبطنا فسيغلق السينما». أطفأت الأنوار وفجأة بدأ فيلم لا طعم له لفريد الأطرش. ضجت الصالة وبدأ أحدهم بتمزيق القماش الغالي للمقاعد. بعدها قفز آخرون وبدأوا بالمشاغبات. من خلال الضحكات والصيحات الغاضبة كنا

نسمع أحياناً الحوار الناعم للفيلم الرخيص. محمود أيضاً أخرج سكينه ومزق بولستر مقعده.

ضحكنا على بطل الفيلم العاشق الولهان، الذي وضع كيلو من الدهن في شعره ليقول لحبيبته في حديقة: «أسبح مثل السحابة كلما رأيتك. أنا وأنت زهرتان في بستان الحب».

صرخ أحد المشاهدين: «حالا سأشحن الزبل لبستانكم» وإلى أن علمت إدارة السينما بالأمر وأشعلت الأضواء، كانت السينما مثل كومة زبالة.

يستحقون!

٢/١٣

لقد تغير حبيب. يضحك أكثر ويشرب أقل مما في السابق. يعمل في الترجمة كالمهووس. أحضرت له فطائر لحم رائعة، عملتها أمي خصيصاً له. لكنه لا يريد الحديث عن الجريدة.

الخميس: سألت العم سليم: «كيف ستنشر خبراً أو قصة ممنوعة بين الناس؟».

«أنا سآخذ سوطي وأروح للإذاعة، أفتح طريقي حتى الميكروفون بالقوة وأقول: سيداتي سادتي، هنا يتحدث الحوذي سليم. سأحكي لكم حكاية، من لا يريد أن يسمعها، يمكنه إطفاء الراديو خمس دقائق، فأنا لا أريد أن أقلّد رئيسنا وأجعلكم تشعرون بالملل لساعات شيباً وشباناً».

«وماذا ستعمل إذا جاء الجنود بينما أنت تتكلم؟»، ضحكت.

«طيب، وقتها يسمع الشعب تمثيلية حقيقية في الراديو».

العم المسكين لم يخرج من حارتنا منذ زمن بعيد. فأمام الإذاعة تربض اليوم عدة مصفحات. لن يتمكن العم من تجاوزها بسوطه.

٢/١٩

بعث معي حبيب هدية لأمي. فرحت أمي كثيراً بالشال الرقيق وقالت لا بد أنه ثمين جداً، فهذا الصوف الناعم مستورد من الخارج. وقالت إنها ستضعه على كتفها كلما شربت قهوة الصباح على الشرفة. ردت أمي الجميل بزجاجة من ماء زهر الليمون قطرته بنفسها. حبيب يحب هذه الرائحة كثيراً.

٢/٢٧

غاب حبيب ساعتين كي أتمكن من البقاء مع نادية في شقته على انفراد. ما زالت نادية تتحاشى حبيب. حكينا عن أحلامنا. ما أحلى احتضانها.

كتبت قصيدتين عن لقاءاتنا السرية.

٣/١٣

حصل حبيب على عقود ترجمة جديدة. قصتين بوليسيتين ورواية سميكة. الناشر راض جداً عن الترجمة السابقة. لا يشرب حبيب إلا

نادراً، لكنه يدخن كما في السابق مثل المدخنة. منذ الأسبوع السابق تغسل أمي ملابسه وتساعده مريم في ترتيب البيت، ما لا يجيده هو، كأن يديه مربوطتان وكأن له رجلاً ثالثة خفية تفركشه كلما أراد عمل أي شيء في المطبخ..

على العكس منه يغسل العم سليم ملابسه ولا يسمح لأحد حتى بترتيب غرفته، حتى لو كان مريضاً.

٣/١٥

وجدتها! اليوم ذهبت من جديد مع أمي إلى سوق الحميدية الكبير. ولأنها جلست عند أحد التجار وعرضت عليه نصف السعر المطلوب. علمت منها مسبقاً أنها تنوي شراء هذا القماش بالتحديد، لأنها لم تكف عن الحديث عنه منذ أيام واستعلمت عن سعره لدى التجار الآخرين. كما عرفت أنها ستتفق في النتيجة مع التاجر على سعر وسط، لكن هذه المساومة تدوم وتدوم. وكان معي حق. تركتها ورحت أتجول في السوق بين البائعين والمتسولين والزبائن كما والمتسكعين أمثالي. وعندما رجعت بعد نصف ساعة، كان التاجر يلف لها القماش راضياً قانعاً. لكن ما وجدته في السوق في هذا اليوم كان أهم من جميع أقمشة العالم. فالباعة الفقراء، الذين لا يملكون دكاكين، ينقلون بضاعتهم على عربات أو يعرضونها على بسطات ويبيعونها في وسط السوق. ومع أن أصحاب المحلات لا ينظرون إلى هذا بعين الرضا، فإنهم أيضاً لا يمنعونهم، خصوصاً أن بضاعتهم من النخب الثالث وأسعارها زهيدة جداً.

كان ولد صغير يصيح على بضاعته: «كلسات للكب! كلسات ببلاش. إشترِ وادعِ لي، الله يعوض خسارتي». وفي غمضة عين تجمع الناس حوله. على البساط العريض كانت مختلف أشكال وأنواع الجوارب. وتدافع الناس لأن سعر زوج الجوارب نصف ليرة فقط. اندفعت أنا أيضاً بين الناس والتقطت زوجاً.

ولما وصلت إلى البيت أردت تجريبها. كانت الجوارب مربوطة إلى بعضها بملقط عادي وعوض الورق الشفاف، الذي يوضع عادة في الجراب ليحافظ على شكله، وضع المنتج ورقاً قصها من جرائد قديمة من باب التوفير.

صرخت من الفرح، فقد ومضت في رأسي طريقة لنشر جريدة وتوزيعها بين الناس، من دون أن تتمكن الحكومة من منعها. أسرعت إلى شقة حبيب، لكنني وجدت البطاقة الحمراء على الباب. ما يعني عدم السماح بدخول أحدنا، ما دام الآخر مع صديقته في الشقة، فأنا عندي مفتاح ثان. كنت قد نسيت أن زوج مريم سيقضي يومين في بيروت.

سأشرح فكرتي لحبيب غداً.

٣/١٦

حكيت فكرتي لمحمود فأعجب بها أيما إعجاب.

كتبت قصة طويلة نوعاً ما على قصاصة رقيقة ووضعتها في الجورب. لا يمكن ملاحظة شيء من الخارج.

«وماذا لو رمى الناس الورقة؟».

«دعهم يعملوها، لكن إذا انتشر أول خبر عن جريدة الجوارب، لن يرمي أحد قصاصة قبل أن يقرأها».

اقترح محمود ألا نكتفي بتوزيع الجريدة في الجوارب فقط، بل في المراحيض العمومية ودور السينما أيضاً. روى لي أنه تعرف ذات يوم في القهوة على كاتب عجوز، قضى سنوات طويلة في السجن وكتب كتاباً على ثلاثمائة ورقة سجائر وتمكن من تهريبه إلى الخارج وطبعه.

٣/١٨

سخر مني حبيب. كدت أبكي، إلا أنه صمت وسرح في أفكاره. قلت له إننا، أنا ومحمود، سنبيع الجوارب. سيتم البيع بسرعة البرق ونغير مكان التوزيع كل يوم بين دمشق وضواحيها.

«وماذا تعمل إذا لقطوك؟».

«إذا لقطوني أدخل السجن مثلك ومثل أبي ومثل آلاف الناس. لكنني أريد أن أصبح صحافياً، يبحث عن الحقيقة ويكشفها للناس».

تأمل حبيب الفكرة طويلاً، فتح باب خزانته شارد البال ونظر إلى صورة زوجته. فتأكدت أنه سيشاركنا العمل.

ناقشنا المشروع طويلاً. غداً سأستعلم عن مصدر الجوارب ونلتقي عنده بعد غد.

٣/١٩

ينتج معمل صغير، قريب من النهر، الجوارب الرخيصة. أربعة أزواج بليرة سعر الجملة. سنحصل أيضاً على مكسب كبير.

حبيب سيكتب مقالاً عن السجن. أنا أريد الكتابة عن مجنون دمشق. فهذا المجنون يمثلنا جميعاً وعصفوره الدوري يمثل الأمل. وما فعلوه به، ينوون فعله بنا جميعاً.

جاء محمود حوالى الساعة الثامنة. آن الأوان ليتعارف أفضل أصدقائي. فرحا ببعضهما البعض كثيراً وقال لي محمود في الطريق إلى البيت بعد مغادرتنا لحبيب، إن حبيب رجل مرح صاحب نكتة.

أراد حبيب أن نسمي الجريدة «الشرارة» واقترحنا أنا ومحمود اسم «جريدة الجوارب»، وافق حبيب على التسمية ضاحكاً.

سأل حبيب محمود عما سيكتبه:

«سبعة أسئلة لكل عدد».

«هل تقصد أسئلة الخرافات الشعبية؟».

«لا، سبعة أسئلة من حياتنا، سؤال لكل يوم من أيام الأسبوع» وتدفق محمود في الكلام شارحاً: «هل شاهدت قبلاً الكوخ الفقير لأحد الوزراء؟ هل أكلت اليوم حتى الشبع؟ هل استأذنت الرئيس لتتنفس؟ هل فكرت يوماً كم كيلوغراماً خبزاً تكلف الدبابة الواحدة؟»

ذهبنا إلى البيت في ساعة متأخرة. قلما شعرت بالقوة كما أشعر اليوم ولم يكن حبيب مرحاً كطفل من دون همٍّ كما كان اليوم.

٣/٢٢

قررت البلدية توسيع شارعنا، كي تتمكن سيارات السياح من عبورها. السكان غير موافقين على هذا واعترضوا لدى المحافظة من

دون جدوى. قيل إن الخطة قيد التنفيذ منذ خمسة عشر عاماً وسيبدأ العمل بها الآن.

٤/٢

اليوم جاء جوزيف بكتاب قديم فيه بعض القصص الجنسية الممنوعة من كافة العصور وأيضاً من حكايات «ألف ليلة وليلة». جلسنا معاً واستمتعنا بقراءة الكتاب، حتى وصلنا إلى فصل منشطات الجنس وأوضاعه، فقد كان غريباً حتى كدنا نموت من الضحك عليه. فيه أسماء مراهم لا يستطيع أحد تأمينها. مثلا: قشرة بيض النسر مقلية في زيت الشجرة المقدسة، تحفظ في صحن من المرمر ثلاثة وتسعين يوماً، يضاف إليها قدر ملعقة طعام من الصمغ العربي وتعجن ثم تتلى عليها أقوال يستحيل النطق بها. يترك العجين ثلاثة وثلاثين يوماً في ورقة شجرة سحرية. ثم يوضع مقدار حبة عدس في قهوة الحبيب، فيسلس قياده.

أما فنون الجنس فتؤدي إلى كسر العظام وتشنج العضلات. تندرنا كثيراً على الأغبياء الذين اخترعوا مثل هذه الوصفات.

قال جوزيف: «إذا وضعت حبة لصديقتي في القهوة ستبصق وتقول: ماذا يا ولد، لا تقدر حتى على عمل فنجان قهوة طيبة! هل هذا عصير جوارب؟». وأكد أنها ستهجره لأنه عديم الذوق.

وعقب محمود ضاحكاً: «وإذا سرت أنا في الحبس وسألني أحدهم: هل وقعت في خطبٍ ما؟ فسأجيب باختصار، لا، أنا مارست الجنس».

٤/٣

كان علينا أن نختزل المقالات، فقد كانت طويلة جداً. يقول حبيب إن القيمة الحقيقية للكلمة الواحدة اتضحت له لأول مرة في حياته الآن. أسئلة محمود قصيرة وجريئة النكتة.

مائتا زوج جوارب تربض منتظرة ساعة الصفر في كرتونة كبيرة عند حبيب، الذي سيؤمن آلة ناسخة بدائية. صديق قديم له يعمل منذ فترة طويلة سائق تكسي على طريق دمشق ـ بيروت، وفي بيروت يمكن شراء هكذا آلة بسرعة وبسعر رخيص.

٤/١٦

اليوم تغدى العم سليم عندنا فألح عليه أبي ليشرب كأس عرق ثالثة، فسكر العجوز قليلاً واسترسل في سرد نكات جنونية. كنا نقهقه بصوت عال، لدرجة أن أصواتنا تصل إلى الشارع، فيتوقف المارة مستطلعين. عندما سأل أحدهم عما نحتفل به، قال والدي: «نحتفل بعرس قملنا»، فانطلق الرجل أيضاً في الضحك.

طرح العم سليم أسئلة من أغرب ما يكون: «لماذا تضع الكثير من الدول صورة النسر شعاراً وسط علمها؟ إنه حيوان غبي». أجاب أبي ضاحكا: «يريدون أن يشجعونا. هم يعرفون أننا جبناء ويفكرون: قل للحمامة ثلاث مرات أنت نسر وسترى، ستبدأ فوراً بصيد الفئران».

«لكن النسر يأكل حتى الجيف. إيه إيه. حكومتنا لا تعرفنا. لا،

سأزور رئيس الدولة واقترح عليه أن يرسموا على علمنا صورة عنزة، فهي تشبهنا أكثر».

«لماذا؟ هل لأنها تتأفف باستمرار أم لأنها لا تأكل اللحم؟».

«لا، لأنها تُحلَب على الدوام»، رد العم سليم وضحك.

٤/٢٠

وصلت آلة النسخ من بيروت. علمنا حبيب كيف نعمل على الطابعة. نسخ الجريدة بلون بنفسجي، لكن لا يهم، يمكن قراءتها. طوينا الوريقات ووضعناها في الجوارب. مقال حبيب لا يضاهى. خطابي عن المجنون أثار إعجاب حبيب ومحمود. أسئلة محمود السبعة في قمة الروعة.

٤/٢٣

استلم حبيب دور السينما والمقاهي والمطاعم (مائتي نسخة من الجريدة) وأنا ومحمود رحنا إلى سوق الحميدية. قررنا أن يقوم أحدنا بالحراسة ويبيع الآخر. نشرت البسطة وبدأت بالصياح على الجوارب وبعناها خلال ربع ساعة. ثم أسرعنا إلى عملنا كلٌّ على حدى، فقد انتهت استراحة الظهر.

ارتاح حبيب كثيراً عندما وصلنا حوالى الساعة السابعة إلى شقته. أحضر الكاتو وعمل شاياً ممتازاً. أما السجائر، فكانت على حسابنا.

٤/٢٦

لم أوافق إطلاقاً، لكن محمود ذهب إلى جوزيف وحكى له أن صديقاً أمن له جريدة الجوارب وسأله، إن كان يرغب في قراءة نسخة منها ويسلمها إلى آخرين. قال لي محمود إن جوزيف اصفرّ واخضرّ ثم احمرّ كأنه يخاف أن يسمع أحدهم حوارهم قائلاً إنه سيقدم البكالوريا قريباً وينوي فعلاً التطوع في الجيش وإن الجرائد لا تهمه، خاصة التي تكتب ضد الحكومة، فهو لا يريد التدخل في هكذا أشياء وسيصبر حتى يصبح جنرالاً وسيقوم عندها بنفسه بانقلاب.

السبت:

في اليوم الرابع بعد توزيع الجريدة روى لنا المعلم في استراحة الظهر أن زبوناً أعطاه جريدة عجيبة. أطرى على الأسئلة الواردة فيها وقال إنه تأمل في حياته الماضية طوال الليل وإنه يحيي شجاعة المنظمة السرية ويتمنى لو يقدر على دعمها.

٥/٢٠

حارتنا شكلها مرعب منذ ثلاثة أسابيع. فقدت البيوت المقابلة ثمانية أمتار من عمقها. قُصت البيوت قصاً على طول الشارع وبعض البيوت الصغيرة اختفت كليّاً عن الوجود وبيوت أخرى صارت بعد قصها ضيقة وقبيحة. نختنق بدخان الآلات والغبار. وضجيج البلدوزرات لا يطاق، فهي تبدأ العمل في الصباح الباكر لأنها لا

تشتغل في الظهيرة، ثم تتابع العمل طوال الليل. خسرنا كثيراً من جيراننا. حزنت لأن جوزيف وأمه اضطرا للانتقال إلى حارة بعيدة جداً. لم يبق من بيتهم الكبير سوى ثلاث غرف مظلمة، يسكن فيها عمه لأنه لا يستطيع تأمين سكن آخر. الحمد لله على أن محمود ونادية ما زالا في الحارة.

عاش الناس هنا على مدى عدة قرون جنباً إلى جنب والآن تنهار البيوت الطينية الصغيرة خلال بضعة أيام وتصبح تراباً وغباراً. إنها أضعف من أن تصمد في وجه البلدوزرات.

٥/٢٥

بدأ يومي كالحلم. استيقظت مع الفجر على رائحة الياسمين التي غمرت سريري. خرجت إلى الشرفة وشاهدت مئات البراعم تتفتق من الكؤيسات تحت ندى الصباح. بدا فناء الدار الخالي من الأطفال الأربعة عشر، الذين يلعبون فيه نهاراً، أوسع بكثير.

الثلاثاء:

اليوم، وبعد أسبوعين، تحدثت حتى هيئة الإذاعة البريطانية عن جريدة الجوارب. بثت الإذاعة مقاطع من مقالي ومقال حبيب كاملاً. لكنها لم تذكر سؤالاً واحداً من أسئلة محمود. غريب!

مرة بعد أخرى يفاجئني محمود بقدرته على ابتكار أفكار جديدة وصوغها بأسلوب فكاهي. أنا فخور جداً به. لقد انتهى من كتابة مسرحيته الثالثة وهي أجمل من المسرحيتين السابقتين.

يضرب ضابط رجلاً فقيراً ويهينه وفي المخفر يضربون الرجل أيضاً، لأن شهادة ضابط أثقل عياراً من أقوال رجل مسكين. ولهذا يقرر الرجل تأمين بدلة عسكرية ويضع على كتفه عدة نجوم، فهذه يمكن شراؤها من أي دكان. يحلق ذقنه ويسكن في غرفة صغيرة في حي آخر. ومنذ هذه اللحظة يبدأ الرجل حياة جديدة. أثناء النهار يقوم بعمله الاعتيادي وفي المساء يتجول في بدلته العسكرية فيحييه الجنود أينما ذهب. بعد عدة أيام يرفع رتبته إلى رتبة عميد وبهذا تتركه حتى سيارات الشرطة العسكرية على راحته، كما أن الرجل يشعر بمزيد من السرور لأن كثيراً من المدنيين أيضاً يبتسمون له ويحيونه بذل في الشارع. بل إنه يذهب إلى المطاعم، يأكل فيها ويوقع على شيكات من دون رصيد. ودائماً يغير الشوارع التي يظهر فيها. وعندما يحدث انقلاب يشارك فيه ويحتفظ خلال الفوضى والاضطرابات القائمة بأعصاب باردة وعندما يكاد الانقلاب أن يفشل، يعطي تعليمات ناجحة، وبهذا ينقذ الحكومة الجديدة.

المسرحية أبعد من الخيال وفي نهايتها يتساءل محمود إن كان أمثال هذا الضابط يشكلون حكومتنا الحالية.

٦/٢٦

للمرة الأولى تبدي الجريدة الرسمية رأيها في الموضوع، مدعية أن عصابة عملاء مدفوعة من اسرائيل تجول بشبحها في الوطن وتضعف اللحمة الوطنية وأن الحكومة تتوعدها «بالضرب بيد من حديد».

ضحك حبيب وقال: «الحديد مفقود. دعهم يستوردون الحديد أولاً!».

٧/٥

ظهرت بين سكان الحارة لغة جديدة منذ توسيع الشارع. الجمل المعهودة على غرار: «رُح، إلعب في الشارع»، «يمكنك أن تعملها في الشارع»، و«هنا ليس الشارع حتى تلعب فيه» اختفت تماماً من قاموس الناس وأخذت محلها جمل جديدة مثل: «احذر من السيارات»، «العب هنا في الشقة» أو «اعمل أي شيء لكن لا تخرج إلى الشارع، لا أحد يضمن حياته هناك». وبجهد جهيد اعتادت أمهاتنا اللغة الجديدة. أحياناً تخطئ أم وتقول غاضبة: «اطلع على الشارع»، ثم تصحح جملتها لتقول: «قصدي، اهدأ!».

تذكرت روبرت وأنا أدون هذه السطور، فشوارعنا تتشبه شيئاً فشيئاً بالشوارع التي وصفها لنا والفرق بيننا أننا لا نحصل على كمٍ كافٍ من الطعام كما في أوروبا.

«اليوم أريد أن أعزمك. هل تحب أن تسمع حكايات؟». وهل هذا سؤال يا عم سليم! طبعاً أحب. وانطلقنا معاً أنا وهو. العم سليم يعرف نصف المدينة وكثيراً ما يتوقف في منتصف الطريق ليسلم على التجار والحرفيين. عندما وصلنا إلى المقهى خاب أمله. لقد مات الحكواتي العجوز ولم يجدوا له بديلاً، فسأل عن وجود حكواتي في محل آخر وقيل له أين يتواجدون. أشهر المقاهي هو مقهى النوفرة ويقع بجوار الجامع الأموي. فسرنا الهوينا حتى وصلنا الجامع الأموي وكان المقهى مملوءاً إلى آخره. كان كثير من السياح ينتظرون ويشربون الشاي. جلسنا قرب منصة الحكواتي الذي جاء حوالى الساعة السابعة. تكلم بصوت عال نسبياً وقام بحركات متشنجة باليدين، دليلاً على المخاطر والمعارك وكان يضرب الهواء بسيف خشبي مضحك. التقط له السياح صوراً فازداد صوته ارتفاعاً وحركاته عنفاً. روى الحكواتي قصة صراع بين عشيرتين وبعد قليل تشاجر رجلان في المقهى، لأن كلاً منهما تحزب لعشيرة. هدأهم الزبائن على الطاولات المجاورة.

سرد الحكواتي ما يقوله المتناحرون في الحكاية شعراً ركيكاً. فكانوا يمدحون أنفسهم بأفخم العبارات ويذمون أعداءهم بأقذعها. وأحياناً كانت الأشعار مضحكة، فقد ضحكت عندما سمعت بطلاً لا يكتفي بمدح سيفه وفرسه وفصاحته، بل مدح أيضاً شاربه قائلاً: «وشاربي لا يهتز إن حط صقر عليه». لكن زبوناً له شارب غليظ، رمقني من الطاولة المجاورة بنظرة غضب وهو يفتل شاربه الضخم.

هنا توقف الحكواتي عن الرواية بينما الحكاية في قمة الإثارة ودعا الناس للعودة إلى المقهى في اليوم التالي كي يتابع ما سيحدث مع البطل، الذي بدأ بنشر قضبان سجنه.

بدت الخيبة واضحة على العم سليم وبعد لحظة لعن أبو الدنيا وقال: «الحكواتية مثل الخبز، من سيئ لأسوأ. يزعق ويحرك يديه مثل المجنون، لكن صوته لا يدخل القلب. الحكواتي لازم يكون صوته خافتاً وكلما كان خفيفاً كالريشة، كلما دخل القلب بسهولة أكثر وكلما كانت حكمته أعمق». دافعت عن الحكواتي، لأن عليه أن يصرخ كي يسمعه الناس في المقهى رغم الضجيج، لكني لم أقنع العم سليم، الذي قال: «الراوي الرديء هو الذي يضحك على نكته قبل أن ينهيها». هذا صحيح. أحياناً كان الرجل يقهقه ويقول: «اسمعوا هذه الأحداث التي تفجر المعدة من الضحك»، وبعدها يروي أحداثاً محزنة وأحياناً بلا طعم.

٧/١١

أبدى العم سليم إعجاباً شديداً بجريدة الجوارب التي سمع عنها من الجيرة ويظن أن صديقه الصحافي القديم وراءها. فكرت طويلاً، لكني لن أقول له كلمة واحدة، فهذا سري وحدي.

٧/١٢

طلبت من نادية أن تسأل مديرها عن إمكانية رفع دعوى قضائية

ضد المحرر الإذاعي أحمد ملص بسبب تمثيلية محمود. صحيح مر وقت طويل على الحادثة، لكن من يدري؟

٧/١٤

قالت نادية إن مديرها لم يصدق أن التمثيلية المشهورة من تأليف شاب في الخامسة عشرة، كما أن ملص هو الابن المدلل لجميع الحكومات ويتمتع حالياً بسلطات واسعة. وشهادة خمسين تلميذاً لا تساوي قرشاً واحداً. (أقسمت نادية أنه قال هذه الكلمة) ولهذا يستطيع ملص أن يبرهن في أي لحظة أنه هو من ألف المسرحية قبل سنوات ونشرها، وليس محمود.

هل هذا قانون؟

٧/١٦

تحدثت مع حبيب. إنه يعرف أحمد ملص هذا: «هؤلاء الناس يعيشون من عرق الآخرين. وتمنى لو نكتب مقالاً عن الشعراء والموسيقيين الذين يسرقون تعب الآخرين، سيكون ذلك بالتأكيد مثيراً!». وتابع حبيب أنه إذا كتب هذا المقال، فسيذكر فيه اسم محمود.

٧/١٨

تغير حبيب كلياً. صار مرحاً، ويغني كثيراً... بعد مرور شهر على الجريدة، يتحدث عنها الناس. عندي إحساس بأن الكثير

ينسخونها ويتابعون توزيعها ويقال إنها ظهرت في حمص وحلب أيضاً.

علمت من نادية أن المخابرات تدور في دوامة.

بدأت أتعلم في الاستراحة الكتابة على الآلة الكاتبة. يتذمر المعلم لأنه يخاف على آلته. أحياناً لا أعثر على حرف معين، وكأنه يختبئ خوفاً من ضرباتي عليه.

٧/٢٢

تمكنت نادية من الحضور إلى شقة حبيب لمدة ساعة. ستبلغ قريباً السادسة عشرة ولم تعد طفلة كما كانت. لقد كبرت في الأشهر الأخيرة بسرعة. نحب بعضنا بجنون وكثيراً ما نتكلم عن المستقبل. واليوم كدت أكشف لها سري. عندما تحدثت عن أطفالنا في المستقبل قلت: «. . .وأرجو ألا يحتاجوا لجريدة جوارب». بحلقت فيّ نادية بدهشة. حاولتُ التقليل من شأن قولي بالمزاح وقلبت الموضوع بسرعة: «أعني جريدة الحكومة، التي تطلع منها رائحة الجوارب».

هزت رأسها وقالت وهي تزرر قميصها: «نكاتك تصير كل يوم أسخف».

٧/٢٤

في الفترة الأخيرة كتبت قصيدتين. قصيدة عن المرأة التي يتغنى بها الشعراء حتى يتزوجوها، ثم ينسون أشعارهم ويعذبون نساءهم.

والأخرى عن البحر، الذي يجهد ليقفز وينظف وجه السماء من الغيوم الكالحة، لأنه مشتاق للون الأزرق.

٨/١

قريباً سينتهي حبيب من ترجمته واليوم حصل على دفعة مالية مقدماً فعزمنا على العشاء، أنا ومحمود. (أطلت مريم قليلاً واختفت بسرعة). تفاخرت بأني أستطيع كتابة صفحتين كاملتين في ساعة واحدة على الآلة الكاتبة. في الحقيقة لا أتمكن من دق أكثر من صفحة واحدة، وهذه أيضاً تكون مليئة بالأخطاء.

كلفني معلمي بأن أدق له بعض الرسائل على الآلة الكاتبة. واليوم كتبت «جنون» عوضاً عن زبون. الحمد لله أن المعلم قرأ الرسالة قبل إرسالها. وقال لي: «إذا أردت التخلص من زبون، سأكلفك أنت بأن تكتب له رسالة. فوَقتها سيتحول الرجل المحترم لزجل منخرم وسنخبره أن ثلاثة خنازير قد وصلت بدل إخباره بوصول كتب الحزازير أو الفزازير التي طلبها هذا المسكين وفي النهاية تحول أجمل تحية إلى أحول مع هوية».

٨/٣

العدد الثاني من جريدتنا جاهز. كتبت الكثير نسبياً. كتب حبيب عن الرشوة وبرر ارتشاء صغار الموظفين الذين يطعمون أطفالهم بالرشوة، إلا أنه تهجم بحدة على ارتشاء الوزراء، الذين يبيعون وطنهم بها.

كتبت أيضاً عن التلاميذ الفقراء، المرغمين على العمل في حداثتهم، ويضطرون لترك المدرسة.

محمود أعد أسئلة رائعة، أولها: «هل قرأت العدد الأول من جريدة الجوارب؟».

دعونا جميع المحظوظين بنعمة القراءة والكتابة إلى إصدار جرائدهم الخاصة.

صاغ حبيب جملة رائعة: «الكلمة واجب كل إنسان. لا تتركها للحكومة».

الأحد:

سحبنا ستمائة نسخة. أنا ومحمود أخذنا الجوارب إلى سوق الجمعة وبعناها مرة أخرى بسرعة البرق، ثم تمشينا في السوق قرب حي الأمين نراقب الأكشاك. شاهدنا رجلاً مع دب راقص. الحيوان المسكين، كان نحيفاً ويبدو حزيناً. جسمه مليء بالندوب. كان يعرج. وقال محمود إنه واثق من أن الدب يبكي وحدثني عما قرأه ومفاده أن الدببة ذكية جداً وتفهم مثل البشر. أي إهانة ستشعر بها الدببة من الرقص لو أنها تحس فعلاً مثلنا.

٨/٦

اليوم حكى لي العم سليم حكاية سلطان يصل أثناء إحدى رحلاته إلى قرية خلابة فيتوقف فيها. ينزل عن فرسه فيفرش الفلاحون

ستراتهم احتفاء به كي لا تتسخ قدماه، فرحين لأنه أول حاكم يزور قريتهم. وللفور أولموا له حملاً محشياً باللوز والزبيب والرز وسلطة وجبناً ونبيذاً ووضعوا طاولة طويلة في وسط ساحة القرية. دهش السلطان من غنى الناس وصاح بأعلى صوته: «يجب مضاعفة مكوس الحصاد»، ثم بدأ بالأكل وأكل مثل الثور، لهث، تجشأ وافترس الحمل وشعر فجأة بالتعب. نظر إلى الناس وأمر جنوده: «لا يغادر أحد هذه المائدة قبل أن أفيق!». جرد الجنود سيوفهم ليبقى رجال القرية في أماكنهم يقظين، بينما شخر السلطان ونام. حل الليل وتعب الرجال، لكن الجنود كانوا يتناوبون الحراسة وأمروا الناس بالبقاء، بينما تابع السلطان نومه. حل النهار وكاد الرجال يموتون تعباً إلا أن السلطان كان مستغرقاً في النوم ولم يستيقظ إلا ظهراً وهو معتكر المزاج ورقبته متشنجة. لعن القرية التي لا يحصل فيه الضيف حتى على سرير ناعم يبات فيه وامتطى صهوة جواده ورحل. منذ ذلك اليوم لا يلقي سكان القرية ستراتهم تحت أقدام الضيوف، بل إنهم ينظرون إليهم بارتياب ويرمونهم أحياناً بالحجارة، كي يغادروا القرية.

٨/٨

بثت إذاعات اسرائيل والأردن ولندن نبأ العدد الثاني من جريدة الجوارب. قال حبيب إنه سيكتب في العدد الثالث القادم من دون رحمة عن كل الأحزاب وسيبرهن أنه ليس هناك أية أحزاب معارضة فعلاً. كما قررنا أن نفتح زاوية صغيرة للأدب.

٨/١٢

صار العم سليم وأبي من أشد أنصار الجريدة. سمع أبي إذاعة لندن ومس السؤال الثالث شغاف قلبه: «هل تعرف بالصدفة كم يوماً في الأسبوع يعمل الخباز؟» (الجواب سبعة، لأن الخباز ليس لديه يوم عطلة رغم نضاله عشرات السنين) وكم يوماً يعمل الإقطاعيون وكبار ملاكي الأراضي في حياتهم (الجواب صفر تقريباً).

٨/١٧

في الفجر ترتدي دمشق أبهى حللها. اليوم استيقظت من حلم وخرجت إلى الشرفة. كان عمال النظافة قد انتهوا للتو من عملهم، وحملوا مكانسهم الطويلة على أكتافهم ماضين بخطوات وئيدة إلى منازلهم والتعب يبدو عليهم. لاح لي وجود شيء مشترك بين الخبازين وعمال النظافة، لكنني لا أتذكر الآن، بعد الظهر، ماذا كان هذا الشيء.

٨/١٨

أشعر بأني تغيرت من خلال الجريدة. فأنا أدقق النظر في ما أراه وترد على خاطري أسئلة أكثر من الأجوبة، عندما أسمع أو أرى شيئاً. أحب نادية حباً عميقاً وبخلاف الماضي أنا واثق الآن أننا سنكون لبعضنا، وهذا ما يهدئني كثيراً.

عندما أتصفح اليوم ما كتبته سابقاً في دفتري أخجل من ملاحظاتي

وأود لو أمزقها، لكني أقسمت ألا أغير فيه حرفاً ولن أحنث بقسمي. ولولا تدوين يومياتي لكنت نسيت الكثير. كما أني أعلى همة ونشاطاً وأكتب كل شيء، سواء كنت راضياً، لا مبالياً أو حزيناً.

حبيب كتب حتى الآن أكثر من عشرة دفاتر سميكة كيوميات.

٨/٢٠

أمس سهرت طويلاً على الشرفة وتأملت النجوم. كنت أريد كتابة قصيدة عن النجوم، إلا أن أفكاري كانت مشوشة وعادت بعد كل جولة ترسو في مرفأ نادية. آه، لو أنها تستلقي لحظات بجانبي لننظر معاً إلى النجوم ونحن نستمتع بنسيم الليل.

قبل أيام قالت لي نادية: «أرغب أحياناً بأن تضع رأسك على مخدتي كي نتقاسم نفس الحلم». والآن لا رغبة عندي إلا هذه.

٨/٢١

اليوم وزعنا العدد الثالث بأقصى سرعة. إن هذا العدد أوضح بكثير من العددين السابقين. بدت أسئلة محمود وحكايتي عن الحماصنة الأذكياء، الذي يدعون الحماقة منذ مئات السنين، جيدة جداً.

سأل صاحب معمل الجوارب عن أسمائنا وعناويننا، فأعطيناه طبعاً معلومات كاذبة. لكن علينا الحذر، فالاستخبارات تدقق في كل شيء. حبيب يخاف علينا كثيراً.

اليوم نفذت بأعجوبة. بسطت بسطتي بقرب مدخل سينما الفردوس في الصالحية. جذبت الجوارب الرخيصة المارة وفي لحظات بعت ثلاثة أرباع البضاعة. كان محمود يحرسني. فجأة مزق رجل يرتدي ثياباً أنيقة غلاف الجوارب وأمسك برقبتي. بسرعة البرق تصرف محمود. لاحظ الأمر فوراً ودفع الرجل من الخلف بكل ما فيه من قوة، بحيث ترنح نحو الأمام وسقط على الأرض. تخلصت من قبضته ركضت بكل ما في من قوة. صرخ الرجل: «حرامي! حرامي! أوقفوه» آملاً بأن يساعده الناس، لكن أحداً لم يساعده ويقبض علي.

عندما قفزت فوق جدار وركضت في حارة على الناحية الأخرى، صرخ الأطفال الذين كانوا يلعبون البلي في الشارع فزعين. أطلت سيدة من نافذة ونادت جارتها: «انظري، كم هو شاحب الوجه. هذا الولد المسكين».

خففت سرعتي عندما وصلت إلى شارع مزدحم. دخلت أول مقهى وطلبت ليموناضه وجلست نصف ساعة حتى استعادت ركبي قوتها. تبرم معلمي، لكن هذا طبعه في الفترة الأخيرة، فالمكتبة لا تسير على ما يرام لأن المنافسة قوية.

اقشعر حبيب خوفاً وشعر بالفخر في الآن ذاته. قال إن علينا إيجاد طريقة أخرى لتوزيع الجريدة وألا نتبع الأسلوب ذاته دائماً. فقد علم من أحد أصدقائه أنه أُلقي القبض على ثلاث مجموعات تنشر جريدة جوارب في حلب.

٨/٢٧

لم تذكر لا الإذاعة الاسرائيلية ولا الأردنية أنباء العدد الثالث لجريدتنا بكلمة واحدة، رغم أنه انتشر انتشاراً أوسع، بفضل جسارة حبيب، الذي دس ثلاثمائة نسخة في صناديق البريد. قال حبيب إنهم لم يذيعوا النبأ حتى لا تتعلم الشعوب الساخطة في الدول المجاورة نشر جرائد الجوارب.

لا بد أن تكون هناك طريقة أخرى، لتوزيع الجريدة.

٨/٢٩

تسألني نادية عن سبب عدوانيتي في الفترة الأخيرة! يؤلمني أني لا أستطيع أن أبوح لها بالسر، خشية عليها.

٩/١

حدث انقلاب جديد. مرة أخرى اكتشفت الحكومة الجديدة، المكونة بدورها من ضباط سابقين، أن سابقتها كانت حفنة من اللصوص والخونة. هذه الخزعبلات لم تعد تقنع سكّيراً.

امتلأت السجون على آخرها ووالد نادية يخدم الحكومة الجديدة كمخبر. كل ما فعله أنه نزع صورة الرئيس السابق من الصالون وينتظر حتى تطبع صور الرئيس الجديد، بوجهه العكر. يا إلهي لبشاعة وجه حكامنا.

٩/٢

عند حبيب فكرة جديدة. يفكر في سلع رخيصة ومرغوبة وتلف بورق. البرتقال مثلاً مؤهل لذلك، فيمكن إخفاء قصاصات الجرائد الرقيقة في ورق التغليف دون متاعب. تخلينا عن فكرة المصنوعات النسيجية، لأن وصولها إلى الزبون بطيء جداً.

استطاع حبيب أن يجد عملاً في قسم التعليب في شركة لصناعة الأدوية. وهذه الشركة تنتج أدوية قليلة (كالحبوب المسكنة وما شابه)، لكن بكميات كبيرة. وسيتمكن من دس جريدتنا في علب الحبوب. شركة الأدوية قريبة جداً من دمشق، أما البرتقال فيغلف على الساحل، لكن حبيب سينقل نشاطه إلى هناك أيضاً.

٩/٤

حبيب معلم في التزوير. لقد زور هوية شخصية له باسم آخر.

عندي فكرة لتوزيع الجريدة بين كل الناس. بالون منفوخ بغاز خفيف يستطيع رفع عدة صفحات وإذا انفجر في السماء ستنزل الجريدة على المدينة كلها.

أعجب محمود بالفكرة وذكرني بتجارب انتاج الهيدروجين في المدرسة. قليل من التوتياء وحمض الكلور ينتجان الهيدروجين. غداً سنجرب.

٩/٥

اليوم فتحنا في العلية تحت السطح مخبراً كيميائياً شيطانياً. كان كل ما نحتاجه زجاجة كولا، عدة قطع توتياء من مزراب عتيق وحمض الكلور، الذي يسميه التجار روح الملح ويبيعونه رخيصاً. أرغى المزيج في الزجاجة وتشكل فيها بخار كثيف وعندما أشعلنا الغاز بعود كبريت، انبثق لهب أزرق منفجراً وبث فينا الرعب. انقلبت الزجاجة وحرقت مساحة صغيرة من خشب السطح فانبعثت رائحة كريهة. سعلنا كالعنز الجربان، لكننا تمكنا من تعبئة الغاز في بالون ربطناه بإحكام فصعد إلى السماء سريعاً.

لكن السؤال، كيف نفجره على علو مناسب؟ وإلا لن يقرأ جريدتنا المخبأة في البالون إلا الله وملائكته. هل نعلق به خيطاً طويلاً ونشعله مثلا؟ الأمر الذي حاولناه مع البالون التالي، لكن الخيط لم يرضَ أن يشتعل. غداً سنشرّبه بالمازوت.

٩/٨

كانت الحقول المجاورة لدمشق مظلمة. دس محمود ثلاثين نسخة في البالون الكبير وعبأه بالغاز. بللت الخيط بالمازوت وتركنا البالون يرتفع وعندما وصل إلى علو عشرة أمتار في السماء المعتمة، أشعلنا الخيط، فسارت فيه النار سريعاً وانفجر البالون انفجاراً مرعباً قبل أن يعلو عدة أمتار أخرى.

هربنا بأقصى سرعة وأخذنا معنا الزجاجة وبقايا التوتياء. أثناء

الطريق صادفنا ناساً يتطلعون إلى السماء محتارين ويتحدثون عن الانفجار. فجأة انطلق محمود في الضحك. هذا الولد رائع فعلاً، يستطيع الضحك على أشد البلايا. غضبت في البداية، ثم شاركته في ضحكه الجنوني وتندرنا على الناس، الذين ظنوا أن الانفجار نشأ عن صحن طائر.

سيجدون الجريدة التي حررتها يد صحافيين من كواكب أخرى وسيدهشون أيمة دهشة لاهتمام أهل الفضاء بأحيائنا وسعر البندورة والبرطيل في الدوائر الحكومية والأحزاب المهترئة.

٩/١١

لقد وفرت ١٦٨ ليرة. إذا جمعت مائتي ليرة، سأشتري لأمي فستانا بخمسين. تحسنت أحوال المكتبة ومعلمي لا يتذمر كثيراً كما في السابق. فلديه الآن بعض الكتب التي يتسابق عليها طلاب الجامعة. «٢٠٠ سؤال في الطب»، «٣٠٠ سؤال عن الكيمياء»، «١٥٠ سؤالاً في الحقوق». يهجم الطلاب على هذه المطبوعات كالمجانين ولا يكسب معلمي ٣٠ في المئة فقط، بل ٥٠ في المئة من سعر النسخة.

مثل هؤلاء سيصبحون أطباء وكيميائيين ومحامين! هؤلاء يقرأون الأسئلة، يحفظون الأجوبة مثل الببغاء وينقلونها على أوراق الامتحانات. في السابق كان الطبيب أو الطبيبة إنساناً حكيماً. عندما أقرأ عن كل ما كان يعرفه ابن سينا أو قدرات ليوناردو دافنشي، أدرك فقر وعوز جامعاتنا وأساتذتها.

حبيب قال أمس، إن سقراط لم يقرأ في حياته كلها كتباً أكثر مما يقرأها طالب بكالوريا في عصرنا، إلا أن سقراط تغلغل بمعارفه حتى أعمق أسرار الحياة.

أنا لا أعرف سقراط على الإطلاق واليوم بحثت في المحل فوجدت ثلاثة كتب عنه. مفكر يوناني عظيم.

٩/١٣

كدنا نحرق العلية على آخرها، عندما أجرينا اليوم تجارب على الخيط والمازوت. دخلت المطبخ مسود الوجه، فضحكت أمي علي وسمتني طوال المساء بـ(منظف المداخن)، حتى استفهم أبي عما تعنيه. فقالت له إني ساعدتها في المطبخ ووسخت نفسي. وهذا ما أحبه تحديداً في أمي، فهي لا تشي بنا أبداً. وحتى لو جنناها، تحسم أمورها معنا مباشرة ولا تقول قط: «انتظر حتى يجيء أبوك!» أحياناً تصفعنا وتبكي، إلا أننا أيضاً نخرس عندما يأتي الوالد. أم محمود تركض بسرعة إلى أبيه وتشتكي له. هذا ما لا أحبه في هذه المرأة.

٩/١٤

سألت حبيب: «هل حكيت لمريم عن الجريدة؟» فأجاب: «طبعاً حكيت لها. غلطتي القديمة لن أكررها». وروى لي أنه أخفى نشاطه السياسي عن زوجته خوفاً عليها، لكن خوفه هذا لم ينقذها من الموت. كما أنه رأى كيف تثرثر الزوجات الغافلات أسماء أصدقاء

أزواجهن من دون أن يعلمن أن كل هؤلاء التجار والأساتذة والفلاحين والحرفيين، الذين يزورون أزواجهن ليسوا كذلك بل هم مسؤولون حزبيون وبهذا يخون الرجل أصدقاءه ورفاقه لأنه لم يثق بزوجته ولم يشاركها إلا في السرير وعمل منها وسيلة للطبخ، وقال: «سأتفهم إذا أخفى الجاسوس طبيعة عمله عن زوجته. هذه هي الحالة الوحيدة، لكن غيره، لا».

لا بد أن أتحدث في الأمر مع نادية، فأنا لست جاسوساً.

٩/١٦

في مخزن مصنع الأدوية يعلب حبيب الأدوية. عمله ممل، إلا أنه يدس فيها جريدتنا. روينا له حكايتنا مع البالون، فضحك حتى دمعت عيناه.

٩/١٨

لم أذهب إلى الكنيسة منذ زمن لم أعد أتذكره. سألني أبي عن السبب، فقلت له إني لن أذهب إليها بعد، على غالب الظن لأني لا أحتاج مصروف جيبي منه، فكاد يختنق من الضحك. وسرد العم سليم، الذي كان يتابع حديثنا مستمتعاً، الحكاية التالية:

رجل فقير صار عاطلاً عن العمل. كان ورعاً وتقياً يداوم على الذهاب إلى الكنيسة ويصلي ويصلي، لكن صلواته لم تستجب ولم يجد عملاً. ذات مرة لاحظ الرجل أن العلبة الخشبية تحت صورة

العذراء مملوءة بالنقود، معدنية وورقية، بينما تخلو منها العلبة تحت صورة المسيح.

يوماً من الأيام تعب الرجل من الشحاذة، ذهب إلى الكنيسة، وقف أمام صورة العذراء وخاطبها: «يا عذراء مريم يا حنونة! أبحث طوال اليوم عن عمل ولا أجده. أطفالي يحتاجون الطعام واللباس وأنا أحتاج لبلعة عرق، لكن وكما ترين لا أملك قرشاً واحداً. أنا لست إنساناً رديئاً. إذا لم تصدقي انظري إلى علبة ابنك. لا شيء فيها. فارغة على الأخير والريح تصفر في جوانبها. مع أن ابنك لم يكن رديئاً إطلاقاً، معاذ الله. هل تسمحين لي بأخذ عشرين ليرة؟ سأتقاسمها مع ابنك، عشر ليرات له وعشر لي. وهكذا يحصل أطفالي على الطعام وأنا على العرق، كما أن وضع ابنك سيتحسن قليلاً. أما إذا كنت لا تسمحين بذلك فقولي وأنا لا أمس قطعة واحدة من النقود».

طبعاً لم تجاوب الصورة ونفذ الرجل ما قاله. وعاد في اليوم التالي وقال: «أنا خجلان منك، يا عذراء. لا أجرؤ على النظر في وجهك. لكن ماذا أعمل؟ انظري حال ابنك، ليس أفضل من حالي. ما عنده ولا قرش واحد. اليوم أحتاج أربعين ليرة لأن وقت دفع الإيجار جاء. لكن صدقيني، أنا مثل الجمل، لا أنسى. سأعطي ابنك أيضاً أربعين ليرة. إذا كنت أثقل عليك قولي لي فلن أمس شيئاً». طبعاً لم تزجره الصورة وتناول الرجل ثمانين ليرة من الصندوق المملوء، قسمها بينه وبين المسيح وخرج من الكنيسة ومضى في طريقه.

تحسن وضع الرجل أيما تحسّن في الفترة التالية فكان يأتي، يأخذ

النقود ويقسمها، لكنه كان دائما يسأل العذراء بضمير وهذه لا تعترض. احتار الخوري في ما يراه من التغيرات على صناديق التبرعات، فهو لم ير طوال عشر سنين أن التبرعات تحت صورة العذراء انخفضت إلى هذا الحد ولا كانت العلبة الخشبي تحت صورة المسيح مليئةً بالتبرعات كما هو الحال منذ أشهر. ولكي يكشف سبب هذا التغيير المفاجئ اختبأ خلف صورة المسيح الكبيرة وانتظر بفارغ الصبر.

جاء الرجل، طأطأ رأسه خجلاً وبدأ بالكلام: «أمنا العذراء المقدسة، يا حنونة أبحث كما تعلمين منذ مدة طويلة عن عمل ولا أجده. قلت لزوجتي وأولادي إن ما أجلبه لهم هو من فضل قلبك الرحيم وهم يصلون لك كل يوم. ما كانت زوجتي تطيقك قبل الآن، لكنك الآن تستطيعين الاعتماد عليها إذا حدث لك مشاكل في السماء فبيتنا وقلبنا مفتوحان لك. آسف أثرثر اليوم كثيراً، لأنه حان موعد دفع الإيجار وأنا خجلان منك. لكن أنظري إلى علبة ابنك الفارغة لأنني لم آت من فترة. أنظري حتى سوس الخشب يصاب فيه بالرشح من البرد في العلبة الفارغة. لكن إذا لا تريدين، قولي لي ولن أفعلها».

فصاح القس غاضباً: «لا، لا أريد».

التفت الرجل إلى صورة المسيح حانقاً وقال: «اسكت أنت! ما دخلك! أنا أتكلم مع أمك. لكن إذا ما كنت تريد، فلن أتقاسم معك». أنب الرجل الصورة وأخذ ثمانين ليرة ومضى.

أجمل ما في العم سليم أنه يسرد دائماً الحكاية المناسبة في الوقت المناسب.

يوم رائع! ذهبت مع نادية إلى السيرك. بدأ العرض في الساعة الثالثة. يقدم سيرك هندي فقير الحال عروضه على أرض معرض دمشق الدولي. ما عندهم حتى شباك تذاكر، بدل ذلك يقف رجل ويقبض القروش القليلة. كانت عربيته تعيسة وبدى لي الجمهور وكأنه أتى ليساوم على سعر الدخول مع رجل فقير يفهم بالكاد بضع كلمات عربية. لكن هذا شجع البعض ليجادلوه بلهجة وتعابير دمشقية عتيقة لا يفهمها إلا بعض سكان الحارات القديمة في الشاغور والميدان.

لم يكن العرض ناجحاً أبداً. امتنعت الكلاب عن القفز عبر أطواق النار ومرت من تحتها. كانت الفيلة مصابة بالإسهال وسقط البهلوان على الأرض حتى بعد خمس محاولات، ولحسن حظه لم يكن الحبل يعلو عن الأرض أكثر من مترين.

بذل مقدم البرنامج كل جهده كي يشوقنا لمرأى فقرة النمور قائلاً: «إنها مسألة حياة أو موت» ودخلت النمور مترنحة، تتثاءب دون انقطاع ونامت. صرخ فيها مروض النمور كالأسد، لكن ملوك الغابة فتحت عيناً وأغمضت الأخرى. ضحك الأطفال بصوت عال.

نمرة الخناجر وحدها نجحت والحمد لله. أغلقت نادية عينيها من الخوف وضغطت على يدي. نمرة الخناجر مقززة. فالفتاة المسكينة الواقفة إلى اللوح مرتجفة، كانت آية في الجمال.

أجمل الفقرات كانت نمرة المهرج الحزين. مثل لنا قصة حب دون أن ينطق كلمة واحدة. لم يكن معه سوى وردة ذابلة حاول أن يعيدها إلى الحياة. هلل الجمهور ضاحكاً وكأنها ملهاة، بينما بكينا أنا ونادية لمأساة هذا الحب.

١٠/١

وجدنا حلاً لمشكلة الخيط والبالون. بعد أيام من المعاناة والسعال والدموع، اكتشفنا أن عدة قطرات من المازوت تكفي لتشعل الخيط ببطء، لكنها تضمن احتراقه. أطلقنا بالوناً كبيراً فوق سطح معمل قديم وضعنا فيه خمسين نسخة، فرفعه الهواء فوق المدينة وانفجر في السماء فجأة ببريق أزرق. انتظرنا لحظات وحشرنا كيس مخبرنا الكيماوي في برميل صدئ واستعجلنا الذهاب إلى البيت.

١٠/١٥

سحب حبيب ثلاثمائة نسخة أخرى من العدد الرابع. استقال من عمله لدى مصنع الأدوية وسيسافر غداً إلى الشمال ليعمل في تغليف البرتقال.

بخط يده كتب جملة إضافية بالفرنسية: «اعط هذه الورقة إلى عربي ليترجمها لك. سنكون شاكرين لكم إذا أبلغتم صحافيا عن جريدتنا».

آمل ألا يحدث له مكروه، هذا الرجل الشجاع.

١٠/١٨

كم نحن أغبياء! الحل أمام أعيننا ونحن نلف وندور في متاهة ونتنشق المازوت والسخام. كل ما قمنا به لا معنى له واليوم وجدنا

الحل المنقذ. ملأنا سلة صغيرة وخفيفة بنسخ من الجريدة، علقناها ببالون وتركناه يرتفع في سماء المدينة. بعد عدة أمتار طيّر الهواء الورقات من السلة المتأرجحة وكلما خف حملها كلما ارتفعت أكثر ونشرت محتوياتها في أرجاء المدينة. خدمتنا الريح في توزيع الجريدة دون مازوت ولا رعود وبروق. كما أن العملية أقل خطورة على حياتنا.

١١/٦

مرت ثلاثة أسابيع وما زال حبيب في الشمال. بوسعنا أنا ونادية أن نزيد من لقاءاتنا. أمتع الأوقات، هي التي نقضيها معاً في السرير.

١١/٨

بحثت عن المجنون. لا أعرف لماذا بحثت عنه، لكنني حلمت به أمس. لم أجده عند مدخل الجامع الأموي وقال لي عطار يبيع زجاجات عطره الصغيرة على طاولة صغيرة هناك، إن المجنون كان يضعف يوماً بعد يوم، أغمي عليه ذات يوم وأخذته سيارة إسعاف ولم يعد بعدها.

١١/١٥

يا إلهي، ما هذا الكابوس المرعب! جلس حبيب في الحلم مقرفصاً أمام الجامع وفمه مقفل بشريط لاصق. على يديه آثار حريق مربعة الشكل وحمراء.

١١/١٧

أراد العم سليم أن يصب لي الشاي، لكن يديه المرتجفتين عجزتا عن الإمساك بالكأس، فهوت على الأرض وتشظت محدثةً جلبة. حاولت أن أهوّن عليه، لكنه ضحك على محاولتي وقال: «صديقي، أنت رأيت الآن حكمة من حكم الطبيعة وتحاول أن تجد لها العذر». وبيّن لي هذه الحكمة أثناء شرب الشاي: «الطبيعة، الطبيعة يا صديقي، لا تقدر على الكلام، لكنها تظهر لنا ما تريد قوله وهي تقول لي الآن: لا تتشبث بالأشياء. أنت لن تأخذها معك وكلما حاولت التشبث بها أكثر كلما سالت كالزئبق بين أصابعك أسرع. هذا ما تقوله الطبيعة عندما تُضعف أيدي الشيوخ لكي لا يتشبثوا بالأشياء الفانية، كي يفهموا الحياة بشكل أعمق ويتمتعوا بها بشكل أقوى».

١١/٢٤

عاد حبيب بعد غياب أربعين يوماً وهو شائب الذقن. من جديد تبث الإذاعات أخبار العدد الرابع. يأمل حبيب بأن يصل البرتقال إلى أيدي أولاد حلال وروى لنا الكثير عن البحر والصيادين.

١٢/٢٣ (لم أكتب حرفاً منذ حوالى الشهر)

يا لحظنا السعيد. في مرسيليا سلم كثير من باعة البرتقال جريدتنا إلى الصحافيين. علم حبيب بالخبر من أحد أصدقائه وطلب من سائق تاكسي أن يجلب له نسخة من جريدة الـ«لوموند» الفرنسية، حيث إن

الحكومة السورية منعتها من الدخول إلى سوريا، هذا ما تفعله دائماً إذا ذكر أي شيء ضدها في الصحافة. حماقة! كل الناس تعرف أن وضعنا تعيس، لكن لا يسمح لنا نحن أن نرى هذه الحقيقة البينة.

جلسنا مساء اليوم حول الجريدة الفرنسية، التي نشرت بالإضافة إلى الترجمة، صورة عن جريدتنا. قرأ لنا حبيب المقدمة. لا أحد يستطيع كتابة مقال قصير ودقيق في آن واحد مثل هذا. جاءت الجريدة على ذكر الجوارب والبالونات وركزت على أن جريدة الجوارب هي الجريدة الوحيدة الجيدة في سوريا.

عانقني حبيب وقال: «الفضل في كل هذا يعود لك ولعنادك».

كدت أبكي من الفرح، فقد كان المديح كثيراً علي، لكنني الآن أستطيع أن أكتب وللمرة الأولى: أنا صحافي.

ملاحظة: قال حبيب إن جريدة «لوموند» توزع في أكثر أنحاء العالم.

١/٢

خبر جميل آخر! في الأيام الأربعين ترجم حبيب رواية بوليسية اسم مؤلفها موريس لوبلان. وهذه الرواية هي الأولى ضمن سلسلة مكونة من اثنتي عشرة رواية، يدور موضوعها حول لص شجاع ومرح اسمه ارسين لوبين. القصة عظيمة وحياة المؤلف بحد ذاتها مغامرة. يتقمص اللص شخصيات مختلفة بسرعة رهيبة. يسرق من الأغنياء (على الرأس والعين!) ويعطي الفقراء. لا تلاحقه الشرطة وحدها، بل

وأيضاً زملاء المهنة، لأنه يقطع عنهم رزقهم. يفعل كل هذا من دون أن يطلق رصاصة واحدة، فذكاؤه أقوى من السلاح. يقول حبيب إن أرسين لوبين محبوب جداً في فرنسا.

١/١٠

اللعنة! من جديد فقد محمود عمله لأن معلمه اضطر لإغلاق المحل، فلم يعد أحد يفصِّل ثيابه عنده. الناس تشتري البضاعة الرخيصة وتقضي بذلك على محلات كثيرة.

هذه المرة لم يرد محمود أن يخفي الحقيقة عن والديه، رغم أني عرضت عليه النقود: «لا، لازم يعرف. لا يهمني إن زعل أم لا».

قامت قيامة أبيه، لكن محمود رد على صراخه بشجاعة اليائس قائلاً إنه لم يفقد عمله لأنه تنبل عاطل الأخلاق، بل لأن البلد عاطلة.

سكت الأب وحضَّر شاياً لمحمود.

١/١٥

بحث محمود طوال النهار عن عمل. في الاستراحة ذهبت إلى بعض زبائننا الذين يكنون لي معزة وسألت عن إمكاني عمله لديهم. كان الناس طيبين، لكن لا أحد منهم يحتاج صانعاً.

ما هذه الحياة الخرائية، التي نقضيها في البحث عن العمل!

١/١٨

عدت لأكتب كثيراً من القصائد والقصص القصيرة. نادية معجبة بها جداً. اليوم بدأت بحكاية عن زهرة حمراء صغيرة جداً، تحاول التسلق على صخرة ضخمة، لأنها تؤمن بأن الحياة لا تقف عند حدود الصخرة. لا أعرف ما الذي سيحدث لها.

تقول أختي ليلى إن حكاياتي غريبة. هي تفضل الحكايات التي تتزوج فيها الأميرة أميراً. ما علاقتي أنا إن تزوج هؤلاء أم لا؟ أنا أحب نادية وهي زهرتي الحمراء.

١/٢٣

اليوم بلغت السابعة عشرة. نسيت عيد ميلادي لكن حبيب أصر أن نزوره أنا ومحمود على العشاء. عندما وصلت فوجئت بالمائدة العامرة. شاركتنا مريم أيضاً نصف ساعة.

١/٣٠

اليوم روت لي نادية أن أباها لا يكف عن الحديث عن الجريدة. فصارحتها بأنني أعمل الجريدة مع بعض الأصدقاء، لكنني حلّفتها قبل ذلك ألا تكشف السر لأحد. أقسمت نادية بحبها لي أنها تموت ولا تخونني، لكنها لم تصدقني، فقد قالت عند الوداع أن خرافة الجريدة «قوية» وأنها كادت تصدقها. ابتسمت لها.

تابعت الكتابة في حكاية «الزهرة الحمراء». إنها تتسلق وتتسلق، تعلو فوق الصخر الذي كان يخيفها إن الدنيا ليس فيها سواه وأنه لمن الخطر أن تغامر فلن ينتظرها سوى العدم. تضحك الزهرة عندما ترى العالم الرحب والذي تقلصت فيه هذه الصخرة لقزم. تلعب مع الشمس وتعشق في أول ليلة لها القمر، الذي يروي لها الحكايات. ثم تأتي ريح، تمر على الصخرة، تود الإنزلاق عليها كالمعتاد لكنها تنخدش بأشواك الزهرة، فتجاملها وتأمرها بلطف أن تنمو منبطحة على الصخرة مثل اللبلاب.

هل ستطيع الزهرة أوامر الريح؟ وماذا يحدث إذا لم تطع؟

٢/٦

اليوم حلم العم سليم بزوجته المتوفاة. جاءته في الحلم عارية تماماً وشابة كما في الليلة الأولى. أخذته في ذراعيها الناعمين وشعر العم سليم بمتعة الجسد، كما لم يفعل منذ عشرين عاماً. شيء عجيب.

٢/١١

يوم جارنا، بائع الخضرة، كان منحوساً، رغم أنه بدأ سعيداً. فاليوم ولدت زوجته في الصباح الباكر صبياً بعد سبع بنات. كانت فرحة جارنا بالخبر كبيرة جداً، لدرجة أنه شرب نصف لتر عرق قبل الظهر. سكر ورقص وغنى بصوت عالٍ وعند الظهر انطفأ وعيه تماماً

واستيقظت كل غرائزه، فبدأ بتوزيع خضاره هدية على الناس ورماها إلى المشاة. جمع الفقراء الجزر والبندورة والبطاطا وأخذوها إلى بيوتهم بسرعة، قبل أن يصحو التاجر البخيل من سكرته ويطالبهم بالثمن. لكن بعض المارة شتموه لأنه أصاب رؤوسهم بحبات البندورة والبطاطا. مع الوقت ازدادت فرحته وكبرت كومة الخضار التي رماها من حوله، فللمرة الأولى يصبح محط أنظار أهل الحارة.

جاءت نهاية الفرحة على يد بطيخة أصابت ضابطاً يمشي الهوينا. أصابته بقساوة في بطنه، فترنح وسقط في حفرة مليئة بالطين والماء. انتقلت عدوى فرح التاجر إلى بعض المشاغبين، الذين لم يروا من قبل ضابطاً ساقطاً في حفرة ماء، فدحرجوه ومرغوه بالطين ثم بدأوا باللعب بقبعته، يقذفونها في الهواء كلما مد يده نحوها. تحول الفرح إلى غم. فقد أحيل التاجر إلى المخفر وأكل عدة صفعات ومخالفة مالية، آلمته أكثر من الصفعات. ضباطنا يعلقون أهمية كبرى على بدلاتهم العسكرية.

٢/٢٠

بلغت السابعة عشرة وما زلت أحب حكايات صديقي المفضل العم سليم، كما كنت أحبها قبل عشر سنوات. اليوم أظن أنه يعيد الحكايات كل فترة بحكمة وذكاء، فليست الحكايات وحدها من يتغير أثناء سردها، بل ويغدو السامع أكبر سناً ويقطف «ثماراً سحرية» أخرى من الحكاية. الحكايات ينابيع سحر لا تنضب.

أعلمت حبيب ومحمود أني بحت لنادية بكل شيء، فلم أر عليهما علامات الغضب كما كنت أتوقع.

تقرر الزهرة الحمراء في قصتي ألا ترضخ للريح وترفض عروضه المغرية، فتغضب الريح وتتحول إلى عاصفة وتهاجم الزهرة الحمراء. تقاوم هذه وتصارع الريح بأشواكها، إلا أن الريح تقتلعها وتطرحها أرضاً. ترتعب الأزهار الصغيرة ويفقد بعضها، الذي كان ينوي تسلق الصخرة، شجاعتها. تقول بعض الأزهار العجوزة: «هذا ما جنته على نفسها. طوال عمرها كانت لا ترضى بقدرها». لكن الزهرة الحمراء تصف وهي تحتضر العالم الذي يقع على الناحية الأخرى للصخرة وتتحدث عن الشمس والقمر، فلم تكن الأزهار تعلم قبل الآن أن العالم أوسع بكثير من مجرد تراب رطب وصخرة كبيرة، يبزغ من خلفها ضوء شاحب. بعد أن لفظت الزهرة أنفاسها بدأت الأزهار بتسلق الصخرة. يسقط بعضها ويبأس البعض الآخر، لكن الأخريات تتابع المسيرة. ومنذ ذلك اليوم لا تبقى زهرة في ظل صخرة أو حجر، بل تتسلق كي ترى الشمس وتسمع حكايا القمر.

بكت نادية عندما قرأت لها القصة وقالت: زهرتك الحمراء هذه هي كل امرأة.

لم تعجب القصة ليلى وقالت كان الأفضل أن تموت الريح الحقيرة أو تنال بعض الصفعات لتنهزم. اقتراحها ليس غبياً تماماً. ربما انتقمت من الريح في قصة أخرى.

وجد محمود عملاً. لكن أي عمل! يجلي الصحون في ملهى ليلي. اعترضت على عمله بين القوادين والقحبات، وكذلك نادية ومريم، بينما لم يجد العم سليم وحبيب غضاضة في ذلك، كلٌ من وجهة نظر مختلفة. قال العم سليم، الأسد لا يصير كلباً إذا مصمص عظمة من الجوع. كما أن حبيب أيضاً دافع عن محمود وقال، على محمود أن يكسب لقمة يومه وهنا لا تنفع خطاباتي الأخلاقية كوعظ كاهن ممل. أي إزعاج أزعجني نقده هذا!

استشاط محمود غضباً لنقدي ونشب شجار عنيف بيننا لأول مرة وتهجم علي: «عليك أن تصبح خورياً وليس صحافياً». وتواقح معي فعلاً، فرددت له الصاع صاعين وصرخت في وجهه: «خوري أحسن من كسب الخبز عند الشراميط». دافع حبيب عن العاهرات وقال إنه مثلهن مثل أي وزير أو ربة بيت، لا أكثر ولا أقل وهن أيضاً عليهن أن يعشن بشكل من الأشكال. وهتف وضحك ضحكة غريبة: «الدولة هي القوادة. وأنت يا سيدي إما خوري أو شيخ خرفٌ».

خرجت من شقته غاضباً ولحق بي محمود وذهبنا إلى البيت صامتين. قبل الوصول إلى الباب بقليل أمسك بي وقال: «أنت ستظل صديقي، حتى لو أنك جرحتني فأنا لم أفعل شيئاً إلا التفتيش عن لقمة خبز». عانقته ورجوته أن يسامحنني. لكنني لا أريد رؤية حبيب مرة أخرى.

٣/١٥

«للمرة الثالثة تظهر لي زوجتي في الحلم وتعيد وتكرر أنها تريد اللقاء بي قريباً»، قال لي العم سليم وبث في قلبي الرعب. أمي تؤمن بهكذا أحلام. أخشى على صديقي من الموت ـ لا سمح الله ـ مع أنه موفور الصحة.

٣/١٩

«أنت صديقي المفضل. خسارة أنك ولدت متأخراً. أتمنى لو كنت التقيت بك وأنا حوذي شاب»، قال لي العم سليم اليوم من دون مبرر أو مقدمات. كنت قد ذهبت إليه لأرى إن كان يحتاج شيئاً من السوق، وهذا ما يفعله جميع أطفال الحوش. تابع العم سليم الكلام: «زوجتي هي الكائن الوحيد الذي رأى كنزي، لكني سأريك إياه أنت أيضاً، لكن لازم تحقق لي رغبة بعد ذلك». سحب العم علبة سيكار خشبية من تحت السرير، مسد عليها برفق وكأنها من الفضة وفتحها على مهل.

«أترى هذا المفتاح؟ هذا مفتاح عربتي. اضطررت لبيع كل شيء، لكني لم أتنازل عن المفتاح». وضع المفتاح جانباً وأخذ بلية من العلبة وأضاف: «لعبت في طفولتي بهذه البلية. كانت بليتي المفضلة وعندما كنت أمسح عليها، كانت تجلب لي الحظ» ثم أخرج جذر عشبة صغيراً جافاً من صندوق كنزه: «هذا جذر نبتة السماق وهو ينمو في جبال القلمون بكثرة، هناك اختبأت عن أعين الحكومة العثمانية. تقطع

النبتة كل عام في الصيف، وتعود لتنمو من جديد، فلا يمكن القضاء عليها. يحب الفلاحون هذه النبتة لأنها تمنحهم الحياة. وقد أعطاني أحد الفلاحين الجذر هذا لأنه يمنحني الأمل بأنني لن أقطع. كنت أحمل هذا الجذر طوال السنوات الخمس التي قضيتها مختبئاً. وهذه الليرة الذهبية من قاطع طريق أنقذت حياته وكلفني أن أعطيها لمن انسدت الطرق في وجهه. لقد احتجت لزمن طويل حتى فهمت حكمة قاطع الطريق. فكلما نويت أن أعطيها أحداً، كنا نبحث عن مخرج ونجده وهكذا بقيت هذه الليرة الذهبية عندي».

صمت العم سليم طويلاً وكأنه يدرك عبء رغبته، ثم قال أخيراً: «صديقي، أريد أن تضع البلية والمفتاح والجذر في قبري. أما الليرة الذهبية فإني أسلمك إياها راجياً أن تنفذ رغبة قاطع الطريق الحكيم. أنقذ بها أحد الناس إذا وصل إلى طريق مسدودة».

شعرت بالغثيان، كدت أبكي وهمست بصوت متهدج: «لن تموت، يا عمي»، لكن العم سليم أصر على أن يسلمني العلبة، التي أخفيتها تحت عوارض خزانة الثياب، حيث أخفي دفتر مذكراتي أيضاً.

٣/٢٠

مرض العم سليم. حملت له الطعام والشراب إلى السرير. يتنفس بصعوبة ويقول إنه أصيب بالزكام بسبب تيار هوائي.

ملاحظة: لم أذهب إلى حبيب منذ تسعة أيام.

أمس كان الوقت متأخراً عندما دخلت أمي غرفتي وقالت إن رجلاً ينتظرني على الباب، معتقدة أنه حبيب، لأنها عرفت قميصه وبنطاله من الغسيل.

قفزت من السرير ووجدته واقفاً بالباب مبتسماً. دعوته إلى الدخول واستعجلت أمي لتصنع القهوة.

مسد حبيب على شعري وقال: «أعتذر لك. كنت قاسياً كثيراً عليك، لكنك أنت أيضاً كنت لا تُحتمل». جاوبت عليه: «لا أريد نقاشاً في نفس الموضوع. أنا لم أبد إلا رأيي».

تحدثنا وتحدثنا وظل هو على موقفه وأنا على موقفي، لكنه كان مؤدباً جداً معي. أحضرت أمي القهوة وجلست معنا. فتملقها الخبيث قائلاً: «أمك حلوة جداً ـ حماها الله من عين الحاسدين ـ وأنت تشبهها»، فضحكت أمي واتفقنا على أن أزوره اليوم بعد العمل.

اليوم كنت عنده، أنا ومحمود، فعمله يبدأ في الثامنة مساء ويدوم حتى الرابعة صباحاً. حكى لنا عن مكان عمله. صاحب الملهى حيوان حقير ويتمنى محمود من كل قلبه أن يشبعه ضرباً، لكن الراقصات لطيفات جداً. يدخلن بين الحين والآخر إلى المطبخ ويمازحن العمال وأحياناً يعطونهم بخشيشاً، إذا كان عملهن في الخارج يسير على ما يرام.

لا أعرف! يبدو أن العمل ليس تعيساً جداً، كما ظننت. كما أن مكسب محمود جيد.

٣/٢٤

العم سليم مريض منذ أربعة أيام. في البداية توقعنا أن يكون مصاباً بالزكام، لكن الحمى أصابته منذ ثلاثة أيام. قرر أهلي أن يأتوا بالطبيب، فلا الشاي ولا الكمادات الباردة أظهرت مفعولاً. بعد أن تكلم أبي مع الطبيب، اتصل بابنة العم سليم في حلب. ابنه يعيش في أميركا، ولا يمكن الوصول إليه.

لم أر أبي بهذا الحزن من قبل. كل يوم، بعد أن يعود من المخبز وقبل أن يأكل، يذهب إلى العم سليم ويربت على يده. يريد العم سليم أن أظل عنده. أجلس بجانبه حتى ينام. يا إلهي، لقد ذاب من الضنك وكأنه انكمش وأصبح جلده فضفاضاً.

٣/٢٦

وصلت ابنة العم سليم، التي لم أرها منذ عشر سنين. لم تتفاهم مع أبيها أبداً، أما الآن فهي خائفة عليه وترعاه برقة وحنان، لكن العم سليم ليس لطيفاً معها البتة ويسألها دائماً عن سبب مجيئها ويطلب منها أن ترجع إلى زوجها الأبله. ذرفت دموعاً حارة عندنا لأنه لا يريد أن يسامحها على هربها مع ابن عدوه. وهذا ما لا أفهمه وسأسأله عنه عندما يستعيد صحته. إلا أن أمي لم تنتظر ونزلت إلى غرفة العم سليم وتحدثت معه، وبعد فترة نادتني أنا والابنة ودخلت سريعاً إلى المطبخ. ركضنا على الدرج فرأينا العجوز الماكر جالساً في سريره يضحك. ونادى ابنته: «تعالي هنا. حنة غسلت لي رأسي بصابونة بهدلة. تعالي، خليني أحضنك فأنا مشتاق لبوسة من عشر سنين».

بكت المرأة على كتف أبيها فقبل جبينها. أنا جلست أراقبهما عاجزاً عن الكلام، بينما روت هي عن كل ما أرسله زوجها من هدايا للعم سليم وعن حال أطفالها. عندها ثلاثة أطفال. بعد فترة جاءت أمي بالقهوة وهتفت عندما رأتهما: «هيك ها! الله يلعن الزعل في قبره» وضحكنا.

٣/٢٨

تحسن وضع العم ثلاثة أيام ونوت ابنته أن تسافر، لكنه غاب عن الوعي فجأة. فركضت إلى الطبيب خائفاً (للعلم أنا لا أعمل منذ أسبوع وشرحت لمعلمي أني لا أريد أن أترك العم سليم وحيداً. كان مهذباً، نصحني بالذهاب لأعتني بصديقي العجوز، حتى يتعافى). قال الطبيب إن حال العم حرج جداً وقلبه ضعف كثيراً. اللعنة! ليتني أستطيع إعطاءه جزءًا من قلبي.

٤/٥

انقلاب جديد. لعلعت الرشاشات مع الفجر وأرعدت الطائرات الحربية فوق البيوت. ظل الراديو صامتا حتى الظهر، حيث تلا المذيع البيان الأول بصوت مرتجف. سقطت الحكومة لأنها كانت (وماذا سيكون السبب!) فاسدة وخائنة. هدد المذيع بالقضاء المبرم على كل من تسول له نفسه العمل ضد الثورة وأعلن عن منع التجول إلى أجل غير مسمى (٢٠ ساعة في اليوم. يسمح للشعب بالخروج من بيته فقط

لأربع ساعات من الثانية عشرة حتى الرابعة بعد الظهر. هل نحن قطيع غنم؟). يقول أبي إن الحكومة الجديدة لم تمسك بزمام الأمور كلها بعد لطيلة وقت منع التجول. هذا ما تنم به أيضاً لهجة المذيع القلقة.

تصدر من العم سليم حشرجة مؤلمة وترتفع حرارته. أعطيت سريري لابنته وأنام منذ ثلاثة أيام عند ليلى. (هذه العفريتة تنام بالعرض وتضرب كل من يقف أو يقع في طريقها). تشعل أمي كل صباح شمعة للعذراء، كي تحمي العم سليم.

٤/٦

ما زال منع التجول ساري المفعول. إلا أني تمكنت من الوصول إلى حبيب رغم المخاطر. هو أيضاً يشعر بأن السلطة الجديدة لم تستقر في كرسيها. فالقوى الجوية والبحرية ضدها. تزداد الأمور سوءًا من انقلاب إلى انقلاب، فكل سلاح يقوي مركزه، وبذلك يكفي أن لا تستسلم القوى الجوية حتى تدوم المعارك على العاصمة أياماً وأسابيع. تحلق الطائرات النفاثة حول دمشق، لكنها لا ترمي قنابل. دمشق سقطت تماماً في يد الانقلابيين الجدد، لكن الشمال يرفض الاستسلام والطرق مقطوعة.

كانت الشوارع خالية من المارة عندما عدت إلى البيت. علمت من حبيب أن الجنود المهسترين يطلقون النار على كل ما يتحرك في الشارع. كنت حذراً جداً وأسير عدة خطوات لأتوقف على مدخل بناية أو في زقاق جانبي لأتأكد من مرور الدوريات.

كم كانت أمي غاضبة عندما دخلت. لم ترد أن تتكلم معي، حتى وعدتها بأن لا أعيدها أبداً. معها حق، فقد كنت متهوراً.

كان العم سليم ينام هادئاً وابنته تشعر ببعض الراحة لأنه استيقظ ظهراً، أكل وشرب الشاي، ضحك وسأل عني.

جلس أبي في غرفته يسترق السمع إلى الراديو. وهمس عندما دخلت: «ما زالوا يقاتلون. اعترفت البحرية بالحكومة الجديدة لكن القوى الجوية دمرت الإذاعة وقصر الرئاسة كليّاً. حلب لا تستسلم والدبابات تزحف نحو الشمال. الله يحمي النساء والأطفال».

الاثنين، الثامن من نيسان:

أمس كان أتعس أيام حياتي. مات العم سليم، هذا الرجل الشجاع والنبيل.

فجعنا به كلنا. أنا خسرت أفضل أصدقائي. كان يقف بجانبي دائما ويقيني من البالغين والدهر. كان قاسياً بنقده، إذا قمت بعمل منكر، إلا أنه لم يذلني أبداً بحضور الآخرين، كما كان أبي والمدرسون في المدرسة يفعلون. كلا، كان يستفرد بي ويبين لي غاضباً، لكن هامساً، أي فعل شنيع ارتكبته.

بكاه الجميع، كباراً وصغاراً، وامتلأ البيت بالمعزين.

مات صامتا في الليل وتركنا إلى الأبد. امتلأت غرفته الصغيرة بأزهار أصدقائه. أغلق أبي المخبز وجهز القهوة المرة للمعزين، كما هي العادة في هكذا مناسبات. بمساعدة بعض الرجال الآخرين جاء بتابوت بسيط، رغم منع التجول. ساعدَت أمي في غسيل جثمان العم سليم. كانت تخرج بين الفينة والأخرى إلى الفناء، تجلس وحيدة في

الركن وتبكي. قضت نادية النهار هنا مع أمها. فقط والدها، الحيوان التعيس، لم يأت، مع أنه كان في البيت. مسدت نادية على شعري وأمسكت بيدي من دون خوف، لأن وضعي كان مزرياً فعلاً. كنت أبكي كطفل يتيم.

بادر الخوري حال وصوله بالدعوة إلى التروي والعقلانية، متحدثاً عن خطورة تشييع الجثمان بجنازة، وأمله في تأمين سيارة، ينقل فيها، هو والابنة، الجثمان إلى المقبرة. لم يحدث أن صرخ أبي في حياته في وجه خوري، لكنه استشاط أمس غضباً. فشعرت بفخر حقيقي به. صرخ في وجه الخوري قائلاً إن الكنيسة لم تعد كنيسة للفقراء بل لركاب المرسيدس. إن المسيح كان رفيقاً للفقراء والمنبوذين، لكن الكنيسة تطيع أوامر أصغر ضابط. ورفع صوته ممزقاً به الصمت الذي كان مخيماً على الحوش: «العم سليم، ما كان مجرماً، حتى نهرّبه سراً إلى المقبرة. العم سليم كان إنساناً نبيلاً وعلى هذا سيبرهن موكب تشييعه». أيده الرجال والنساء وقرروا ألا يتقيدوا بمنع التجول. شحب الخوري وحاول الهرب. قال إن عليه أن يعمّد طفلاً وسيرسل وكيلاً عنه للجنازة.

«أنت ستبقى معنا» أمرته ابنة العم سليم وأمسكت برقبته، عندما مر بالرجال الساكتين من دون أن يوقفوه. «إذا لم يوقفك الرجال، فأنا أوقفك. إنه أبي أنا» صرخت، فتجمد الخوري في مكانه.

قررت النساء، خلافاً للعادات والتقاليد، ألا يرافقن الرجال إلى الكنيسة فقط، بل وإلى المقبرة أيضاً. فلم تكن أي منهن راغبة بأن تترك الرجال وحيدين في محنتهم.

لم تشهد حارتنا موكب تشييع كهذا من قبل. رافق مئات الناس

نعش العم سليم، الذي حمله ستة رجال. سارت أكثر من مائتي امرأة أمام النعش، ما لم يحدث من قبل أيضاً. سرت مع محمود وحبيب خلف التابوت مباشرة وسط الزحام. عندما وصل حاملو التابوت إلى الشارع الرئيسي، داروا ثلاث دورات، كي يودع العم سليم حارة العبارة، حارته التي أحبته، ثم تابع الموكب السير إلى الكنيسة القريبة، التي كانت ممتلئة على آخرها. بقيت مع حبيب في الخارج، بخلاف محمود الذي أراد أن يقف مع والده بجوار التابوت وسط الكنيسة رغم أنهم مسلمون. وصل جوزيف متأخراً ووقف بجانبنا صامتاً. ألقى الخوري موعظة جيدة.

انطلق موكب التشييع من الكنيسة في حارة الزيتون عبر الشارع المستقيم العريض حتى بوابة الباب شرقي، ثم انعطف يميناً باتجاه نحو المقبرة وتوقف فجأة بعد مائة متر. لم أتمكن من رؤية شيء، ولم أسمع إلا الصيحات. شعرنا بحدوث شيء ما وانطلقنا نحو الأمام. أحكمت قبضتي على سكيني في الجيب، أما محمود فقد استل سكينه. كانت سيارة جيب واقفة بالعرض على الشارع وأربعة جنود يوجهون رشاشاتهم إلى النساء، لكنهن لم يتوقفن. شتمن بأصوات عالية ومزقت ابنة العم سليم بلوزتها السوداء وصرخت: «اتركوا الجنازة تسير وأطلقوا النار علي» وتابعت المسير ورفعت النساء الأخريات حجارة من على طرف الشارع وتقدمن نحو العساكر المتراجعين.

عندما صاحت إحدى النساء: «نحن أخواتكم وأمهاتكم» رأيت كيف طأطأ بعض الجنود رؤوسهم. أعطى الضابط في السيارة الأمر

بالتراجع وانطلقت سيارة الجيب بأقصى سرعة. نظرت إلى الخلف وفوجئت أن حبيب يقف خلفي ويحمل مسدساً بيده. أعاد تأمينه ودسه في جيب جاكيته. لم أتصور قط أن يملك حبيب مسدساً، لكني كنت أعرف أن أبي وجارين من جيراننا أخذوا أسلحتهم معهم، فقد سمعتهم يتحدثون بذلك على الدرج. لكن النساء الشجاعات، هن من فرقن الجنود بحجارتهن.

ألقى حبيب خطبة مؤثرة عند القبر، تحدث فيها عن حكمة المتوفى وبكى، مثل الرجال والنساء الآخرين.

ملاحظة:

نفذت رغبة العم سليم وألقيت البلية ومفتاح عربته والجذر اليابس في تابوته. اعتبرها الخوري شعوذة، لكنه عندما علم أن هذه آخر رغبات المتوفى، وافق عليها. أحتفظُ بالليرة الذهبية. سأحقق رغبة قاطع الطريق والعم سليم.

٤/١١

استعادت الحياة طبيعتها منذ الأمس. عدت إلى العمل. الدبابات في كل مكان. الإذاعة مدمرة كليا وبنايات كثيرة بقرب القصر الجمهوري عليها آثار المعارك. ما زال العم سليم يعيش فيّ وسأحتفظ به في قلبي ما دمت حيّاً.

ماتت زوجته قبل عشر سنوات. زرته بعد موتها بشهر. كنت آنذاك في السابعة من عمري، ومع ذلك كنت صديقاً صدوقاً للحوذي

العجوز. عندما زرته رأيته يعد طاولة الفطور ويضع عليها صحنين، فنجانين، سكينين وملعقتين. نبهته إلى أن زوجته توفيت. ابتسم لي وقال: «بالنسبة لك، يا صديقي، بالنسبة لك ماتت. أما بالنسبة لي فهي ما زالت تعيش معي وستعيش في قلبي ما دمت أتنفس».

غالب الظن أن أمي لن تضع في الأحد القادم صحناً للعم سليم، لكنه سيعيش فيّ ما دمت أتنفس.

٤/١٤

أرعبت جارتنا الغبية عفيفة ابنتها البالغة الخامسة من العمر، وهذه لا تكف عن البكاء طوال الليل. سألت هالة الصغيرة أمها، لماذا مات العم سليم فأجابت: «لأنه صار عجوزاً». «لكنكم كلكم عجزتم، فلماذا لا تموتون؟» سألت الابنة الفضولية. وجدت عفيفة نفسها في مأزق ولم تجد جواباً أفضل من: «نسي العم سليم أن يتنفس أثناء النوم»، ومنذ ذلك اليوم والصغيرة تستيقظ في الليل خائفة تحاول استنشاق قليل من الهواء وتبكي بحرقة قبل النوم، لأنها تخاف أن تنسى التنفس وهي نائمة. وعفيفة، هذه البقرة الغبية، لا تكف عن الشكوى، لأنها تدعي أن ابنتها لا تفهم المزاح.

٤/٢١

تمضي الأيام والعم سليم لا يغيب عن بالي. يا إلهي، كم أفتقده! استأجر طالب غرفته الصغيرة. عندما أنزل الدرج وأسمع همسات في الغرفة، أفكر أن أدخل لأطل على العم سليم.

غريب. أنا واثق من أنه مات، رغم ذلك يجري لي هذا دائماً. يفتقر الحوش لضحكته. لا أحد يستطيع الضحك ضحكاً طفولياً وبريئاً مثله.

اليوم أدرك أنه كان مخطئاً. أذكر أنه قال لي: «الموت نوم طويل». كلا. الموت هو آخر خطوة. تقود إلى مهجر لا عودة منه. ربما يحيا العم سليم في الأشجار، في الأزهار أو في الأعشاب. كل نبتة تمتص أحد أجزائه من الأرض وتهبه مجدداً للحياة. فالأشجار تهب الظلال والثمر الطمأنينة والغذاء، الأزهار تمنح الرائحة العطرة واللون الجميل والاعشاب البرية تمنح الشوك والمقاومة. كل ذلك يمثل بوجه من الوجوه العم سليم، لكن لن يجمع أي كائن على الأرض كل هذا في مزيج حي، كان العم سليم يمثله.

لا، لقد خسرته إلى الأبد، أعز أصدقائي. أشعر بالوحدة. أحب محمود ونادية. أحترم حبيب كل الاحترام. لكن مكان العم سيبقى فارغاً.

٥/٤

محمود مقتنع جداً بعمله. لم يعد يعمل في المطبخ، إنما يقدم طلبات الزبائن في الملهى الليلي. لا يحصل على بخشيش كثير، لكنه يستغل سكر الأغنياء، فجيبهم أو محفظتهم تكاد تتفتق من النقود المحشوة فيها. كل النساء في الملهى شقراوات. نصفهن من أوروبا والأخريات يصبغن شعرهن، لأن رواد الملهى يفضلون الشقراوات. ترقص النساء شبه عاريات أمام الرجال، الذين يحملقون بهن، ويشربن

معهم ويطلبن على حساب الزبون أغلى المشروبات، لأنهن يأخذن نسبة مئوية على كل مشروب.

يطالب صاحب المقهى النساء بالتعري أمام رواد معينين من أصحاب السلطة أو الثروات الطائلة. النساء جميلات جداً، إلا أنهن مكسورات القلب ويشربن كثيراً.

٥/٧

كالعادة يخدم والد نادية الحكومة الجديدة ويلاحق رفاق الأمس، لأن بعضهم نجا من حملة الاعتقالات الأولى. ما هذه الحقارة؟ نادية تحتقر أباها كل الاحتقار.

اليوم قالت لي جملة جميلة، ذلك عندما عدت إلى ذكر العم سليم: «لا أحد يعوض صديقاً، لكني سأكون مخلصة لك مثل هذا الصديق، كي أهون عليك خسارتك».

إني أحبها.

٥/١١

نجهز العدد الخامس. حبيب يكتب مقالاً عن الانقلابات في سوريا، أنا حكاية عن الصداقة، أهديها للصديق ع. س. (لا أستطيع كشف اسم العم سليم). أسئلة محمود السبعة، هي أفضل أسئلته حتى الآن وتتساءل عن ازدواجية الأخلاق، عن الموت والانقلابات. أكثر هذه الأسئلة فكاهة: «لم نعدم الخبز والحليب وحدهما، بل انقرضت

حتى الراقصات الشرقيات، ففي الملاهي الليلية تهز لنا الأميركيات خصورهن. هل تعلم أين اختفت كل هذه الأشياء التي نفتقدها؟ اسألوا حكومة الثورة!».

٥/١٥

جاءت نادية لنقضي ساعتين في شقة حبيب. أما هو فقد ذهب إلى المقهى حيث يلتقي الكتاب والصحافيون ويتبادلون آخر الأخبار. رفض عرضاً للعمل في الجريدة الرسمية. مكسبه من الترجمة يكفيه. طبع كتاب أرسين لوبين وحصلت على نسخة موقعة من حبيب. اليوم أريت نادية أوراق العددين الثالث والرابع وأخيراً صدقتني. حضنتني وقبلتني قبلة طويلة.

ثم أظهرت لي سرعتها في الكتابة على الآلة الكاتبة. وفعلاً يصعب رؤية أصابعها. لقد تعلمت هذا في دورة خاصة.

٥/٢١

أخبرني أبي أن الصانع الذي أخذ مكاني في المخبز ترك العمل اليوم، لأنه يفضل العمل في التهريب. تقع قريته على الحدود مع اللبنانية والتهريب يعني المال السريع. لكنه أمّن عاملاً آخر قبل أن يترك المخبز.

قام والدي بإصلاحات في المخبز وأموره الآن أفضل. ألاحظ هذا في نوعية طعامنا، فلم يسبق لنا أن رأينا هذا الكم من اللحم على

الطاولة كما في الأشهر الأخيرة. في هذه اللحظة أتذكر الشاب الذي أخذ مكاني في المخبز وكان يحلم أن يصير ممثلاً. كان موهوباً، لكن لم يكن عنده صديق عظيم مثل العم سليم.

٦/٢

العدد الخامس جاهز. سحبنا أكثر من خمسة آلاف نسخة. كان العمل في هذا العدد مرهقاً، لكنه عدد مميز. كشف لي حبيب بأسلوب بسيط أكاذيب الانقلابيين الذين مروا على سوريا منذ حسني الزعيم وحتى الآن.

٦/٧

أطلقنا خمسة بالونات تحمل حوالى ثلاثمائة نسخة وتطايرت الوريقات في الهواء.

٦/٩

كانت عملية الجامع الأموي خطيرة شيئاً ما، لكن علاوة عليها تمكنا من توزيع الجريدة في أربع كنائس وعشرة مساجد أخرى. قريباً سينتهي حبيب من الرواية الثانية لأرسين لوبين وهو راض جداً عن نفسه. يدخن أقل وسمن قليلاً. مريم مجنونة به، لكني لا أظن أنه يبادلها الحب نفسه. ما زال يتذكر زوجته. هل يمكن حب أكثر من

شخص؟ أعتقد نعم. نحب أحدهم بشدة والآخر باعتدال. الأول لأجل عينيه والثاني لحديثه الشيق، والثالث لنفسه، والرابع لصوته، والخامس لعقله... وهكذا. نعم، مثل ألوان قوس قزح. كم كان المجنون على حق.

٦/١٣

فعلا يكسب محمود نقوداً كثيرة. يوفر منها القليل ويعطي الباقي لأهله. أمه تكاد تطير من الفرح وثيابها تزداد أناقة يوماً بعد يوم.

أخبرني محمود اليوم أن بعض كبار الضباط زبائن دائمون في العروض الخاصة ويشربون مثل البالوعة ويتصرفون مثل الخنازير، بحيث تحمر الكراسي خجلاً منهم. قال إنه يسمع الكثير عما فعلوه من مآثم وجرائم ويتفاخرون بالشخصيات التي يعرفونها.

سألته: «ألا تعتقد بأنها فكرة جيدة، لو نطلع الرأي العام على كل ما يثرثرون به؟».

«طبعاً»، أجابني محمود.

٦/٢٦

اللعنة! حدثت كارثة! كشفوا حبيب.

كنت في طريقي لزيارته فرأيت سيارات الشرطة من بعيد. كان جنديان يحرسان مدخل البناية. وقفت مع كثير من الجيران والفضوليين أراقب المشهد من بعيد. تدفق المزيد من الشرطة والقوات الخاصة من

البناية، حاملين كراتين إلى السيارات. كانت مريم واقفة على الشرفة وعندما رأتني، هزت رأسها. كان وجهها شاحباً شحوب الموتى.

انتظرت حتى ذهبت السيارات وتسللت إلى شقتها خفية. اندفعت باكية إليَّ وحضنتني ثم همست في أذني باكية: «ماذا أعمل من دونه؟ يقولون إنه خائن واستلم أموالاً من الخارج ليقضي على الحكومة. حبيبي المسكين». أجهشت بالبكاء من يأسها.

كانت مريم تعرف أننا نطبع الجريدة، لكنها لم تنطق بكلمة واحدة، عندما سألتها الشرطة عن أصدقاء حبيب ومعارفه. رافقتها إلى غرفة نومها، فتكورت في سريرها كطفل صغير. غادرت طابقها وصعدتُ الدرج بحذر وفتحت باب شقة حبيب بمفتاحي. وجدتها وكأن قطيعاً من الوحوش هاج فيها وماج. فالخزانة محطمة وصورة زوجته ملقاة على الأرض ممزقة. لم يبق شيء سليم في الشقة. الشاي، الملح، السكر، القهوة متناثرة على الأرض والصحون كسرت. أخذوا كل الكتب والآلة الكاتبة والآلة الناسخة. وحتى الملابس أخذوها.

أصيب محمود بصدمة كبيرة عندما علم بالخبر. إنه شجاع ويضبط نفسه بسرعة، لكنه قلق على حبيب. سيضربونه حتى الموت أو الجنون ويرمونه بعدها في مستشفى المجانين.

٦/٢٩

تشاورت مع محمود وقال علينا أن ننفق الليرة الذهبية على حبيب لنوكل له محامياً. لكننا لا نجد محامياً. رد المحامون على محمود،

كما ردوا علي، بأجوبة فضفاضة وتهربوا كي يبرروا رفضهم للقضية. محام واحد كان صريحاً وقال إن الدفاع عن السجناء السياسيين ممنوع في سوريا. مستعدين للدفاع عن أي مجرم قاتل ومغتصب للنساء وعن مهرب للحشيش أو للأسلحة وأما عن سجين سياسي فلا. هذا ما أكدته نادية، فقد نظر إليها معلمها، هذا المتبجح الذي يدعي أن جميع القضاة تخرجوا من تحت يديه، نظرة ارتياب، عندما سألته الدفاع عن حبيب ونصحها بفظاظة أن تكتفي بدق الرسائل على الآلة الكاتبة ولا تتكلم في مثل هكذا قضايا سياسية في مكتبه، هذا إذا أرادت أن تستمر في العمل لديه.

إذاً فنشرة سياسية في هذا البلد أخطر بكثير من جريمة القتل.

٧/١

اليوم بثت إذاعة بي بي سي نبأ اعتقال حبيب. نقلت الخبر عن لوموند وقالت إن حبيب اعتقل بسبب نشاطاته الصحافية الشجاعة.

٧/٤

مرت تسعة أيام. أوردت الجريدة الرسمية أن مجنونا اسمه حبيب كان يعمل جريدة مجنونة وأنه الآن يخضع للعلاج.

غريب أمر معلمي. يتكلم بسوء عن حبيب ويقول عنه إنه أحمق، فقد أراد أن يتحدى الحكومة وحده. تمنيت لو أبصق في وجهه، هذا الكلب الجبان.

٧/١٠

أمس عقدنا جلسة طويلة وفكرنا بما نستطيع عمله لأجل حبيب. يجب إخراجه من السجن بأي شكل من الأشكال. لكن كيف؟

اقترح محمود أن نختطف ضابطاً من الملهى الليلي ونبادله بحبيب. الفكرة ليست سيئة تماماً وغداً سأذهب إلى الملهى وأراقب الوضع. يحق لمحمود أن يقدم لي مشروباً بالمجان.

جس معلمي نبض أحد الكبار بخصوص حبيب، لكن لا أحد يستطيع مساعدته. قال المعلم إن الضابط الكبير قال إنه يستطيع إخراج أي قواد أو مهرب حشيش أو سفاح من السجن، لكنه لن يتدخل أبداً في حالة سجين سياسي، فهو لا يريد أن يحرق أصابعه.

كما سدت نقابة الصحافيين الأبواب بوجه معلمي وقالوا له هناك: «حبيب إنسان مريض ولم تكن تصرفاته مسؤولة».

٧/١١

وجدت نادية فكرتنا سيئة وغبية واتهمتنا بالغباء والجنون وتساءلت هل لأي جنرال قيمة حقيقية بالنسبة لنظام كل رجاله انتهازيين مثل أبيها. ضحكت منا ساخرة وصرخت بي: «من يعرف، ربما حصلت على وسام لأنك خلصت الحكومة من جنرال، كانت تريد التخلص منه ولا تعلم كيف، لكن حبيب لن يخرج حياً!».

كنت ليلة أمس في الملهى. قلت لأمي أن تخترع أي حجة إذا سأل الوالد عني، ووعدتها بألا أصرف النقود ولا أعمل أي شيء مع النساء هناك وأن كل ما أريده هو زيارة محمود ورؤية مكان عمله.

هذا الملهى خيالي. لا يمكن أن يصدق أحد أن في دمشق مثل هذه الأمكنة. في الخارج يمنعون علينا لمس الحبيبة ببراءة الأطفال، هذا بصرف النظر عن التقبيل دون براءة، وفي الداخل يجلسون ويتمتعون بالحياة الفاجرة وكأنهم في باريس.

أراني محمود وزير العدل وقائد القوى الجوية، الذي لم يعترف بالحكومة الجديدة إلا بعد أخذ ورد. كان في ثياب مدنية. رجل قصير ونحيف نسبياً في الخمسينات من العمر. هنا لا يبث هؤلاء الناس الهول والرهبة. يا إلهي أي دور تلعبه البدلة العسكرية! من السهولة بمكان تصوره تاجر خراف أو عطاراً.

امرأة شقراء سمينة نسبياً ترقص الرقص الشرقي. كان منظرها مصيبة للعين. ما تقوم به ليس رقصاً، بل هزاً لكتلة من الشحم، لكن الرجال يهللون لها كلما انحنت وأظهرت نهديها.

سكر الجنرال بعد الكأس الثانية وتحدث بانكليزية جعلتني أشفق على مدرّسه. كان غبياً لدرجة أنه يترجم تعليقاته العربية إلى الانكليزية حرفياً. ما يبدو جميلاً بالعربية يصير قبيحاً إذا ترجم حرفياً. «اوه ماي آي آبل، يو باري مي، يو سويت بي» كان يغازل الراقصة بعينين زائغتين ويرقص حواجبه كالممثلين المصريين من الدرجة الثالثة.

كلا! نادية على حق. كل حكومة ستتمنى التخلص من هكذا

غبي، وتعوضه بكل سهولة بمن هو على شاكلته. اليوم سأناقش محمود ونادية من جديد.

٧/١٣

اليوم زرت قبر العم سليم المتواضع، الذي لا يعلو عن التراب الذي أنجبه وإليه عاد. وضعت خمس وردات حمر على قبره.

أكاد أختنق حزناً على حبيب، لكني أريد أن أحيا وأضحك. لن أفقد الأمل. هذا ما تعلمته من صديقي العجوز، الذي قال لي ذات يوم: «كل شيء، كل شيء يكبر إلا المصائب، فهذه تكون كبيرة بحجم السماء عند مولدها وتصغر يوماً بعد يوم».

٧/١٤

طال نقاشنا. شرد محمود عندما سألته نادية: «برأيك، كيف كان حبيب سيتصرف في موقف مثل هذا؟». فنطقنا معاً، وكأن لنا فماً واحداً، «الجريدة».

«بالضبط. يجب أن يعرف هؤلاء القتلة، أنهم إذا قتلوا حبيب، أكمل مائة حبيب مسيرته».

تريد نادية أن تشاركنا العمل. تريد أن تكتب عن نساء دمشق ومحمود سيكتب بعض أسرار الانقلاب الأخير. أنا سأكتب مقالاً عن أشجع صحافي في سوريا، عن حبيب. محمود ونادية اتخذا هذا القرار، لأني أقرب الناس إلى حبيب.

تبرع محمود بمائتي ليرة من مدخراته ثمناً لآلة ناسخة وآلة كاتبة. أنا دفعت مائة ثمناً للورق والحبر والبالونات.

شُغلنا طويلاً بالعثور على مخبأ لـ«مطبعتنا». وهنا قدمت مريم مساعدة لا توصف. فهي تعرف صديقة تؤجر غرفاً للطلاب وعندها غرفة فارغة على السطح منذ أسبوع، لأن الجامعة معطلة. الغرفة رخيصة جداً وكثير من الطلاب يدخلون ويخرجون من البناية. أما مالكة البيت فتسكن بيتاً بعيداً وفي منطقة جميلة قرب منتزه السبكي ولا يهمها من يسكن في الغرفة في حي الميدان، المهم أن يدفع الإيجار كل شهر مقدماً، الأمر الذي ستقوم به مريم لأجلنا ولأجل حبيب.

غداً أذهب معها إلى المرأة وآخذ المفاتيح. سأدعي أني طالب مستجد وأن أبي فلاح غني من الشمال وأجرة ثلاثة شهور مقدماً ستقنع المدام.

حبيب يحتاج الجريدة. سنُري العسكر كم من حبيب أنجب الصحافي المعتقل.

هذا الكتاب

نشرت هذه الرواية خلال العشرين سنة الماضية في طبعات ألمانية عديدة ومنوّعة، بل إن جريدة «زود دويتشه» اختارته ضمن أهم خمسين كتاب عالمي للشبيبة، وحاز على جوائز ألمانية مهمة وأخرى من البلدان المجاورة. . . وهذه ترجمتها العربية الأولى!

6267